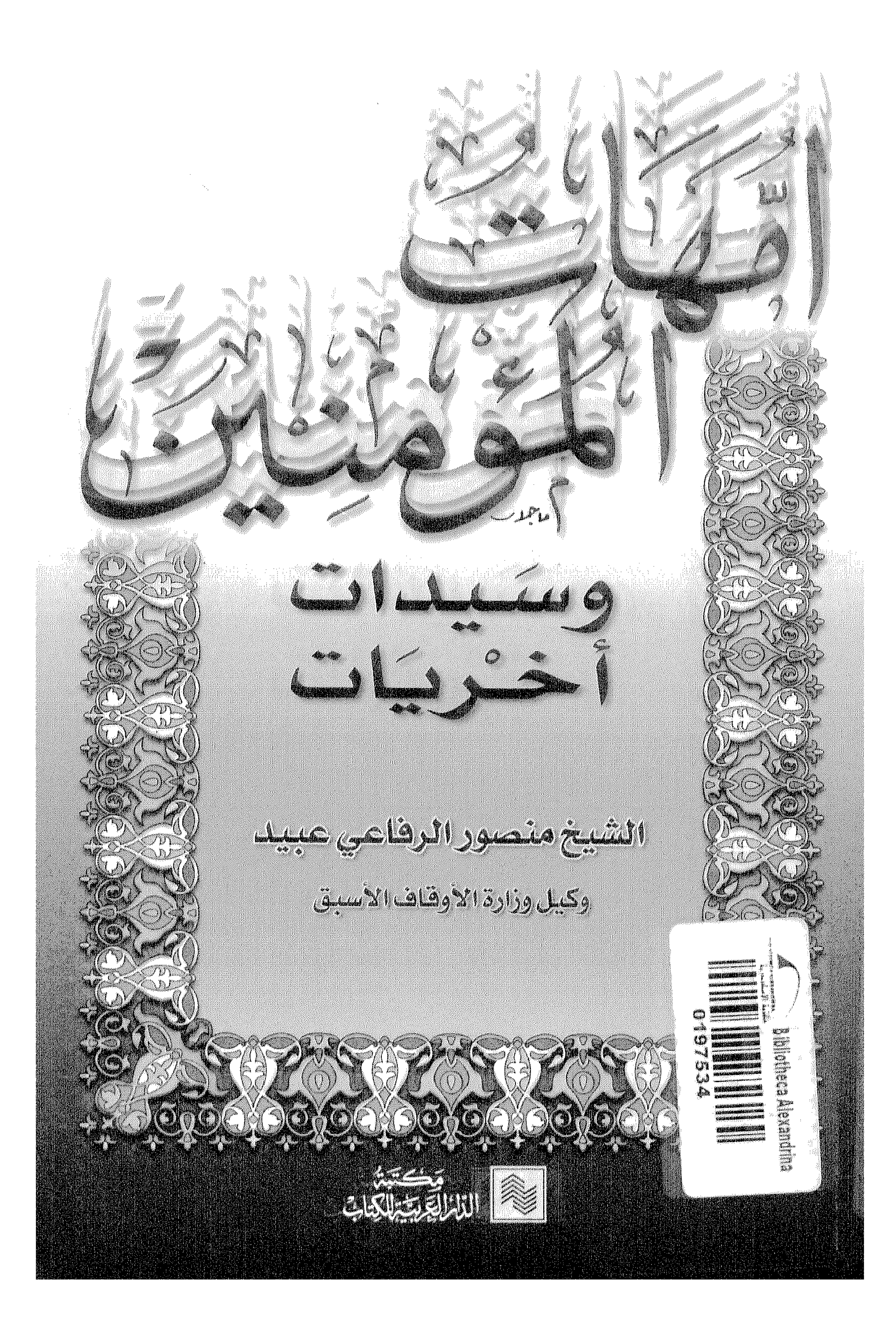

أمهات المؤمنين
وسيدات أخريات
الشيخ منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق
مكتبة الدار العربية للكتاب
Bibliotheca Alexandrina
0197534

أمهات المؤمنين



وسيدات أخريات

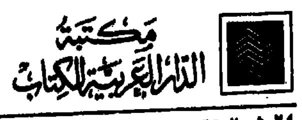
الشيخ منصور الرفاعي عبيد

وكيل وزارة الأوقاف الأسبق



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ . ٢٠٠٠ م



٢٤ ش الدكتور حسن إبراهيم - متفرع من مكرم عبيد - تليفون: ٢٨٧٨٥٥٣ - ٣٩١٠٢٥٠
فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - ص.ب.: ٧٥٨٤ - الحي الثامن - مدينة نصر
رقم الإيداع: ٩٩/١٧٦٠ - الترقيم الدولي: 6-053-293 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله أحمده وأستهديه وأستغفره وأسأله التوفيق ضارعاً إليه سبحانه: **﴿ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذُرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾**. وأصلي وأسلم على سيد الأولين، وإمام المتقين، وخاتم المرسلين، وقائد أكثر المحجلين الذي رفع لواء الحق سيدنا محمد بن عبد اللّٰه ﷺ، الذي رفع قَدْرَ المرأة، وأمر بصيانة حقها وعدم إهانتها أو الاعتداء عليها، فقال ﷺ: **«ما أكرم النساء إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم»**. ثم أخبر الرجال أن النساء شقائق لهم، والإنسان الكريم الأصيل لا يعتدي على شقيقه ولا يهضم حقه، ومن يفعل ذلك يتصف بالخسَّة والنذالة والجبن، لهذا قال النبي ﷺ: **«النساء شقائق الرجال»**. . . وبعد:

فالحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات. . . هذا هو الجزء الثالث عن «المرأة» نقدمه بين يديك، لكنه ليس كسابقيه، وإنما هذا الجزء خاص بأمَّهات المؤمنين وبنات النبي ﷺ وآل بيته الكرام، وشخصيات نسائية أسهمت كل واحدة منهن بدور رائد في المجال الديني، والعمل الاجتماعي. وكيف أسهمت كل واحدة برأيها وفكرها في تطوير المجتمع ورقيه. . ونحن إذ نقدم هذا الجزء عن هؤلاء السيدات فإننا نقول للعالم أجمع: هذه هي المرأة في الإسلام. . وهذا دورها. . فأروني ماذا صنعت حضارتكم التي تزعمون أنها أعطت المرأة حريتها. إن حرية المرأة في ظل حضارتكم أهدرت كرامة المرأة. . وتسببت في إيجاد كثير من «العوانس» من بين النساء. . ثم حرمت الكثير من الرجال من بناء عش الزوجية، وأُطلق عليهم في المجتمع المعاصر «العُزّاب».

ذلك لأنه في ظل هذه الحضارة نظر الرجل إلى المرأة نظرة ريبة، وبادلته هي

الأخرى نفس الشعور، وهنا حدث التوتر والانفصام الشخصي. فاستقلت المرأة بشخصيتها وأضربت عن الزواج، مدعية الحفاظ على رشاقتها، أو أنها ترفض فكرة قوامة الرجل عليها، أو أنها تعمل كالرجل تماماً وتكسب، فليس للرجل أن يجعلها قعيدة بيت، أو أن هناك مشاكل في طريق التطبيق والتطبيع بين الطرفين. فنتج عن ذلك نوع من الكساد، وظهرت أزمة الزواج الحادة متمثلة في غلاء المهور تارة، أو عدم وجود شقة تارة أخرى، أو عدم رضوخ الفتاة للزواج بحجة أنها ستكون في الوسط الفني لامعة جاذبة، أو في وظيفتها متقدمة متنقلة بين بلاد العالم. وفي غمرة كل ذلك نسيت المرأة وظيفتها الأصلية، زاعمة أنها حرة، ونحن نقول لها: يا أختاه، إن المرأة خُلقت للرجل وهو لها خُلِقَ، فأي تمرُّد على ذلك... تمرّد على فطرتك الأصيلة، وأنا أستحلفك بالله، وبأي شيء عزيز لديك، ما هو شعورك عندما تَخْتَلِينَ بنفسك وتجلسين وحدك؟ هل يؤنسك بريق الصالة التي فيها تُغنّين، أو يُهدئ أعصابك قرارٌ بترقيتك إلى مدير؟

أنا لن أجيب عن ذلك، وإنما أترك الإجابة لك يا أختاه. لأنني أعرف وأؤمن بأن ميدان عملك هو المنزل، وأشرف رسالتك تربية الأولاد.. هذا هو الميدان الحقيقي للمرأة وأي خروج على ذلك نستطيع أن نقول لك عنه بأنك «تسبحين ضد التيار». وعندما يزول البريق ويذهب اللمعان ويأتي دور الإحالة إلى المعاش ـ وهو آتٍ لا ريب فيه ـ ساعتها سوف تندمين ولا ينفع الندم وتقولين: لو كنتُ أدركت هذا لكنتُ غيّرتُ مسارَ حياتي.

لذلك وجب علينا ـ كمفكرين وعلماء ـ أن نضع بين يديك ما قدمناه في الجزأين السابقين، وهذا الجزء هو المستمر لما مضى، وسوف تطالعين بين ورقاته صوراً مشرقة لشخصيات أضاءت جبين الزمن، وأصبح لكل واحدة منهن ذكر في التاريخ، وسِمَة واضحة تدل على رجاحة العقل، والانقياد لما تمليه الفطرة الإنسانية، وتحققه الغاية المنشودة.

فإليك يا بنت اليوم أقدم هذا الجزء، وفيه الكثير عن أمهات المؤمنين اللآتي أذهب الله عنهن الرجس وطهرهن تطهيراً، علاوة على العديد من بنات النبي وآل

بيته، وشخصيات أخرى رأينا من المناسب ذكرها لما لها من جميل الذكر وحُسن الأثر.

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتي في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم.

والله الموفِّق

سراي القبة

في ربيع الأول ١٤٢٠هـ

يونيه ٢٠٠٠هـ

منصور الرفاعي عبيد

الوكيل السابق لوزارة الأوقاف

للمساجد وشؤون القرآن الكريم

عضو اتحاد الكتّاب




الفصل الأول

نساء مؤمنات




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

آسيا بنت مزاحم

هذه المرأة ذكرها القرآن في معرض تذكير المؤمنين بشخصية عظيمة لم يُغرها المال، ولم يُنسِها السلطانُ حقيقة أمرها، ولم تخدعها الحياة الدنيا، برغم أن الثراء كان تحت قدميها، والعز بين يديها، بل مملكة بأسرها رهن إشارتها، لأنها كانت زوجة «فرعون ملك مصر»، والحق سبحانه وتعالى عصمها منه بعد أن دخلت في دين الله، وعرفت الحق فاتَّبَعَتْهُ، لهذا قال سيدنا رسول الله ﷺ عنها ـ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما: **«كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»**.

ونحن نعلم أن فرعون كان يقوم بذبح الذكور الذين يولدون من بني إسرائيل لأنه كان رأى رؤية فُسِّرت له بأن زوال ملكه سيكون على يد واحد من بني إسرائيل، وشاء الله أن يولد سيدنا موسى في هذه الفترة العصيبة، لكن الله ألهم أُمَّه أن تصنع له صندوقاً وتضعه فيه وترمي به في البحر، وتُرسل أخته تتبع أثر الصندوق، فعلمت أن الصندوق وصل إلى دار فرعون، وكادت أم موسى أن تصرخ وتولول، لكن الله ثبّت يقينها وقوّي عزيمتها فصبرت، وأرسلت بأخت موسى مرة أخرى إلى دار فرعون وهناك رأت «آسية» وهي تعلن بصوت عالٍ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

هذا هو صوت العقل والاتزان، وقد استجاب فرعون لها لأنه يحبها لرجاحة

(١) سورة القصص، الآية ٩.

عقلها وسلامة تفكيرها ورأيها الصائب، فنزل فرعون وحاشيته على رأيها، وأرسل في طلب المراضع لهذا الطفل، لكن موسى رفض كل النساء، فقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾؟[1] ورضيت زوجة فرعون بهذا الرأي، وذهبت أخته فجاءت بأمها، وعندما رآها موسى الطفل الصغير أقبل عليها، وعندما أرضعته شرب لبنها وسكت بعد طول بكاء، فَرُدَّ موسى إلى أمه التي بدأت تأخذ أجراً من بيت فرعون على قيامها بإرضاع طفلها، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[2].

ومضت الأيام وكبر موسى بعد أحداث مرت به، وتنبأ بوحي الله الذي قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[3]. لكن فرعون لم يستجب، لأنه في زَعْمِ نفسِه إلهٌ، لكن زوجته العاقلة الرشيدة أسلمت مع موسى لله رب العالمين. وعرف فرعون بإسلام زوجته، فأقسم بألوهيته لَيُذيقنَّها العذاب الأليم. وبرّ بقسمه، وجاءها برجال غلاظ شداد ربطوها في أربعة أوتاد، ومنعوا عنها الطعام والشراب، وتولوا تعذيبها مرة بالعصا، وأخرى بالكرباج، وثالثة بكيٍّ أجزائها بقطع من الحديد المحمَّى في النار، وكانت المسكينة تقول: «إلٰهي.. كيف أجوع وأنا أَمَتُكَ وأنت الغني الرزاق؟! إلٰهي.. كيف أظمأ وأنت الذي تسوق الماء إلى الأرض الجُرُز؟! إلٰهي.. كيف أُعَذَّبُ وأنا أَمَتُكَ، ناصيتي بيدك لا رادَّ لقضائك، ولا مُعقب لحكمك، يكفيني أن قلبي معك وروحي بين يديك!! ثم تطلب من ربها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾[4].

وتأمل أيها القارئ في هذا الدعاء وهي تقول: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، فقد قدمت ربها على الجنة، وهي بهذا تختار الجار قبل الدار، وتختار

---

(١) سورة القصص، الآية ١٢.

(٢) سورة القصص، الآية ١٣.

(٣) سورة النازعات، الآيات ١٧ ـ ١٩.

(٤) سورة التحريم، الآية ١١.

الرفيق قبل الطريق، وأَنْعِم بها من صحبة. لذلك فازت هذه المرأة بثواب كبير وأجر عظيم، وذكرت في القرآن الكريم في سورة التحريم بأن ضَرَبَ الله بها مثلاً للذين آمنوا.

إن هذه المرأة المؤمنة نموذج حَيٌّ أمام المسلمات يتعلمن منها الصبر، ويتخذنها رائدة قائدة ليكون لهن ما لها من حسن الختام، والذكر الطيب بعد الموت. فالذكر للإنسان عُمْر ثانٍ... فعلى كل فتاة أن تدرس شخصية هذه المرأة التي عُذِّبت وصبرت، لأنها آمنت بالله وأسلمت مع موسى، ومن هنا هان عليها كل شيء: المال، والسلطان، والعز، والجاه. إنها تركت كل ذلك في سبيل العقيدة الإيمانية التي ندعو كل امرأة أن تتمسك بها، وتلوذ بعقيدتها، لأن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً. وسُجِّلت هذه المرأة مع الخالدين الأبرار في جنات النعيم... فسلام الله عليك ورحمته وبركاته إلى يوم نلقاك فيه في جنة الخُلْد التي وُعد بها المتقون.

أم موسى وابنتها

من فضليات النساء، ذكرها القرآن في معرض التنويه بِقَدْرِها وقوة عزيمتها وتحلِّيها بالصبر... «أم موسى»... هذه المرأة التي عاشت في زمن فرعون الذي عَلا في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً، وقد استضعف طائفة من شعبه، واتخذ منهجاً لم يتخذه أحد من قبله ولا من بعده، وسلك طريقاً لم يسلكه أحد في التاريخ إلاّ هو... وذلك لأن المرأة كانت إذا ولدت في أيامه بنتاً استبقاها للمتعة والخدمة وإنْ ولدت ذكراً يذبحه... والغرض من ذلك أن يقطع نسل بني إسرائيل... ذلك لأن الكُهَّان قالوا له إن هلاكه على يد ذكر من بني إسرائيل، فبدأ بتذبيح الصبيان حتى لا تقوم لهم قائمة... وفي قول الله سبحانه عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝﴾[1] وَصْف جامع لمساوئ فرعون، لأنه كيان فاسد لا يصدر عنه إلاّ ما هو فاسد. لكن الحق سبحانه وتعالى اقتضت مشيئته أن يَمنَّ على بني إسرائيل، وأن ينجيهم من هذا الهلاك المدمر، وأن يجعل منهم أئمة يهدون إلى الحق، ثم يجعلهم الوارثين في مشارق الأرض ومغاربها للمُلك والسلطان ما داموا على الحق وإليه يدعون.

والحق سبحانه وتعالى يكشف لنا عن الأسباب التي يقيمها لتمضي إرادته وتتحقق مشيئته. ونحن نعلم أنّ الحق سبحانه وتعالى في غنى عن هذه الأسباب التي تحقق المسببات، لأنه إذا أراد شيئاً قال: «كن.. فيكون»، لكن الحق سبحانه وتعالى يدربنا ويعلمنا أنه جعل لكل شيء سبباً، لنتخذ نحن الأسباب حتى نصل إلى المسببات بهدوء وأمان.. والحق سبحانه في صورة القصص يبين لنا أن السبب الأول الذي سيكون به تدمير عرش فرعون هو «ميلاد موسى»، وكيف يولد ذكر

(١) سورة القصص، الآية ٤.

وينجو من بطش فرعون، لأن عيون جنوده تتطلع إلى الحوامل وترقبها من كل مكان، حتى إذا وضعت مولوداً ذكراً يُذبح في حجر أمه وهي في حال نفاسها، ولا تشفع عندئذٍ التوسلات ولا العويل ولا البكاء، لأن جنود فرعون لا يخالفون التعليمات، وليست لديهم عواطف نبيلة ولا مشاعر طيبة، ولا أحاسيس يفيض منها خير، فقلوبهم كالحجارة أو أشد.

ولكن تمضي مشيئة الله... أوحى الله إلى «أم موسى» عندما ولدته أن أرضعيه، والوحي إلى أم موسى إمَّا أن يكون وحياً على حقيقته، أي جاءها مَلَكٌ فتمثل لها بشراً فأفهمها ما تعمل وشرح لها الأسلوب الذي تقوم بأدائه، أو يكون الوحي إلهاماً من الله لها وهذا هو الذي نميل إليه، فوقع في تفكير أم موسى أن تصنع ما صنعت، لأن وليدها مُهَدَّد بالذبح بين يديها، ففراراً من هذا تفعل ما تفعل، فإن نُجِّيَ فهذا ما ترجوه، وإن هلك في البحر فموته غرقاً وبعيداً عنها أهون عليها من أن يُذبح بين يديها.

وقامت أم موسى وصنعت الصندوق وأحكمت صناعته، وقبل أن تضع الطفل فيه أرضعته، ليشمَّ الطفل رائحة صدرها، ويتذوق طعم لبنها، فلا يشم صدرَ غيرها، ولا يقبل لبناً غير لبنها، وتلك مشيئة الله الذي أوحى إلى «أم موسى» أن ترضعه قبل أن تلقيه في البحر، ثم وضعته في الصندوق ووضعته في البحر، وبينما كانت يدُها تمتد بالصندوق إلى البحر أوحى الله إليها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[1]. وكانت أم موسى لا تدري، فربما يلتقط هذا الصندوق أحد الصيادين أو الفلاحين فيجد هذا الطفل فيتخذه ابناً أو عبداً، وربما وقع هذا الصندوق في يد جنود فرعون فذبحوا الطفل بعيداً عن عينيها.. وربما غرق... لقد انتابتها خواطر شتى، لكنَّ وحي الله يثبت قلبها بعد أن نبهها بقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، وزاد على ذلك قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي يعود الوليد إلى الأم التي تعتصرها الأحزان... نعم... سيعود... بل وزيادة في التكريم لأم موسى ووليدها بشَّرها بأنه سيكون نبياً، فقال: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[2].

(١) سورة القصص، الآية ٧.
(٢) انظر الآية السابعة من صورة القصص.

إن الأسباب تتحرك من غاية إلى غاية، فموسى الوليد ينتقل من يد أمه الحانية إلى النهر بأمواجه العاتية ومصيره المجهول، وما هي إلا لحظات والأم كادت تُجنّ، حيث أصبح فؤادها فارغاً، فقد ضاع الولد من يدها، وأصبحت مشاعرها وأحاسيسها معطلة بذهابه عنها، لأن وليدها أخذ معه العواطف، وجلست هي وحيدة مع دموعها، وكأن وليدها بين يديها تناغيه وتلاحظه في حركته وسكونه، ويقظته ونومه، ثم تمد يدها على صدرها تريد أن ترضع وليدها، ثم تستيقظ من غفلتها فإذا بجوارحها كلها وكأنها أدوات معطلة لا تعمل، وأصبح قلبُها ـ وهو مركز العواطف والمشاعر ـ كياناً فارغاً، وأصبحت وبها من القلق والأسى واللوعة ما لو وُضع على جبلٍ لتفتت... وكادت أن تصرخ وتنادي في الناس إن هذا الوليد الذي يركب موج البحر في صندوق هو ولدي، وتندب بصوت عالٍ وتستعطف الناس ليجعلوها تُلقي نظرة الوداع عل وليدها الذي تتقاذفه أمواج الرياح، وصدق الله العظيم إذ يقول مصوِّراً هذا الحدث: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

إن الحق سبحانه وتعالى لا يتخلي عن الإنسان الذي يطلب عونه ويقف على عتبات قدسه وفي محراب عبادته يدعوه سبحانه، فهو القائل: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2]. وأم موسى كانت تعاني من آلام نفسية لا يستطيع إنسان أن يصفها، لكن الله رَبَطَ على قلبها وألهمها بأن وليدها في رعاية الله وفي ضمانه، فلا تخافي، وثِقي بأن الله القادر ستتحقق مشيئته... لذلك وقفت أمُّ موسى وبدأت تبحث عن أسلوب آخر بدل الفزع والجزع لتَحَقُّق مشيئة الله، فألهمها بأن تتخذ سبباً من الأسباب التي ستعيد الوليد إليها... وكانت أخت موسى تجلس بجوارها، فقالت لها أمها: يا بُنيتي، إن الصندوق وقع في يد جند فرعون وقد أخذوه إلى القصر، وهم الآن يكشفون عنه، وأريد أن أذهب وأصرخ معلنة أن هذا ولدي... إنني أريد أن أطلق من نفسي هذا الهم الثقيل والعبء الذي على عاتقي. فألقت أخت موسى بنظرة

(١) سورة القصص، الآية ١٠.

(٢) سورة غافر، الآية ٦٠.

حانية إلى أمها وهي في هذه الحالة.. لكنَّ الله تعالى ثَبَّتَ أُمَّ موسى وألهمها الصبر، لأنها مؤمنة بالله الواحد.. فاستدارت أم موسى إلى ابنتها وقالت: اذهبي أنتِ فتعرَّفي الأخبار وكوني حذرة لا تفصحي عن الوليد... ومن المعلوم أن الإنسان إذا كانت له حاجة وأرسل شخصاً ليقضيها له فيبعث بشخص عنده حكمة ولباقة وبُعْد نظر، وكان هذا ما حدث من أم موسى.

فذهبت أخت موسى تتعرَّف الأخبار، فرأت جند فرعون يحملون الصندوق، ثم يُفْتَحُ الصندوق، وتتحرك الأيدي لترفع الوليد منه، وإذا بأحد الجند يصيح: «إنه إسرائيلي!!»، وإذا بالأصوات كلها ترتفع: «إذاً فيُذْبَح كما ذُبح أبناء جنسه من قبل ويُذبحون من بعد». لكنَّ مشيئة الله تغلب مشيئة البشر مهما كان عددهم وقوتهم، فتتحرك امرأة فرعون من داخل القصر وتأتي إلى مكان الجند وترى هذا الوليد، وتتحرك فيها غريزة الأمومة، وتصرخ في أعماقها عواطف الأم نحو هذا الطفل وكأنه وُلِدَ منها هي، وكأنها قد ولدته لساعتها، فتتشبث به وتحتضنه، وفرعون يصيح في الجند: اقتلوه!! لكن زوجته تصرخ بشدة: ولدي.. كبدي.. قُرَّة عيني: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1]، ثم تتجه إلى فرعون الذي يتطلع إليها وهو في غاية العجب والدهشة... فتتودد إليه وتستعطفه وتناغيه وتقول له: زوجي الحبيب، إن ولداً واحداً لا يُقدم ولا يؤخر، وأنا حُرِمْتُ الولد، فَهَبْهُ لي ليكون كولدي، يرعى أمري، ويسعدني بطلعته. وتقع هذه الكلمات من قلب فرعون الذي يطلب رضاها موقع القبول، فيترك لها الوليد لتُرضي به أنوثتها، وتشبع به جوع أُمومتها.

كانت أخت موسى تتسمع إلى ذلك، وتلتقط الأخبار من هنا وهناك... لقد كانت كياناً قويًا من الحَذَر والحَيْطة، بحيث كانت تقرأ الحركات التي يأتي بها الجند، وترى الإشارات الصادرة من فرعون، وتسمع صوت امرأة فرعون، وكانت على مقربة من مواقع الأحداث، لأن كل من في القصر مشغول بهذا الموقف الطارئ، فلم يشعروا بأخت موسى التي كانت تقف في قلب الأحداث، ﴿فَبَصُرَتْ

(١) سورة القصص، الآية ٩.

بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾[1]. إن هذه الكلمات نابضة بأسرار كثيرة من الأحداث، خاصة بعد أن قال فرعون كلمته بالإبقاء على هذا الوليد إرضاءً لزوجته التي يكنّ لها الحب ويتمني رضاها...

لقد أصبح الوليد «موسى» في بيت فرعون، وكَتَبَ الله له النجاة من ذَبْح محقق. واحتضنته زوجة فرعون، وصدرت الأوامر بالبحث عن مُرْضِعة، وعلى الفور تحركت أجهزة الدولة كلها لتبحث عن مرضع لهذا الوليد الذي أصبح وقد اتخذه فرعون «ابناً له» والدولة كلها في خدمة فرعون وطلبه، لذلك جاءت المراضع من كل فج عميق، وكلما وضعته امرأة على صدرها نَفَرَ منها وصرخ، وكأنه يستغيث ويطلب النجدة. ووقف فرعون وزوجته وهما يتعجبان، المراضع تقف طوابير والوليد لا يُقبِل على أي واحدة، وهنا تتقدم أخت موسى وتقول في حياء: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾[2]؟ ولا يتردد فرعون وقومه في قبول هذا العرض، وتسرع أخت موسى إلى أمها، فتحضر الأم مسرعة في لهفة وشغف، وما إن وضعت الوليد على صدرها حتى أقبل على ثديها، حتى إذا ما شبع بدأ يهدأ ويبتسم، وقد اطمأن قلب أم موسى لأن الله سبحانه حرّم عليه المراضع من قبل، وكان قد ألهمها أن ترضعه قبل أن تُلقي به في اليم.. ويعود الطفل إلى أمه، ويتحقق وعد الله تعالى لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[3]، وتصبح من حاشية فرعون، لأنها المرضع الوحيدة لهذا الوليد، وبهذا نعلم جميعاً أن وعد الله حق، وهو الذي يُسبب الأسباب، لنصل من ورائها إلى الغاية الكبري التي تحققت على يد موسى، كما حدد القرآن ذلك بقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾[4].

وتنتهي الأحداث الأولي عند عودة الطفل إلى أمه لنعرف أن وعد الله حق وإنْ

---

(١) سورة القصص، الآية ١١.
(٢) سورة القصص، الآية ١٢.
(٣) سورة القصص، الآية ٧.
(٤) سورة القصص، الآية ٨.

كان أكثر الناس لا يعلمون.. ولكن الحقائق والشواهد والأحداث تؤكد ذلك.

وقد سقنا قصة موسى وأخته وامرأة فرعون لنقول لكل امرأة: إن الله سبحانه لم يَتَخَلَّ عن المرأة قط، ولم يأمر الرجال بإهانتها كما يزعم البعض، ومن هذه القصة نستخلص ما يأتي:

(١) إن المرأة إذا أطاعت ربها وأخلصت في عبوديتها نَجَّاها الله من كل سوء، وكان عوناً لها، ومساعداً لها في التخلص من كل ما يضرها إذا حافظت على نفسها، وأدَّت حق الله بصدق وأمانة ويقين.

(٢) على المرأة أن تتحلي بالصبر، وأن تضبط عواطفها ولا تجزع، وإنما تطلب من الله العون وهي واثقة من أنه سبحانه وتعالى سوف يمدها بمدده، وسوف يكتب لها النجاة من المهالك.

(٣) إذا أرسلت المرأة أحداً من الناس لحل مشكلة في أي مكان، عليها أن تتخير من يتَّسم بالحكمة وبُعْد النظر، والصدق، والانضباط والأمانة، ليكون عنده الكفاءة في حل المشكلة بيُسْرٍ وسهولة.

فإلى أمهاتنا وأخواتنا نقدم قصة أم موسى لنأخذ منها الدروس المستفادة، ونتعلم ما فيه خيرنا وسعادتنا، ونستفيد من دور «أخت موسى» في اللباقة والفطنة وتقديم النصيحة، لنصل إلى ما نريد.

بنْتا شعيب

أباح الإسلام للمرأة أن تعمل في العمل الذي يناسبها، والتي تقدر عليه. وإذا كان الإسلام قد ترك للمرأة أن تتخير مجال عملها فذلك من باب الحرية التي مُنِحت لها وهي حرية مضبوطة على القيم الأخلاقية العالية، والآداب الاجتماعية الفاضلة، لأن الإسلام ـ وقد أعطاها ذلك ـ نبهها على أن رسالتها في الحياة هي أن تكون أمًّا، وأن أشرف ميدان لعملها هو المنزل. لكن إذا اقتضى الأمر أن تعمل في غير ذلك فلتتخير الميدان الذي يحفظ لها كرامتها ويصون شرفها، ثم عليها أن تتَّسم بالحياء، لأنه خُلُق نبيل، وصفة حميدة، وشعبة من شعب الإيمان. والوجه الكالح الصفيق هو الذي لا يعرف الحياء، ولا خير في وجه قل حياؤه.

من هنا قَصَّ الله سبحانه وتعالى علينا قصة بِنْتَي رجل صالح أقعده المرض عن السعي على أهل بيته، وكان لهذا الرجل بنتان، ولا بد أن تخرجا للعمل، لأن البيت يحتاج إلى رزق ليتعايش به مَنْ فيه. ومن المعلوم أن الرزق يحصل عليه الإنسان بالحركة والعمل، لأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، لهذا جاء قول الله سبحانه يعملنا هذا الأسلوب في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]. والإنسان وهو يسعي على رزقه عليه أن يعتمد على الله وأن يتوكل عليه، وأن يثق في معونة الله له موقناً أن السماء تجود بخيراتها للعاملين الجادين المخلصين الموقنين، لهذا يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. ويقول سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة الجمعة، الآية ١٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٩٦.
(٣) سورة الجن، الآية ١٦.

وشعيب هذا ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ شيخٌ كبير، ورجل صالح. لقيه موسى عليه السلام عندما خرج من مصر خائفاً، لأن رجال فرعون كانوا يطاردونه ويبحثون عنه. وموسى رجل عنده ثقة في الله وذكر له سبحانه، لهذا كان يدعو ويردد: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾[1]. وحملته قدماه إلى أرض في أطراف الجزيرة العربية على خليج العقبة من جهة الشام مقابل تبوك. وكان وهو يسير من مصر إلى هذه الأرض على ذكرٍ دائم بالله تعالى، تارة يسبِّح ربه الذي خَلَق فسوّى والذي قَدَّرَ فهَدَى. وتارة يحمده لما تفضَّل عليه من نعمة، فهو الذي خلقه وخلق له السمع والبصر والفؤاد، ومنحه الصحة والتوفيق، وتارة يستجير به ويعلن أنه عبدٌ ضعيف في حاجة إلى هدايته.

وكان موسى يمشي في طريق غربة موحشة، فهو في حيرة من أمره، لأنه لا يدري ما سوف يلقاه على طريقه من أحداث. ولم يكن يعرف أين يتجه! فهو في حاجة إلى هادٍ يهديه، ومعين يعينه، ومن يكون غير «الله»؟ يقول خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[2]، وهنا هداه الله إلى طريق «مَدْيَن»، وموسى لم يكن له عِلْمٌ بهذه الطرق، لكنها عناية الله.

وإذا العنايةُ لاحَظَتْكَ عُيونُها   نَمْ فالمخاوفُ كُلُّهُنَّ أمانُ

وعلى مقربة من مدينة «مَدْيَن» وجد موسى جماعات الرعاة يسوقون ما شيتهم إلى الماء، ولمح بعينه فتاتين قد انحازتا بماشيتهما من مكان بعيد! تَعَجَّب موسى لهذا المنظر، لأن الناسَ يتدافعون والفتاتين في مكانهما لا تتحركان. وبحكم المروءة التي يتحلى بها موسى، والشجاعة الأدبية، والنفس الكريمة، سألهما: لماذا لا تتقدمان وتسقيان ماشيتكما؟ قالتا: لا نستطيع، لأننا ليست لدينا القوة التي

(١) سورة القصص، الآية ٢١.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٧٨ ـ ٨٢.

عند هؤلاء الرجال، فهم يعتمدون على قوتهم ونحن فتاتان ضعيفتان ولو كان معنا أبونا لسقي لنا، لكنه مُقْعَدٌ في البيت، فهو شيخ كبير في السن.

وهنا ظهرت الرجولة بأسمي معانيها، وتقدم موسى بهمَّة ونشاط وسَقَى لهما الماشية، ثم تركهما وانصرف. وكان موسى منضبطاً على القيم الأخلاقية، فلم يُعَلِّق نظره بهما. كما أنه لم يكن فضوليًا، فلم يتبعهما، ولم يزد على ذلك، لأن بعض الناس إنْ صنعَ جميلاً أو معروفاً ـ خاصة مع النساء ـ تجده يتلكأ ويتمحَّك ويُبدي الكثير من الأسئلة، ويكثر من الإلحاح، وهذا هو الإنسان الفضولي الذي قال الله له ولأمثاله: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾[1]. وموسى هنا يعلم شبابنا درساً في الأدب وكيف يتحلي به الإنسان، ودرساً في الخُلُق النبيل: كيف تساعد غيرك في حدود إمكانياتك ولا تتطفل عليه، حتى ولو كنت محتاجاً منه.

وخذ من موسى قدوة، فهو غريب الدار والأوطان، لا يعرف أحداً في هذه البلاد، ولا زادَ معه، ولا مكان يأوي إليه، ومع ذلك فقد سَقَى لهما ثم انصرف إلى حال سبيله، وجلس تحت شجرة ليستظل بظلها، والظل نعمة يستحق الشكر عليه واهبه، لذلك رفع وجهه إلى السماء يحمد الله أن وفقه وأعانه إلى هذا الخير الذي أسداه إلى هاتين الفتاتين الضعيفتين، ثم سأل ربه أن يوفقه إلى مثل هذه الأعمال التي تجعله يقدم العون إلى غيره بلا مَنٍّ ولا أذًى.

كانت الفتاتان قَدَّمتا لأبيهما صورة مما حدث من شاب غريب قدَّم إليهما المساعدة، وأنه جلس في ظل شجرة، وهو يتَّسم بالأدب، لأنه لم يرفع وجهه نحوهما، كما أنه لم يمعن النظر فيهما، وأنه يتسم بالقوة. ثم قالتا لأبيهما: ماذا نصنع مع هذا الغريب؟ هل نبعث إليه بطعام؟ أو ندعوه للمبيت في البيت؟ لكن من سياق القصة نرى أن الأمر ينتهي باستدعاء موسى لمقابلة الأب الصالح، فقد أرسل هذا الرجل إحدى ابنتيه لتستدعيه، وجاءته إحداهما تمشي على استحياء، أي إنها

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٣.

لم تمشِ على الأرض، وإنما تمشي على بساط ممدود في طريقها، هذا البساط هو الحياء، ويا لروعة التعبير الإلٰهي!

إن الدرس هنا للفتيات، لأن الحياء خُلُق أصيل في البنت، لأنها بهذا الحياء تغض بصرها، وتخفض صوتها، ولا تبدي زينتها إلاّ بالقدر الذي يسمح لها به دينها، لهذا جاءت البنت إلى موسى وهي تمشي على استحياء، تتعثر قدماها، ويضطرب كيانها. إنها رسول أبيها إليه، والذي عَرَفَ موسى من قبل أنه شيخ كبير، فلو كان في استطاعته أن يذهب بنفسه إلى موسى لَذَهَبَ، لكن الكِبَرَ والعَجْز منعاه. لذلك جاءت البنت على استحياء وقالت لموسى: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1] وليس المراد بالأجر هنا أن يكون أجراً ماديًّا، وإنما جزاءُ إحسانٍ بإحسان، ومعروف بمعروف.

وذهب موسى مع البنت. وكان من الأدب العالي الذي جعله لا يمعن النظر في الفتاة، ولا يحدّق فيها. ووصل موسى إلى الرجل، وكان بينهما حديث طويل، عرف الشيخ منه ما وقع لموسى من أحداث، والدافع الذي دَفَع به إلى المجيء هنا، فقال له الشيخ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢٥﴾[2] فأنت هنا في مأمن، ولن تصل إليك يد فرعون. هنا تظهر الأنثى التي تطمع أن يكون موسى رجلها، وتنتظر الأيام ليجيء فيطرق بابها، وتحلم به في منامها، لأنها رأت الأخلاق الحسنة تجسدت فيه والشهامة والمروءة، لذلك تهمس في أذن أبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾[3]، أي أمسك به عندنا ولا تدعه يفلت من بين يديك وأن تصله بكَ بعملٍ، وكأنها تبرر ذلك، فتكشف لأبيها عن معدن هذا الرجل الذي يتزين بأجمل ما في الرجال «القوة والأمانة» فقالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ۝٢٦﴾[4]. والرجل الصالح يستشعر ما بنفس ابنته، لأنه أب، وهو بجانب ذلك حنون على أولاده، عطوف

(١) سورة القصص، الآية ٢٥.
(٢) سورة القصص، الآية ٢٥.
(٣) سورة القصص، الآية ٢٦.
(٤) سورة القصص، الآية ٢٧.

عليهم، لا يرى حرجاً في أن يتخير لابنته الرجل الذي تتمناه زوجاً لها ويردها حياؤها عن أن تعرض نفسها عليه.

وما أبرع حكمة هذا الرجل عندما وَجّه الكلام لموسى وهو الغريب، وقد تم اللقاء بينهما منذ قليل، لكن معادن الرجال تظهر بسرعة، فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، لهذا قال الرجل الصالح لموسى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾[1]. إنه تدبير حكيم، لأن الرجل لم يضع موسى أمام حُكم لازم لا خيار له فيه، وإنما ترك له الخيار، لأنه لو حدَّد بنتاً من البنتين ستحزن التي لم تتزوج، وليس من الحكمة ولا من المصلحة أن تشتعل نار الفتنة والغيرة بين الفتاتين، كذلك ليس من الحكمة أن يصدم إرادة موسى ويصادر رأيه. فهو إنْ فرض عليه فتاة سينغص عليه حياته وتضطرب الأمور الزوجية، لأن هواه دائماً مع من يرغبها وحُرم منها. وهذا درس للآباء وعظة لهم ليأخذوا الحكمة من هذا الرجل الصالح وما فعله مع موسى.

وموسى عليه السلام كان من الحكمة والبراعة عند ردِّه على قول شعيب عندما عرض على موسى العمل وأن يتزوج بإحدى ابنتيه، فربما كانت الفتاتان تسمعان هذا الحوار، فلو أن موسى أعلن صراحة عن واحدة باسمها لحزنت الأخرى، فكان من الحكمة أن يقول لشعيب: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾[2] أي أنا موافق على هذا العقد. أما فيما يختص بإحدى الابنتين التي سيقع عليها الاختيار فسيكون بيني وبينك، على أنك أنت الذي تقوم بمشاورة البنات وتكوِّن رأيك بعد المشورة، والله يوفِّق لي الخير فيما يشاء، وأترك لنفسي إرادة الاختيار، ليكون هناك الرضا النفسي، وحتى لا تكون هناك مشادة بين البنتين، لأنا جميعاً سنعيش في بيت واحد. وتكون النتيجة أن يتم الرضا والقبول، ويتزوج موسى ببنت من البنتين ويعيش أسعد حياة، لأن الله هو الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

---

(١) سورة القصص، الآية ٢٨.

ونخلص من القصة إلى ما يأتي:

(١) أن عمل البنت ليس بعيب، حتى ولو كان في الزراعة ورعي الأغنام، لأن العمل شرف وكرامة، وحفظ لماء الوجه.

(٢) ليس بعيب أن يختار الرجل لابنته الشخص المناسب، وأن يفاتحه في ذلك، بشرط أن يكون كُفئاً أميناً، لأن الرجل الأمين المتديِّن إنْ تزوج البنت وأحبها أكرمها، وإنْ كرهها وأبغضها لن يهينها.

(٣) إذا كانت الأسرة فيها أكثر من بنت وتقدم الشخص الكُفْء الشهم الشجاع ليخطب الوسطي فلا نصده ولا نغلق الباب دونه، بل نزوِّجه ولا نتعلل بأن تتزوج الكبري أولاً، ونأخذ هذا من قول الرجل الصالح: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾.

(٤) مطلوب من الرجال أن يكونوا أمناء على المرأة العاملة وأن يساعدوها ولا يضيِّقوا عليها، ولا تلتهمها عيونهم، وهذا من الأدب العالي الذي تبيِّنه هذه القصة.

(٥) المجتمع كله مسؤول عن رعاية المرأة، لأنها ضعيفة بحكم تكوينها، ومسؤولية المجتمع يؤديها فرد أو أفراد، ونأخذ هذا من فعل موسى مع البنتين.

(٦) مطلوب من المرأة أن تتَّسم بالحياء، وأن يكون خُلُقاً من أخلاقها.. وعليها أن تشكر مَنْ ساعَدَها وعاوَنَها بأي لون من ألوان المساعدة أو المعاونة، ونتعلم ذلك من قول الفتاة لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، لأنها عرفت أن هذا الرجل غريب الدار، وقد صنع معروفاً فأرادت أن تكافئه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. فإن وجدت أنَّ مَنْ قدَّم إليها مساعدة «الكع» وفضولي ومقزِّز، فعليها أن تصده بعنف، وأن تُظهر له الخشونة، لأن ليس كل طير يؤكل لحمه.

إنَّ ردَّ الجميل أمر مطلوب ولو بالكلمة الطيبة، لقول الرسول ﷺ: **«مَنْ صَنَعَ إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادْعُوا له بخير»**.

إننا نريد من شبابنا أن يتخلَّقوا بخُلق موسى، وعفَّة يوسف، وصدق محمد ونزاهته، وعفَّته وأمانته، وطهارة نفسه وجسده، وسموّ روحه، وصفاء قلبه.

(٧) أن المجتمع «كل أفراده» مطلوب منهم أن يقرأوا القرآن ويتدبَّروا في معانيه، وأن يستخلصوا منه العِبَر التي ترتقي بالمجتمع وتنهض به وتجعله في ازدهار وتقدُّم، لأن الحضارة هي الأخلاق أولاً، والأخلاق ثانياً، والأخلاق ثالثاً، وصدق الشاعر عندما قال:

وإذا أُصيب القومُ في أخلاقهم فَـأَقِـمْ عليهـم مـأتمـاً وعـويـلا

(٨) أن البث الإعلامي من سمائه المفتوحة وقنواته المتعددة وأساليبه المختلفة لا يمكنه أبداً أن يؤثر فيمن حَصَّن نفسه بالدين، وتمسك بالعقيدة، وتخلَّق بالأدب، وهذه الأمور هي التي تُعلِّمها الأم لأطفالها، لذلك يجب علينا أن نهتم بتربية البنات، وأن نُنشئهن تنشئة فاضلة بقيم عالية من أجل أن يقمن بتربية الأبناء، لأن المرأة الصالحة قادرة على صنع المستحيل، وصنع الأبطال إذا اشتدت الأزمة وتنكب الناس الطريق. هنا تبرز المرأة المتديِّنة الفاضلة ليكون من نتاجها من يعيد الحق إلى نصابه، ويقيم موازين العدل، ويهدي الناس إلى صراط مستقيم. لهذا كانت قصة ابنتي شعيب عبرة وعِظَة لكل أنثي من بنات حواء، وهي للشباب كذلك. . . فهل من مُدَّكر؟

مريم ابنة عمران

من سلالة طاهرة وأسرة شريفة ولدت مريم عليها السلام، وكانت أمها وهي حامل بها نَذَرَتْ أن الحمل الذي في بطنها سيكون مُحَرَّراً من أي عمل تكلفه به الأسرة، لأنه سيقوم على خدمة أهل بيت المقدس، فتقبَّل يا رب هذا النَّذْر. وكان في اعتقادها أنها ستلد ولداً، ولكن عندما ولدت جاءت بُنَيَّةً. ومن المعلوم أن البنت لا تقوم على خدمة المسجد، لأنه مكان اجتماع الرجال، فلا يليق بالمرأة أن تكنس وتمسح أمام الرجال، لذلك حزنت أمها وقالت وهي تدعو ربها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[1]، وكأنها تطلب من الله العفو وأن يسامحها ويحللها من نَذْرِها حيث جاءت المولودة أنثى، ولا تستطيع أن تنهض بالرسالة المكلفة بها في خدمة المسجد. ثم تقول في تضرع وخشوع: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[2].

أسلمت أمرها إلى الله، وأحسنت التسمية، وطلبت من الله القادر أن يحفظ الفتاة من أن يعبث بها الشيطان، والمقصود هنا شيطان الجن أو شيطان الإنس وشيطان الإنس أقوى، لأنه يصب في أُذُني الفتاة الكلام المعسول، ويحرك غرائزها بكلمات الغزل، ويضحك عليها بتوافه الأمور، حتى إذا قَضَى مأربه منها تركها تتجرّع كأس المرارة وتندب حظها العاثر الذي أوقعها في هذا الشَّرَك، وجعلها ألعوبة بين يدي الشباب الماجن، لذلك كانت زوجة عمران نبيهة ولبيبة، تُحسن التربية، وتُحسن التوجيه، وتحافظ على شرف ابنتها، لتسمو مكانتها، ويكون لها مكان الإعزاز والإكبار.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٦.

ومع قيام زوجة عمران بالتربية وغرس القيم النبيلة في ابنتها، كانت كذلك قدوة لابنتها في لجوئها إلى الله تعالى ووقوفها بين يديه في صلاة خاشعة، وتبتُّل وتضرُّع، وهي تقول لربها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٣٦﴾. ولمَّا كانت زوجة عمران صادقة في كلامها، مؤمنة بما تقول، والذي يعلم حقيقتها هو الله، تقبَّلَها ربنا جل جلاله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[1]، وشاءت الأقدار أن يرحل عمران وزوجته من الدنيا، وتبقي مريم وحيدة وهي صغيرة، ونجد هنا العجب: الكل يريد أن يتكفَّل بمريم ويكفلها، لكن مشيئة الله تقتضي أن الذي يكفلها ويتكفَّل برعايتها هو زكريا عليه السلام، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، معروف بالعفَّة والنزاهة، ورعاية الأمانة، لذلك كفلها، فطلبت منه مريم أن يخصِّص لها مكاناً في بيت المقدس «المسجد»، حتى تتفرغ لعبادة الله، وحقق لها زكريَّا رغبتها.

وبدأت مريم تتعلم ما يجب على المرأة أن تتعلمه، من طهارة ونظافة، وحسن خُلُق، وصدق مع النفس، وإخلاص لله في التبتُّل والعبودية. وقد استجاب الله لها كما استجاب لأمها من قبل، لأن الله كريم لا يرد يد مَنْ دعاه. أراد الحق سبحانه وتعالى أن يظهر على يدي مريم آية ليستمع إليها الناس الذين قست قلوبهم، وتحجَّرت عواطفهم، وتكالبوا على المال يجمعونه من حلال أو حرام. وكانت آية مريم أنَّ زكريا كلما دخل عليها بالطعام الذي يحمله من بيته يجد أمامها طعاماً ليس من طعام أهل البلد ولا من صناعة نساء أهل البلد، ولا تعرف أي امرأة أن تقوم بطهيه، لأنه طعام مصنوع بدقَّة، وله رائحة طيبة نفَّاذة تحرك الشهية لتتناوله. كما يجد مع الطعام فواكه متعددة الأصناف، بعضها ليس هذا أوان نضجه، وغير موجود بالمرة في الأسواق.

ويقف زكريا متعجباً ويقول لها: يا مريم، هل هناك أحد يدخل عليك غيري؟ فتقول: كلا ورب البيت! فيقول لها: إذاً مَنِ الذي جاءكِ بهذا الطعام؟ ومن أين لكِ

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٧.

هذه الأصناف؟ فتنظر إليه مريم وهي الواثقة من نفسها، المطمئنة إلى صدق قولها وتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾(١) الذي أعبده وأتبتل إليه.. فعرف زكريا أن مكان مريم مكان طاهر، والأماكن الطاهرة يتقبل الله فيها الدعاء، وزكريا نبي، لذلك نجده يقف في مكان مريم ويرفع يديه إلى السماء بصدق وإخلاص ويسأل ربه أن يعطيه الذُّرِّيَّة وأن يمنحه الولد الذي يتشوق إليه، وقد حُرم منه طوال السنوات الماضية في أيام شبابه ورجولته، لذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾(٢).

يا لحلاوة الأمل الذي تحقق، والذي طال انتظاره بعد أن دعا الله في هذا المكان الطاهر، وبجوار الشخصية العظيمة، المتبتِّلة العابدة، الصوَّامة القوَّامة، الطاهرة المحصنة. يتقبل الله من زكريا ويتحقق الرجاء على الفور قبل أن ينتهي من صلاته: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾(٣). ومن هول المفاجأة حيث تحققت الإجابة بسرعة أُخِذَ زكريا، وكأنه لم يصدق الذي يناديه ويزفّ إليه البُشْرَى، فرفع يديه إلى ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾(٤)؟ وكأنه يُبيِّن شيئاً الله يعلم حقيقة أمره، لكن الله أجابه بقوله إنه يعلم ذلك، ولكن هناك القدرة الإلهية التي تفعل ما تشاء ولا سلطان لأحد عليها.

وما زال زكريا مأخوذاً بهول المفاجأة، ويريد أن يستوثق ويتأكد، فرفع يديه مرة أخرى إلى السماء وقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾(٥)، أي دليلاً واضحاً، وبرهاناً قويًا على أنني سوف أنجب، وسيكون مني نسل، فكان الرد عليه: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾(٦)، أي الدليل على ذلك أن صوتكَ سيُحبس، ولا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية ٤٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية ٤١.
(٦) سورة آل عمران، الآية ٤١.

تستطيع أن تكلِّم الناس إلاَّ بالإشارة، وفي هذه الفترة التي سيُحبس فيها صوتك عليك أن تقوم بواجب الشكر لله والثناء عليه، وعبادته بإخلاص وصدق، فقال الله له: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

أمَّا مريم التي أثني الله عليها لأنها أحصنت فرجها، وصَدَّقَتْ بكلمات ربها، وكانت من المواظبين على طاعته وعبادته، فإن الله بعث إليها بمَلَكٍ وهي جالسة وحدها، مستغرقة في عبادة ربها، عليها حجاب وسَتْر حتى لا يراها أحد، بينما هي في الخلوة إذ بالمَلَك يتمثل لها بشراً سويًا، فَأُخِذَتْ، وانتابها فزع وهلع: ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾[2] أي أتحصن بالله، وأطلب منه نجدة ليحميني منك، فهو القوي. لكن الملك ردَّ عليها بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾[3]. فتعجَّبت، وسِرُّ تعجُّبها أنها طاهرة عفيفة لم يمسسها بشر، حيث صانت نفسها وأحصنت فرجها، لذلك ردَّت عليه: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾[4]. وردَّ عليها المَلَك بقوله: إن الله هو الذي أراد ذلك ليكون ولدُكِ آيةً للناس، يحمل وحي الله إليهم، ويردهم إلى حظيرة القدس، ويوقظ الأحاسيس فيهم، وينمِّي فيهم المشاعر الطيبة، وكونكِ تحملين وتلدين من غير أن يمسسك بشر فهذا أمر بسيط للغاية، لأن الذي أراده هو الله، الذي يقول للشيء: كن فيكون، ثم هناك أمر محدد: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾[5].

وحملت مريم بعيسى عليه السلام بعد أن نفخ المَلَكُ في كمّ قميصها، وولدت عيسى الطاهر الزكي، وأصبحت مريم مضربَ الأمثال في الطهارة، ونموذجاً فريداً في العفَّة، ورائدة على طريق الخير لبنات جنسها، وصدق رسول

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٤١.
(٢) سورة مريم، الآية ١٨.
(٣) سورة مريم، الآية ١٩.
(٤) سورة مريم، الآية ٢٠.
(٥) سورة مريم، الآية ٢١.

الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: «**سيدة نساء أهل الجنة مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية، ثم عائشة**».

لقد أصبحت السيدة مريم نموذجاً يحتذى ورائدة عظيمة على طريق الخير. لتكون قدوة لكل فتاة في الطهارة والعفة والتمسك بالقيم الأخلاقية النبيلة والأدب العالي فسلام عليها في الأولين والآخرين...

آمنة بنت وهب

هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. ونسبها له شرف عالٍ، يشهد بذلك كل من أرَّخَ لها، وقد أعطاها الله سبحانه من الجمال والكمال ما كانت تُدْعَى معه «حكيمة قومها»، ومن الفصاحة والبلاغة ما لم يسبقها إليه أحد من نساء العرب. تزوجها عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب. وهنا يلتقي نسب آمنة بنت وهب بعبد اللّه بن عبد المطلب. ثم يستمر النسب بعد كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَد بن عدنان.

نسب عظيم، وقد اتفق النسَّابون ـ ولا خلاف بينهم أبداً ـ في هذه السلسلة العظيمة لهذين الأبوين الكريمين، وكان نتاج هذا الزواج العظيم ميلاد سيدنا محمد ﷺ، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وقائد الغر المحجلين.. وكان هؤلاء الآباء العظام من الشهامة والشجاعة، والمروءة ونُبل الأخلاق، والجود والكرم، والأدب العالي هم مَضْرَب الأمثال في كل حي. وإذا ما تصورنا أن امرأة كانت تملك المال والجاه والثروة الواسعة تدعو عبد اللّه هذا ـ وهو الشاب القوي ـ تدعوه ليكون معها في حجرة نومها، ويأخذ ما يشاء من مالها، فوقف في عزَّة وكبرياء وشموخ وقال لها: «أمَّا الحرام فالمماتُ دونه». وهنا ذهب عبد اللّه إلى أبيه مسرعاً وقال له: يا أبتِ زوِّجني.

وجلس عبد المطلب زعيم مكة ورئيسها يستعرض العائلات التي تتَّسم بالكرم والشهامة والمروءة، فذُكر له وَهْب بن عبد مناف وأن له ابنة تُسمي آمنة، آية في الجمال والكمال والأدب، فقام عبد المطلب إلى وهب وخطب ابنته إلى ولده. وبعد الزواج دخل عبد اللّه على آمنة، وبعد أن قضى أيام عرسه خرج إلى شوارع

مكة ومَرَّ على المرأة التي عرضت عليه المال والثروة نظير اللقاء، فنظرت إليه ثم قالت: هل تزوجت؟ قال: نعم، قالت: بِمَنْ؟ قال: بآمنة بنت وهب، قالت: نِعْمَ الفتاة، لقد ذهبت بعز الدنيا وفلاح الآخرة!!

ويذكر كُتَّاب السِّيَر أن المرأة التي دعته إلى نفسها رأت نورَ النبوة في وجهه، وبعد الزواج لم تجده، وكانت هذه المرأة تتمني أن تكون هي زوجة عبد اللَّه، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها وأعفَّهن ، إلا أنها قد كانت قرأت في الكتب السابقة أن نبيًا آن أوانه، وأنها رجت أن تكون أُمَّهُ لما قرأته من أن أباه يُسمي بعبد اللَّه، ثم إنها رأت النور بعينيها بين عينيه، وبعد أن دخل على آمنة ذهب النور منه وانتقل إليها.

وتزوج عبد اللَّه بآمنة، وعاش معها قرابة شهر وهما من أسعد الناس، ثم خرج عبد اللَّه في قافلة للتجارة، ومات وهو راجع بالأبواء مكان قرب يثرب. وعاشت آمنة على ذكري الأيام الحلوة الجميلة التي عاشتها في سعادة وهناء مع زوج وفِيٍّ بارٍّ كريم. وشعرت بالحَمْل، وحَدَّثَ بعض المؤرخين أنها رأت في المنام أنها أتاها آتٍ وقال لها: إنكِ حملت بسيد هذه الأمّة، فإذا وقع إلى الأض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد ثم سمِّيه «محمداً». كما رأت أن نوراً خرج منها رأت به قصور بصري في الشام. كما أن جده عبد المطلب ـ وكان حيًّا ـ رأي بعد موت ولده عبد اللَّه رؤيا: «أن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها». فقصَّها عبد المطلب على من فسَّرها له بأن مولوداً من صُلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض. لذلك لما وُلِد النبي العظيم سمَّاه جده محمداً، ولما سُئل عبد المطلب: لم سميت حفيدك محمداً وتركت أسماء أجدادك وآبائك؟ أي: لِمَ لَمْ تُسم عبد الدار، أو عبد مناف، أو عبد شمس؟ فرد عبد المطلب قائلاً: سميتُه محمداً رجاءَ أن يُحْمَد في الأرض وفي السماء.

وقد وُلِدَ النبي محمد يتيماً حتى لا يتعلق بأبيه، كما ماتت أمه وهو ابن ست

سنوات، وتركته فقيراً لا مالَ له ولا ثروة، وإنما تركت له رصيداً من الخير الذي قدمته إلى الناس، ومن المساعدة التي كانت تساعد بها الغير، وهذا ميراثٌ لو تعلمون عظيم، لأن الشرف والسمعة الطيبة أعظم في دنيا الناس وأحسن من ملايين الملايين من الجنيهات مع السمعة السيئة.

وانتقل محمدٌ اليتيم إلى رعاية جده، الذي مات هو الآخر وعمر محمد ثماني سنوات، وكَفَله عمُّه أبو طالب. ومع أن محمداً عاش مع أمه سنوات قليلة فإن صورتها لم تفارق خياله حتى بعد أن نزلت عليه الرسالة. وهذا شأن الإنسان الأصيل، لذلك كان إذا مرَّ بالمكان الذي ماتت فيه أمه يذهب لزيارة قبرها. في الحديث الصحيح: أنه زارَ قبرَ أُمِّه بالأبواء «فبَكَى وأبْكَى» ثم قال: **«استأذنتُ ربِّي في زيارة قبر أمي فأَذِنَ لي، واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي»**.

وجاء في كتاب «المنهل العذب المورود، شَرْح سُنن الإمام أبي داود» للإمام الجليل المحقق «محمود خطاب السبكي»[1]: «عن أبي هريرة قال: أتي رسول الله ﷺ قبر أمه فبكي وأبكي مَنْ حَوْلَهُ، فقال رسول الله ﷺ: **«استأذنتُ ربي تعالى على أن أستغفر لها فلم يأذن لي.. فاستأذنت أن أزور قبرها فأذِن لي، فزوروا القبورَ فإنها تُذَكِّرُ بالموت»**. وجاء في الشرح ما ملخصه: إنه لم يُؤْذَن له ﷺ في الاستغفار لأنه فرع المؤاخذة على الذنب، ومن لم تبلغه الدعوة لا يُؤَاخَذُ على ذنبه، فلا حاجة إلى الاستغفار لها.

ويقول أيضاً في الشرح: إن الرسول ﷺ قال: **«إن الله اصطفي من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفي من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفي من بني كنانة قريشاً، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**.. ومعنى هذا أن الرسول ﷺ خير الناس وأشرفهم.

كما رَوَي أبو نعيم في «دلائل النبوة» ـ بسند ضعيف ـ أن أسماء بنت رهم رَوَتْ عن أمها أنها قالت: شهدت آمنةَ أُمَّ النبي ﷺ في علَّتها التي ماتت فيها

(١) الجزء التاسع، ص ٩٣، باب: في زيارة القبور.

ومحمد عليه الصلاة والسلام غلام يفع، «أي مرتفع»، له خمس سنين عند رأسها، فنظرتْ أمُّه إلى وجهه ثم قالت:

بـارَكَ فيـك الله مِـنْ غُـلامِ ... يا ابْنَ الذي من حومة الحِمامِ
يخـابعـون الملـك العـلاَّمِ ... فُودِي غَداةَ الضَّرْب بالسِّهامِ
بمـائـة مـن إبـلٍ سـوامِ ... إنْ صح ما أبصرتُ في المنامِ
فـأنـت مبعـوثٌ إلـى الأنـامِ ... تُبعث في الحلِّ وفي الحرامِ
تُبعـث فـي التحقيـقِ والإسلامِ ... ديـن أبيـكَ البَـرِّ إبـراهـامِ
فـالله أنهـاكَ عـن الأصنـامِ ... ألاَّ تـواليهـا مـع الأقـوامِ

ثم قالت: «كل حي ميت، وكل جديد بالٍ، وكل كبير يَفْنى، وأنا ميتة، وذكري باقٍ، وقد تركتُ خيراً، وولدتُ طهراً». وقال الزرقاني في شرح المواهب ـ نقلاً عن الجلال السيوطي ـ بعد ذكر هذه الأبيات: وهذا القول منها صريح في أنها مُوَحِّدَة، إذْ ذكرت دينَ إبراهيم، وبَعْثَ ابنها ﷺ بالإسلام من عند الله، ونهيه عن الأصنام وموالاتها، وهل التوحيد شيء غير هذا؟ فإن التوحيد هو الاعتراف بالله وأُلوهيته، وأنه لا شريك له، والبراءة من عبادة الأصنام ونحوها، وهذا القدر كافٍ في التبرّي من الكفر وثبوت صفة التوحيد في الجاهلية قبل البعثة. ثم يقول الشيخ خطاب بعد كلام طويل عن الكُهَّان وما رَدَّدُوه عن زمان قرب النبي، وما ذكروا من صفاته، «ثم هي» أي أُمُّه ﷺ سمعت من ذلك وشاهدت في حَمْله وولادته من آياته الباهرة، فرأت النور الذي خرج منها أضاء بها قصور الشام حتى رأتها، ورأت البيت الذي هي فيه وقد امتلأ نوراً، والنجوم تدنو حتى كأنها ستقع، ثم هي لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقل أو وحم، وأنها ولدته مختوناً، مقطوع السّرة، وعندما نزل إلى الأرض كانت أصابع يديه مقبوضة، مشيراً بالسبابة كالمُسَبِّح، ثم قالت لحليمة رضي الله عنها حين جاءت به بعد حادث شق صدره: «أخشيت عليه الشيطان؟ كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وأنه لكائن لابني هذا شأن».

وجاء في حديثٍ، أن النبي ﷺ قال: «ما سألتهما» ـ أي أبي وأمي ـ «ربي

فيعطيني فيهما، وإني لقائم يومئذ المقام المحمود». قال السيوطي في شرحه: «هذا الحديث يُشْعِرُ بأنه يرتجي لهما الخير عند قيامه المقام المحمود، بأن يشفع لهما فيوفقا للطاعة إذا امْتُحنا حينئذٍ، كما يُمتحن أهل الفترة...». وقال الحافظ ابن حجر: «الظن بآبائه ﷺ كلهم الذين ماتوا في الفترة أن يطيعوا عند الامتحان، لتقرَّ بهم عينه ﷺ».

ولقد جاء النصُّ صريحاً في أن أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة ناجون، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[1].

ويقول الشيخ محمود خطَّاب: «وقد ورد ما هو صريح في إيمان أبويه ﷺ، واعترافهما بدين إبراهيم وبعثة النبي ﷺ، وهذا هو الإيمان بعينه، لأن أباه عاش طول حياته يلتزم بالكمال النفسي والطهارة، وقد افتتن به النساء ولم يَنَلْنَ منه شيئاً. أمَّا أُمه فرأت ما رأت، ولا شك أن ذلك جعلها من أهل الخير». كما جاء في كتاب الروض الآنق[2]: «روي من حديث غريب لعله أن يصح وجده بخط جدي أبي عمران أحمد بن أبي الحسن الثاني رحمه الله تعالى بسند فيه مجهولون، ذكر أنه نقله من كتاب انتسخ من كتاب معوز بن داود بن معوز الزاهد يرفعه إلى ابن أبي الزناد، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. أَخْبَرَتْ أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يُحيي أبويه، فأحياهما له، وآمنا به، ثم أماتهما، والله قادر على كل شيء. وليس تعجز رحمته وقدرته عن شيء، ونبيُّه عليه السلام أهلٌ أن يخصه بما شاء من فضله، ويُنعم عليه بما شاء من كرامته، صلوات الله عليه وآله وسلم».

وقال القرطبي في تذكرته: جزم أبو بكر الخطيب في كتاب «السابق واللاحق» وأبو حفص عمر بن شاهين في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له في الحديث بإسناديهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: «حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع فمرَّ على قبر أمه وهو باكٍ حزين مغتمّ فبكيتُ لبكائه ﷺ، ثم إنه نزل فقال: «يا حُميراء استمسكي». فأسندت إلى حيث البعير.. فمكث عني طويلاً مليًّا، ثم إنه عاد إليَّ

(١) سورة الإسراء، الآية ١٥.

(٢) الجزء الأول، ص ١٩٤، بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد.

وهو فَرِحٌ مبتسم. فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، نزلْتَ من عندي وأنت باكٍ حزين مُغتمّ، فبكيتُ لبكائك، ثم عُدْتَ إليَّ وأنت فَرِحٌ مبتسم، فَمِمَّ ذا يا رسول الله؟ قال: «ذهبتُ لقبر آمنة أُمّي، فسألتُ الله أن يحييها، فأحياها، فآمنت بي» . . أو قال: «فآمنت، وردَّها الله عز وجل».

وجاء بنفس الكتاب والصفحة: «وليس لنا أن نقول نحن في أحد أبوي النبي ﷺ أنه في النار، لأن ذلك يؤذي النبي ﷺ، وهو القائل: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات»، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1].

وفي هذا الموضوع جاء في كتاب «المنهل العذب» أيضاً[2]: «الظن بآباء النبي ﷺ أن يكونوا من أهل الفترة الذين لم يغيروا ولم يبدلوا. وعلى الجملة فالأولى ما ذكره بعض المحققين من أنه لا ينبغي ذكر هذه المسألة إلاّ مع مزيد الأدب، وليست من المسائل التي يضر جهلها، ويُسْأَلُ عنها في القبر أو في الموقف، فحفظ اللسان عن التكلم فيها ـ إلاّ بخير ـ أَوْلي وأسلم».

وقال الحلواني في «المواكب»: «القول بكفر أبويه ﷺ ذَلَّة عاقل، نعوذ بالله من ذلك، فمن تفوّه به فقد تعرض للكفر بإيذائه ﷺ. فقد جاء أن عكرمة بن أبي جهل اشتكي إلى النبي ﷺ أن الناس يسبون أباه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات»[3].

ولا شك أنه ﷺ حيٌّ في قبره تُعرض عليه أعمالنا. . وإذا روعي عكرمة رضي الله عنه في أبيه بالنهي عمّا يتأذّي به من سبّه فسيّد الخلق أَوْلَي وأوجب. كيف وقد جاء أنَّ بنت أبي لهب جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن الناس يصيحون بي يقولون: إنّي ابنة حَطَب النار. . فقام رسول الله ﷺ وهو مُغْضَبٌ شديد الغضب فقال: «ما بالُ أقوامٍ يُؤذونني في نسبي وذَوِي رحمي، ألا وَمَنْ آذَي نسبي وذوي

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٧.
(٢) للإمام محمود خطاب السبكى، ص ١٠٠.
(٣) رواه الطبرانى.

رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذَى الله عز وجل».

وقد سُئِلَ الإمام أبو بكر بن العربي المالكي عن رجل قال إن أباه ﷺ في النار.. فأجاب: بأنه ملعون وذلك لآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾(١)، ولا أذي أعظم من أن يُقال إن أباه في النار». ولذا غضب عمر بن عبد العزيز غضباً شديداً على كاتب له قالَ ذلك، وهو يسمعه، وعزله من دواوينه كلها ـ كما ذكره أبو نعيم في الحلية ـ ومما يؤيد ذلك قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في آية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾(٢): مِنْ رِضا محمد ﷺ ألاَّ يدخل أحد من أهل بيته النار(٣). وخبر: «سألتُ ربي ألاَّ يُدْخِلَ النارَ أحداً من أهل بيتي فأعطاني ذلك»(٤). بل لو وَرَدَ دون ما قدمناه لكان فيه مقنع لمن مُنِح أدنى توفيق، فيجب اعتقاد ذلك.

وقال العلاَّمة السحيمي في شرحه على عبد السلام: «إنه يجب اعتقاد أن جميع آباء الأنبياء وأمهاتهم مؤمنون، وأنهم في الجنة مخلدون. وهذا هو الذي نعتقده ونلقي الله إنْ شاء الله تعالى عليه، والحمد لله رب العالمين». ثم يقول الشيخ خطاب: «ودَلَّ الحديث على مشروعية زيارة القبور، ولو كانوا من أهل الفترة، ولا سيما الأقارب، لما فيه من صلة الرحم والاعتبار، وعلي جواز البكاء حال الزيارة بلا صوت ولا نَوْح. ودَلَّ على مزيد شفقته ﷺ على والديه، وقيامه بحقوقهما حق القيام، والحديث أخرجه أحمد ومسلم والنسائي»(٥).

هذه هي آمنة أُمّ النبي العظيم، ولعل في القرآن ما أشار إليها حسبما جاء في الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾(٦). نقدمها لبنات جنسها، إنسانة نشأت في الجاهلية، ومع ذلك صانت نفسها وحَصَّنَتْ فرجها، ولم

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٧.
(٢) سورة الضحى، الآية ٥.
(٣) أخرجه ابن جرير.
(٤) أخرجه ابن سعد.
(٥) «المنهل العذب المورود» للشيخ محمود خطّاب ـ بتصرف.
(٦) سورة الشعراء، الآيتان ٢١٨ ـ ٢١٩.

تعبث، برغم أن العبث كان أمراً شائعاً. لكن الإنسانة العاقلة اللبيبة هي التي تعرف قدر نفسها وتحافظ على شرف أهلها وتعيش بالأدب مع الناس، والطهر الكامل، ولا تسمح لأحد ـ مهما كان ـ أن يمس شعرة سقطت من رأسها على الأرض، فما بالك برأسها وجسدها، علماً بأن الطهارة جزء لا يتجزأ. والإنسانة العاقلة هي التي تتخذ المرأة الكاملة قدوة لها، وهذه آمنة الشرف كله، لأنه لم يسبقها أحد من نساء العرب في الجمال الظاهري الذي صانته وحافظت عليه، والسمو الروحي الذي ترجمته إلى عمل في رعاية الأيتام ومساعدة المحتاجين، ناهيك بالكمال العقلي، والنضج المبكر، والذكاء المفرط، وكل ذلك نتج من الطهارة الجسدية والنفسية.

إن آمنة برغم هذا كله لم تتزوج بعد عبد اللّه برغم أنه مكث معها شهراً فقط، لكنها رأت في المولود ما يعوّضها عن الزوج، فاهتمت به وأكرمته، وجعلت مكانه في قلبها. كانت تلحظه وتهتم بشؤونه، وتعلمه وترشده وهذا هو دور الأم، لأنها لو تزوجت فإنّ زوجها ربما يقسو على ولدها الذي قد يهرب من البيت فيتلقفه الشارع، وما أدراك ما الشارع؟ إنه الضياع بسبب استهتار الأم ولجوئها إلى زوج آخر يرهق جسدها، ويمتص خيرها، لهذا كانت آمنة من النوع الفريد العظيم الذي يجب أن نتخذه قدوة، خاصة لبنات حواء، وبمثل هذا فليقتدِ المقتدون.

يا آمنة، طيّب الله ثراك، فأنت خيرُ مَنْ حملتْ بخيرٍ، وعاشرت خيراً، وأنجبت خيراً، فجزاك الله خيراً. ودعاؤنا إلى الله أن يلحقك بالصالحين، فأنتِ منهم ولهم قدوة. وهذا ليس بعزيز على الله، فهو سبحانه ذو الفضل العظيم. وصدق من قال:

أَظْـآرُه أسْلَمْـتَ مـن بـركـاتـه وحَوَي فخاراً محتسٍ فضلاته

كيف الأُصول الحاملات لِذاتِهِ أفـلا يَنَلْـنَ بجـاهـه التكـريمـا

صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليما




الفصل الثاني

زوجات النبي ﷺ وسراريه




لماذا عدد النبي ﷺ من زوجاته

سيدنا محمد ﷺ هو النبي العظيم الذي اصطفاه ربه وحَمَّلَهُ الرسالة الخاتمة، وكلَّفه بإبلاغها إلى الناس، وساق إليه الأمن والطمأنينة بأنه سبحانه حاميه من الناس، وعاصِمُه مِنْ أذاهم، فقال له: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾[1]. وقد ساق الله ذلك للرسول ﷺ وبيَّنه له، لأن المشركين عندما أنكروا الرسالة الإلٰهية التي حملها سيدنا محمد ﷺ، كان المشركون يبحثون في حياته، ويقلِّبون صفحات أيامه من قبل أن يُولَد إلى اللحظة التي يعيشون فيها، وكانوا يدقِّقون في كل الأحداث علَّهم يجدون زَلَّة أو يعثرون على هفوة فيضخمون ذلك ويكبرونه حتى يشيعوها بين الناس ليقلِّلُوا من شأن النبي ﷺ، فلم يعثروا في حياته على هفوة، ولو بسيطة، وإنما وجدوا الكمال المطلق، والنزاهة، والشرف الكامل، والعفَّة، لأنه ﷺ تربي على مكارم الأخلاق، وتحلَّي بالمروءة والشجاعة. ولما عجز المشركون وأعياهم البحث عن العثور في حياته ﷺ عن أي ذلّة بدأوا يردِّدون: إنه مجنون، فردَّ عليهم القرآن بقوله: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ ﴾[2]. فاتَّجهوا إلى فكر آخر، وقالوا: ساحر، وكان هذا من باب الإفلاس، لأنه كما يقول القائل:

وإذا أتتك مَذَمَّتِي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

وإذا كان العرب قد أفلسوا لأنهم لمَّا سُئِلوا: هل تكذبون محمداً؟ فأجمعوا أمرهم على كلمة واحدة: «والله ما جَرَّبْنا عليه كذباً قط». لكنه من خلال هؤلاء الناس تشكلت مدارس لها أفكارها ولها مناهجها، يتزعم كل مدرسة ﴿حَلَّافٍ

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٢) سورة القلم، الآية ٢.

﴿مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾[1]. وهذه المدارس كل جيل يُسلم فكره للجيل الذي يأتي بعده. وكل جيل يزيد على فكر الجيل الذي سبقه بما يتلاءم والمناخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتجاري في عصره، إلى أن وصل الفكر إلى القرن العشرين، وفيه ظهر «الإنترنت»، وبدأ المجتمع الدولي في صراع دامٍ وحروب متواصلة، ومع ذلك السباق الرهيب في غزو الفضاء، ونشر الأقمار الصناعية التي تبث فكر كل دولة، ولا شك أن كل دولة لها معتنقها الديني وعقيدتها التي تدافع عنها. وإذا كانت المعارك في الميادين بالمدافع والقنابل والطائرات والدبابات فإن الحروب الفكرية بالكلمات والمقالات. لهذا ظهر في هذا القرن وما قبله من يتهم النبي محمداً ﷺ بأنه «عدو المرأة»، ويدلِّلون على ذلك بأنه أباح لأتباعه أن يتزوجوا كل واحد منهم بأربع نساء. وكان هو رائدهم في ذلك، لأنه أكثرهم شهوة، فتزوج بأكثر من عشر نساء. وهؤلاء الناس جانبهم الصواب وأخطأوا، لأنهم لم يقرأوا تاريخ الإسلام، فقد أعماهم الحقد على الإسلام، لأنهم تربوا على فكر أسلافهم و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢﴾[2].

وهم لو أنصفوا الحقيقة وقراءة التاريخ لَعَرفوا أن النبي محمداً ﷺ هو الذي أنصف المرأة كُلَّ الإنصاف، وقَدَّر أنوثتها، وصارت في المجتمع الإسلامي شريكة الرجل، وليس أحدهما خصماً للآخر. ومنذ خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه لم يتركه وحده، حتى ولو كانت هذه الوحدة في الجنة، فخلق من آدم حواء ليسكن إليها، ولم يخلقها لتكون ندًّا له وخصماً.

ومنذ اللحظة الأولي للإسلام وبزوغ شمسه على يد سيدنا محمد ﷺ حافظ على أنوثة المرأة لتظل ينبوعاً لعواطف الحنان والرقة، وراعي طبيعتها، فأَحَلَّ لها

(١) الحلاّف: كثير الحلف فى الحق والباطل. ومهين: حقير فى الرأى والتمييز، أو كذّاب. وهمّاز: عَيّاب أو مُغْتاب للناس. مشّاء بنميم: يسعى بين الناس بالإفساد. وعُتُل: فاحش لئيم أو غليظ جاف. وزنيم: دَعِيّ أو شرير. والآيات من سورة القلم من الآية ١٠ ـ ١٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٢٢.

بعض ما حَرَّم على الرجال، كالتحلِّي بالذهب، ولبس الحرير، ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه: «إنَّ هذين» ـ الحرير والذهب ـ «حرامٌ على ذكور أمتي حِلٌّ لإناثهم». وجعل المرأة دائماً في حماية الرجل، لأنه راعي ضعفها، فهي في ظل الرجل مكفولة النفقات، مكفية الحاجات، وهذا من باب الرعاية لها، والسمو بمكانتها.

والإسلام عندما أباح تَعَدُّد الزوجات للرجل لم يطلق له العنان، وإنما قيَّده بشروط، ثم قال في نهاية الشروط التي وضعها: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(١). ثم حذَّر الإسلام الرجل الذي يُعَدِّد الزوجات من ظُلم امرأة لحساب أخرى أو الجور عليها، فقال سبحانه: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾(٢). فهذه الآية تبين أن العدل بين النساء غير مستطاع بمقتضى طبيعة البشر، لأن العدل يقتضي المساواة بين النساء في كل شيء، من مأكل ومشرب ومسكن ومبيت وكسوة، وعلى هذا الأساس نقول للذين ظلموا الحقيقة وافتروا على الإسلام ونبيِّه: ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾(٣)، أن ندرس التشريع الإسلامي في إباحة التعدد لنعلم أنه أباحه لغرض سامٍ وتشريع مُنَظَّم، وليس هذا من باب غَبْن المرأة أو ظلمها، لأن الإسلام عندما أنصفها جعلها شريكة الرجل في تحمل أعظم المسؤوليات في الحياة الإسلامية، وأباح لها أن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وأن تخرج في طلب العلم وارتياد المساجد وقضاء حاجاتها، وأن تخرج مع الجيش، وهكذا أعطاها الإسلام كل الحقوق التي مُنحت للرجل في حدود القواعد والضوابط الإسلامية.

والنبي ﷺ عدَّد من زوجاته ليس بقصد الشهوة والمتعة وقضاء اللَّذَّة كما يقول هؤلاء الخرَّاصون الأفَّاكون: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾(٤).

وتعالوا بنا نستعرض حياة الرسول ﷺ:

(١) سورة النساء، الآية ٣.
(٢) سورة النساء، الآية ١٢٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٦٤.
(٤) سورة الكهف، الآية ٥.

(١) في بداية حياته وفي سن المراهقة لم يَلْحَظْ عليه أحد من الناس انحرافاً في السلوك، أو التردد على دُور البغاء، أو التعرض للنساء، وإنما كان مثالاً عظيماً للعِفَّة والشرف والنزاهة.

(٢) تزوج وهو ابن خمس وعشرين سنة من سيدة فاضلة كريمة، كان المجتمع المكي يلقِّبها بالطَّاهرة، وعاش معها أحلي أيام عمره، ولم يتزوج عليها حتى ماتت ـ رضي الله عنها ـ وكان عندئذٍ ابن ثلاث وخمسين سنة، وهنا نقول بأن عصر الشباب قد وَلَّى، والإنسان في هذه السن لا شك أن رغبته في النساء تقلّ، ولا يستطيع أن يُعدِّد إلاَّ إذا اقتضي الأمر ذلك، كأن تمرض زوجته أو لا تستطيع الوفاء بحقه. لكن مجريات الأحداث أكَّدت على أن سيدنا محمداً ﷺ أنجب من زوجته البنين والبنات. وكانت هي تتمتع بحيوية ونضارة، وقدرة على القيام بالأعمال المنزلية، وتهيئة البيت ليستقبل الزوج العظيم الذي أصبح بعد الأربعين مكلفاً بأداء رسالة عالمية، تُخرج الناس من الظلمات إلى النور. وكان هو الذي يتلقي وحي السماء وينقله إلى أصحابه بدقة وفطانة، وقد أصبح منذ اللحظة الأولي لتنزُّل الوحي عليه مكلفاً بتربية رجال ونساء، وهو الأستاذ العظيم، ولا بد أن يكون قدوة، لأن مقام الأستاذية يتطلب من شاغلها أن يكون مع تلاميذه على قدر كبير من حُسْن القصد، وطهارة المسلك، والدقة والأمانة، فما بالنا ودرجة سيدنا محمد لم يبلغها بَشَر، فهو أعلي من الأستاذية ـ إن جاز التعبير ـ لأنه نبيٌّ الأُمَّة، ورسول رب العالمين إلى البشرية كلها، لهذا لم يكن عنده وقت يشغله مع النساء.

(٣) المشركون في بدء الدعوة بعثوا للنبي ﷺ من يقول له: «إن كنت تريد بما جئت مالاً جمعنا لَكَ من أموالنا حتى تكون من أغنانا، وإن كنت تريد سيادة سَوَّدْناكَ علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد النساء جمعنا لك فتياتنا وبناتنا فتخيَّر منهن ما تشاء». لكنه ﷺ رفض هذه المطالب وأخبرهم أن غرضه لا يتعلق بمطالب الدنيا، وأن همته لا تتعلق بالنساء، ولكنه يحمل رسالة الله إلى أهل الأرض.. فلو كان للنبي ﷺ مأرب في النساء لقبل عرض المشركين عليه، لكنه ﷺ صاحب رسالة، والواجبات لديه أكثر من الأوقات، وهمَّته متجهة إلى

إعداد جيل وتربية رجال ونساء يحملون وحي الله الذي ينقله إليهم ثم يقومون بدورهم بنقل هذه الرسالة إلى من يلتقي بهم أو يجلس معهم. ونحن نعلم أن تربية الرجال والنساء أصعب من شق الترع وبناء العمارات، لأن من يربي إنساناً يحاول أن يقتلع منه العادات السيئة وأن يغرس مكانها السلوك الحَسَن، والعادات الطيبة، والخُلُق النبيل. لهذا نجد أن حياة النبي ﷺ حتى سن ثلاث وخمسين سنة لم يكن فيها ـ في هذه المرحلة ـ إلا زوجة واحدة، أنجبت له ستة من الأولاد والبنات، هم: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم، وعبد اللّه.

ولأن النبي ﷺ عاش مع خديجة هذه المرحلة العمرية، وكانت نِعْمَ الزوجة، حَمَلَ لها أطيب الذكريات، وكان دائماً إذا ذبح شاة يبعث لصدائق خديجة، وكان إذا رأي واحدة من صديقاتها يهش لها[1] ويبسط رداءه لتجلس عليه، وكان إذا سُئل عن ذلك يقول: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإنْ حُسْنَ العهد من الإيمان**». فالذين يزعمون بأن النبي ﷺ أكثر من النساء بغرض المتعة نقول لهم: كيف؟ وقد بدأ الرسول ﷺ في التخطيط لبناء دولة إسلامية، ومخاطبة الملوك في قارات المجتمع، آنَ ذاك، إلى غير ذلك من الأمور الكبيرة والأعمال العظيمة التي قام بها هذا النبي العظيم...

إذاً ما هو الغرض من تعدُّد الزوجات؟

إن الغرض من تعدد زوجات الرسول ﷺ يرجع لأمور، أهمها:

(١) لتكون زوجاته معلِّمات لبنات جنسهن، خاصة في المسائل الشرعية التي تتعلق بالمرأة «الفقه الخاص بالمرأة»، فالمرأة عندها الدورة الشهرية، وهذا شيء كتبه الله على بنات حواء، وليس للمرأة دخل فيه. كذلك حالات الحَمْل، والنفاس، والرضاعة، وتربية الأولاد، وهذه أمور تحتاج إلى شخصية نسائية تتحدث عنها، وأن تكون المتحدثة قد تلقَّت تعليماً من الرسول ﷺ، وكان النساء يدخلن في الإسلام ويزداد عددهن. وهناك إعداد واستعداد للهجرة والمجتمع بدأ

(١) يهش لها: يشرح صدره سروراً بها.

يتسع لقبول الدعوة، ويبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وبما أن بعض الرجال أصبح يدعو إلى الإسلام، كذلك بعض النساء، والمعلم أو المعلمة لا بد أن يكون عندهما القدرة العلمية والفقه الواضح للرد على أي استفسار، لذلك اقتضى الأمر أن يُعَدِّد النبي من زوجاته ليكنَّ مُعلِّمات لبنات جنسهن... لقد ذهبت أسماء الأنصارية تسأل النبي ﷺ كيف تتطهر من الحيض فأمرها أن تغتسل وأن تأخذ فِرْصَةً[1] من مسك تتطهر بها قالت: كيف أتطهر؟ قال: **«سبحان الله!! تطهَّري»**. وغلبه الحياء عن أن يعبِّر وكانت السيدة عائشة واقفة، فأخذتها إلى داخل البيت وشرحت لها وعلَّمتها لأن أسماء هذه كانت خطيبة النساء. لهذا كان لا بد أن تتعلم على يد امرأة لتنقل هي بدورها ما تعلَّمته إلى بنات جنسها.

(٢) كان بعض الصحابة يتبتل ويشتغل بالعبادة ويهجر زوجته، فتذهب الزوجة التي هجرها زوجها إلى بيت النبي ﷺ وتشكو زوجها الذي هجرها، ولا يستطيع أحد أن يفهم مشاعر المرأة إلاَّ امرأة مثلها، فكانت زوجة النبي ﷺ تستمع وتحلل مشاعر المرأة وعواطفها واحتياجها إلى زوجها، ثم تقوم أم المؤمنين بنقل هذه الصورة إلى رسول الله ﷺ، فيعالج هذا الخَلَل في خُطَبه ودُروسه، ويصحِّح الأوضاع، ويقول للناس: **«إنَّ لِزَوْجِكَ عليكَ حقًّا»**. وهكذا كانت زوجات النبي ﷺ متلقيات عن نساء الصحابة، ناقلات إلى رسول الله ﷺ، فيقوم بالتوجيه والإرشاد.

(٣) كان الرسول ﷺ يتميز عن الناس كلهم بالفطانة والذكاء وبُعْد النظر، فقد رأى بثاقب فكره أن يتألَّف القبائل[2]، ويتودَّد إلى العشائر، فكان يتزوج من القبائل لتأليف القلوب، كما حدث مع أم المؤمنين «صفية بنت حُيَي بن أخطب»، و«ميمونة بنت الحارث الهلالية»، و«جُوَيرية بنت الحارث» وزواجه من القبائل يوثق العلاقات الودية بينه ﷺ وبين لقبه.

(٤) الرسول ﷺ هو القائد العظيم الذي لا يضيِّعُ أبناء أصحابه الذين سقطوا في ميدان الشهادة للدفاع عن الدين وقد تركوا زوجة وأولاداً صغاراً. فمن الذي

(١) الفِرْصَة: قطعة قُطْن ـ أو خِرْقَةٌ ـ تستعملها المرأة فى مسح دم الحيض.
(٢) يتألف القبائل: يستميلها.

يعولُ الأولاد؟ ومن الذي يرعي البيت؟ لا شك أن القائد العظيم هو الذي يقوم بذلك، لهذا كان يقول: «مَنْ تَرَكَ مالاً فَلِوَرَثَتِهِ، ومن ترك عيالاً فعليَّ وإليَّ». لهذا نراه تزوج بِسَوْدَة بنت زَمْعَة، وأم سلمة، وغير ذلك لأن كان يرعى أمر الأرامل والأيتام ويتردد على البيت وربما تكون السيدة وحدها في المنزل لهذا عقد عليها لتكون الرعاية أكمل..

(٥) هناك عادات أَلِفها العربُ، والإسلام يرفُضها، ولا بد من تغيير هذه العادات، إذاً فعلي القائد يقع العبء العملي بعد النظري في تغييرها. ومن هذه العادات زوجة المتبنَّى، وقد كان الرسول ﷺ تبنَّي زيد بن ثابت، ثم زوَّجه بالسيدة «زينب بنت جحش» وهي العربية الأصيلة، الهاشمية القرشية، فزوَّجها لزيد، ولحكمة أرادها الله أخبر نبيَّه أنَّ زيداً سَيُطَلِّقُ زينبَ وسوف تتزوجها، وهنا ثارت هواجس في نَفْس الرسول عليه الصلاة والسلام: كيف يتزوج بمطلقة مُتَبَنَّاه «أي ابنه» في عُرْف المجتمع؟ لكن الله قال له: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[1]، وكان ذلك بغرض تغيير هذه العادة، لأن المُتَبَنَّي ليس ابناً، وعلي هذا طَلَّق زيدٌ زينب وتزوجها الرسول ﷺ بأمر الله لتغيير هذه العادة.

(٦) لتوثيق عُرَي الصداقة، ولتدعيم روابط المحبة بين الرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر تزوج بابنتيهما لتكريم كل أسرة منهما، وليكون لهما شرف صلة ببيت النبوة «عائشة، وحفصة».

وهناك بعض النساء لا عائل لهن، وقد مات الزوج وكان من بين السابقين إلى الإسلام، فضَمَّ الرسولُ ﷺ زوجته إلى بيته، كَسَوْدَةَ بنت زَمْعَة.

وهكذا كلما قَلَّبْتَ حياة سيدة من أُمَّهات المؤمنين تجد أن وراءها قصة عندما ارتبطت بنبي الإسلام ونالت شرف الانتساب إلى البيت النبوي، وحملت وساماً عظيماً لا يمحوه الزمان، ولا يتغير بتغيُّر الليالي والأيام، وهذا الوسام هو لقب «أم المؤمنين»، لأنها أصبحت أُمًّا بعلمها، وفضل مكانتها، وشرف وضعها، ويحرم

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

على أي إنسان مهما كانت منزلته أن يتطلع للزواج منها بعد رسول الله ﷺ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾(١).

والأعجب أنه كيف استطاع الرسول ﷺ أن يجمع هذا العدد من النساء في هذه السن المتأخرة ومع الأعباء الموكولة إليه من تخطيط للدولة، وتنظيم لمرافقها، والعمل على إنعاشها اقتصاديًا، ومع ذلك هناك تخطيط حربي الغرض منه رد العدو الغاشم الذي يريد أن يدخل إلى المدينة المنورة ويقضي على الإسلام ونبيِّه، ولا بد أن يسبق ذلك عيونٌ ترصُد العَدُوَّ، وتتعرَّف على مقدراته واتجاهاته، وعدد جُنده وحلفائه، ثم مع هذا العبء يستقبل وحي الله، ويُكاتب الملوك، ويستقبل الوفود.. لقد قلنا بأن النبي محمداً ﷺ استطاع بكياسته وحكمته أن يجمع هذا العدد من النساء ليكنَّ معلِّمات، ثم عَدَلَ بينهن في كل شيء، حتى في المبيت، وكان ﷺ لا يميز واحدة عن أخرى، وكان يعلن حتى وهو في حال مرضه عن وفائه لنسائه، ويأمر أصحابه بنقله إلى بيت زوجته صاحبة الليلة في المبيت، وكان في إمكانه وهو مريض أن ينام في بيتٍ واحد، وأنَّ نساءه يسألن عنه، لكنه العَدْلُ، وهو نبي العدل، وناشر لواء الحب، ورسول السلام، ولهذا كان إذا قَصَّرَ في بعض الواجبات يقول فيما رواه أبو داود: «**اللهم هذا قسمي فيما أَمْلُك، فلا تَلُمْنِي فيما تملك ولا أملك**».

وكان بيت النبي ﷺ مضرب المثل في الاستقرار والهدوء والأمن والسكينة، لكنه ﷺ استطاع أن يؤلف بين قلوب نسائه برغم أنهن تحمَّلن معه شظف المعيشة، لأن الشهر وراء الشهر يمضي ولا يوقد في بيت محمد نار، وليس له ولا لأهله طعام إلاّ التمر والماء ومع ذلك لم يَخْلُ البيت النبوي من مضايقات، لأنه يتكون من بَشَر، لكنَّ الحكمة في معالجة تلك المضايقات كانت تنهي أي خلاف بسرعة، من ذلك مثلاً: أن الله سبحانه عندما فتح لنبيِّه البلاد وحُملت إليه الصَّدقات وبدأ يوزع المال على الفقراء والمساكين، ولم يدَّخر لنفسه شيئاً، حدثت مشاغبات من نسائه، وكأنهن يَقُلْنَ: أنت توزع المال ونحن أحوج إليه، إن بيتنا هو بيت الإمارة

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

والإدارة، فكيف نُحْرَمُ حتى ولو من العاملين عليها؟! لكن النبي ﷺ يقول: «**إنَّ الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، لأنها أوساخ الناس**»، أي: الصدقة تكفير عن الذنوب والأخطاء، فمن يأخذها فهو يحمل أوزار أصحابها، ومع ذلك فإن السماء حسمت الموقف، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾[1]. أي: يا نساء النبي إنْ كنتن تُرِدْنَ المال لتشترين به عَرَض الحياة الدنيا فسوف أعطيكُنَّ من المال الكثير، ولأن ذلك يخالف ما يدعو إليه الأنبياء، لأن التعلُّق بالدنيا يؤثر في الكيان الديني للإنسان، والله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلاَّ ما كان خالصاً لوجهه الكريم، فإن أعطيتكن المال لتتمتَّعْنَ به في الدنيا فسوف أُطلقكن.

وقد هزّ هذا الموقف شعور أمهات المؤمنين، فرفضن المال، ورَفَضْنَ المتعة، وأعلنت كل واحدة منهن أنها تختار العبادة الخالصة لله تعالى، والحب لرسوله، والقرب منه، لتنال كل واحدة سعادة الدنيا وفلاح الآخرة، لهذا قال الله لهن: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[2]. وهذا فضل الله، فهل يعلم ذلك خبثاء النيّة الذين يغمزون في حياة النبي ويلمزون؟!

والجدول الآتي يبين أسباب الزواج من كل سيدة فاضلة:

(١) السيدة خديجة بنت خويلد

أعقل أهل زمانها وأطهر نساء مكة، وفضلى الفضليات. كانت تُنْعَتُ في زمن الجاهلية بالطاهرة. وكانت تسلِّي النبي ﷺ وتهوِّن عليه ما يلاقيه.. هي الزوجة الأولى، تزوجها وسنها أربعون سنة وسن النبي ﷺ عند الزواج منها خمس وعشرون سنة.

(٢) السيدة سودة بنت زمعة

أول امرأة تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة كانت قد تزوجت بابن عمها

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٨.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢٩.

السكران بن عمرو من بني عامر، وقد أسلما معاً في أول الدعوة، واشتد عليهما عذاب قريش، فهاجرا إلى الحبشة، ولما عادا توفي زوجها وبقيت هي وحيدة. أهلها وأهل زوجها كفّار. وكانت امرأة مسنّة لا تجد من يقوم على رعايتها ولا تدبير شأنها، فتزوجها النبي ﷺ أولاً: ليرعي أمرها، وثانياً: ليتألف قلوب بني عبد شمس قومها، وثالثاً: ليوثق الصِّلة بينه وبين أخواله، حيث تمتُّ إليهم بصلة القربى.

(٣) السيدة عائشة بنت أبي بكر

هي البكر الوحيدة التي تزوجها النبي ﷺ، وكانت مخطوبة قبل أن يخطبها النبي ﷺ «لجبير بن مطعم بن عديّ» ولما فسخت الخطبة لأن جبيراً كان مشركاً، وقد أصر على أن أبو بكر يترك الإسلام حتى يتمم الزواج من ابنته، لكنَّ أبا بكر رفض، وفُسِخَتِ الخطبة. وتوثيقاً لعُرَي الصداقة بين النبي ﷺ وأبي بكر خطبها وهو في مكة، وأتمَّ الزواج بعد الهجرة إلى المدينة. كانت عالمة نسَّابة، لبيبة ذكية.

(٤) السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب

ترمَّلت وهي في ريعان الصبا، حيث توفي زوجها «خُنيس بن حُذافة». وكانت مع زوجها من أوائل المسلمين، وشهد زوجها غزوة بدر وغزوة أُحُدٍ وكان بطلاً عظيماً. ولما ترمَّلت كان عمر يبحث لابنته عن زوج كفء، فعرضها على أبي بكر فسكت ولم يرد، ثم عرضها على عثمان، فسكت هو الآخر وقد أضمر عمر في نفسه الحزن منهما، ولكنْ كان سكوتهما لأن رسول الله ﷺ ذَكَرَها، وأراد أن يجبر خاطرها بعد موت زوجها البطل، وأن يساوي عمر بأبي بكر في المصاهرة الكريمة، وتلك سياسة حكيمة، فيها تدعيم للموَدَّة، ووفاء للأموات.

(٥) السيدة هند بنت أبي أمية «أمّ سَلَمة المخزومية»

أسلمت هي وزوجها عبد اللّه بن الأسد المخزومي، واشتد عليهما عذاب قريش، فهاجرا إلى الحبشة. كانت تحب زوجها وتجلُّه وتُكِنُّ له الوفاء، ثم عادا من الحبشة وهاجرا إلى المدينة وشهد زوجها بدراً وأُحُداً، وأبلي فيهما بلاءً حسناً، وفي السنة وفي السنة الثالثة من الهجرة لقي زوجها ربه. وعاشت وحيدة في بلاد الهجرة. فخطبها أبو بكر وعمر وبعض الصحابة ليقوموا على رعاية أمرها وتدبير

شأنها، فلم تقبل، لأن أولادها صغار، وهم في حاجة إلى رعايتها، لكنَّ رعاية الأيتام عِبْءٌ، وهي مُسِنَّةٌ، وهنا تقدَّم النبي العظيم لخطبتها، فقالت: يا رسول الله، أنا امرأة مُسِنَّة ذات عيال وعندي غيرة شديدة. فكان رد الرسول ﷺ عليها بأنه أَسَنُّ منها، وأمَّا الأيتام فَمَنْ لهم سوى رسول الله ﷺ؟ وأما الغيرة فأدعو الله أن يُذْهِبَ ما بنفسك من غيرة. علاوة على ذلك كانت سيدتنا هند من بيت شريف كريم، أراد الرسول ﷺ أن يوطِّدَ العلاقة بهذا البيت لتدوم المودَّة والمحبة.

(٦) السيدة رملة بنت أبي سفيان «أمّ حبيبة»

من السابقات إلى الإسلام هي وزوجها عبيد اللّه بن جحش الأسدي، وتحت وطأة العذاب من قريش ـ خاصة من أبيها أبي سفيان ـ هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وهناك ولدت بنتها «حبيبة»، ثم ارتدَّ زوجها عن الإسلام وحاولَ أن يردَّها عنه فأبت، وصبرت على دينها، وعاشت وحيدة في الغربة تعاني مُرَّ العذاب، لأنها لو عادت إلى مكة فإن أباها من زعماء المشركين. إذاً لا بد من يدٍ حانية تمسح عنها كآبة الحزن وتواسيها وهي الصامدة الصابرة. وأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة يفوضه في أن يطلب يدها للنبي ﷺ، وتزوجها النبي ﷺ وهو في مكة وهي في الحبشة. فهو زواج رعاية وحماية حتى لا تُترك امرأة وحيدة تلعب بها الظروف. ولما بلغ أمر الخطبة إلى أبي رملة «أبو سفيان» قال عن سيدنا محمد ﷺ: هو الفحل لا يُجْدَعُ أنفه، أي: إن الرسول كُفْءٌ شهم، كُفْءٌ لأي امرأة، ونسبه يشرِّف. «والفضل ما شهدت به الأعداء».

(٧) السيدة زينب بنت جحش

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يتزوج من السيدة زينب زوجة متبنَّاه، ليبطل قاعدة جَرَي عليها العُرْف، واعتبرها الناس أنها قاعدة أصيلة وهي «التبني»، فأبطل الإسلام التبنِّي وحرَّمه، وهَدَم القاعدة من أساسها، وأمر النبي ﷺ أن يتزوج بمطلقة مُتَبَنَّاه وقال الله لنا: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [الأحزاب: ٥].

(٨) السيدة زينب بنت خُزَيْمَة «أمُّ المساكين»

كانت امرأة متقدمة في السن وهي من السابقات إلى الإسلام مع زوجها الأول

عبد اللّٰه بن جحش، وقد استشهد في غزوة أُحُد وأصبحت بعد استشهاده بلا عائل. كانت تعرف في الجاهلية قبل الإسلام بأنها أم اليتامى والمساكين، لأنها كانت كريمة سخية، تعطف على الفقراء والضعفاء والأرامل واليتامى، فتزوجها النبي ﷺ رعاية لظروفها الاجتماعية، وجبراً لخاطرها، حيث لا مطمع فيها للرجال.

(٩) السيدة جويرية بنت الحارث

هي من بني المصطلق، وكان أبوها يكنّ العداء الشديد لرسول الله ﷺ. وبنو المصطلق من الأحزاب الذين ساعدوا المشركين في غزوة الأحزاب. وكانت هذه السيدة متزوجة من ابن عمها «صفوان بن مالك» وقُتل عنها في يوم الأحزاب، وكانت من بين الأسرى، وكان اسمها «بَرَّة»، وقد خاطبت النبي ﷺ بقولها وهي أسيرة: «أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما قد علمت فجئتُكَ أستعين بكَ على أمري». كانت تتكلم وفي صوتها نبرة أَسًى، لأنها كانت عزيزة الجانب في قومها، وهي اليوم أسيرة وقد وقعت في سهم «ثابت بن قيس». فقال لها الرسول ﷺ: «**فهل لكِ من خيرٍ في ذلك؟**»، فقالت في لهفة: «وما هو يا رسول الله؟ فقال: «**أَقْضي عنكِ كتابتك وأتزوجك!**» يعني أدفع الثمن الذي يطلبه قيس وأتزوجك. وتهلل وجهها فرحاً. وقصد الرسول بذلك: أولاً: أن يرحم ضعفها حتى لا تُباع في السوق كما تُباع الجواري. ثانياً: أن يوطّد العلاقة بين بني المصطلق ـ وهم قبيلة كبيرة ـ والرسول ﷺ يرجو لهم الخير إذا دخلوا في الإسلام، ولعل هذا الزواج يكون فاتحة خير. وغيَّر الرسول ﷺ اسمها من «برّة» إلى «جويرية» وكان هذا الزواج خيراً لعشيرتها وأهلها. فأسلم أبوها وقومها، وتمَّ عتق مائة بيت من بيوت قومها، وحقًّا كان رسول الله ﷺ نبي الرحمة والسلام.

(١٠) السيدة صفية بنت حُيَيّ

هذه السيدة أبوها حُيَيُّ بن أخطب زعيم يهود بني قريظة، وكانت متزوجة من «كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق»، وهو شاعر يهودي قُتل يوم خيبر، وقد وقعت في الأَسْر، وأخذها صحابي يسمي «دِحْيَة»، لكن أحد الصحابة قال لرسول الله ﷺ: إن صفية لا تصلح إلاَّ لكَ، لأنها بنت أمير القوم، ومن أعقلهم، وقد أُصيبت في أعز أهلها، فَاجْبُرْ خاطرها وضُمَّها إليك. وقد استجاب النبي ﷺ لهذه المشورة، وأسلمت، وتزوجها النبي ﷺ.

(١١) السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية

هذه السيدة أخت أم الفضل لبابة الكبرى، زوجة العباس عم النبي ﷺ كما أنها أخت أسماء زوجة جعفر بن أبي طالب، وأخت لسلمى زوجة الشهيد حمزة، وأخت أم خالد بن الوليد وقبيلتها «بنو هلال». وقد أشار العباس عم النبي ﷺ عليه أن يتزوجها ليوثق الصلة بهؤلاء جميعاً. وكان هذا الزواج فيه الخير والبركة فبسببه دخل خالد بن الوليد في الإسلام، وأسلمت قبيلة بني هلال وهم من أشرف القبائل العربية علاوة على توثيق الصلة بمن ذكرنا.

شخصيات في بيت النبوة بملك اليمين

(١) السيدة مارية القبطية

هدية مصر إلى النبي العظيم، قدَّمها المقوقس حاكم مصر إلى حاطب بن أبي بلتعة الذي حَمَلَ رسالة من النبي العظيم إلى المقوقس، فكان رده بهدايا منها مارية. عاشت في بيت النبوة بعد أن أسلمت وحَسُنَ إسلامها. وكانت صَوَّامَةً قَوَّامَةً. ومضت عليها سَنَةٌ وهي ببيت النبوة ثم حملت بإبراهيم «الابن السابع للنبى ﷺ»، وقد مات صغيراً، وعاشت صوَّامة قوَّامة حتى لقيت ربها.

(٢) ريحانة بنت زيد

هي من بني قريظة وقد وقعت في الأسر.. وعرض عليها النبي ﷺ الزواج، فقالت: أكون في ملك يمينك لأنني عاهدت زوجي ألاَّ أتزوج بعده أبداً. وعاشت كريمة عزيزة تجد الحب والحنان في بيت النبوة بعد هذا توصل الحديث عن أمهات المؤمنين.

السيدة خديجة بنت خويلد

اسمها ونسبها

هي أُمُّ المؤمنين خديجة بنت خُوَيْلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ بن كلاب بن مرة.

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هَرِم بن رواحة. وكانت تُدْعَي في الجاهلية: الطاهرة، العاقلة، وتكنَّي بأُمِّ هند.

زواجها قبل النبي ﷺ

أراد ورقة بن نوفل ـ وهو ابن عمها وأحد حكماء العرب ـ أن يتزوجها بعد أن ذُكرت له، ولكن الزواج لم يتم. ولكن تزوجها عتيق بن عائذ بن عبد اللّه المخزومي.. فولدت له ولداً أسمته «عبد اللّه»، وبنتاً أسمتها «هنداً»، ثم مات عنها فتزوجها أبو هالة، واسمه هند بن زرارة التميمي، فولدت له ولداً أسمته «هنداً» وبنتاً أسمتها «زينب» ثم مات عنها.

خديجة تقبل الزواج بمحمد ﷺ

وكانت سيدتنا خديجة تعيش في المجتمع المكي طاهرة السيرة، كريمة النفس، سخية اليد، عفيفة الذيل، لها مال وثروة، تستأجر الرجال ليقوموا لها بالتجارة في مالها بشيء تجعله لهم من المكسب. وكانت تتخير الرجال الذين عُرفوا بالأمانة والصدق، واشتهرت سيرتهم بالعفة وضبط النفس والحلم. وكان سيدنا محمد ﷺ شابًا من شباب قريش اجتمعت فيه الخصال المذكورة، علاوة على «أنه كان وسيم الطلعة، مبسوط الجبين، واسع العينين، أدْعَجْهما، يشوب بياضهما في الجوانب حُمرة خفيفة تزيد في قوة جاذبيتهما، وذكاء نظرتهما، له أهداب طوال مستوي الأنف دقيقه، مفلج الأسنان، كث اللحية، طويل العنق، عريض الصدر، رحب الساحتين، أظهر اللون، يسير ملقياً جسمه إلى الأمام، مسرع الخَطْو ثابته، على ملامحه سيماء التفكير والتأمل، وفي نظرته سلطان آمِرٌ، يخضع الناس لأمره».

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد»: «هذا الشخص العظيم كان يعيش في مكة، وكان له أصدقاء، وكانوا إذا اجتمعوا يجدونه قليل الكلام، ميّالاً للجدِّ من القول. يمزح ولا يقول إلا حقًا. وقد عُرف بثبات العزيمة وقوة الإرادة، عرفه الناس بالجود والكرم، والوفاء الكامل، ومن كانت تلك صفاته لا بد أن تتخيره السيدة الفاضلة اللبيبة الكريمة ـ خديجة ـ ليتاجر لها في مالها. وقد وافق وخرج فعلاً بتجارة إلى الشام، وكان لها غلام يُدعي «مَيْسَرة»، رافَقَ سيدنا

محمداً ﷺ في هذه الرحلة، فرأى العجب في صحبته فقد رأى أن الشمس عندما تشتد حرارتها تأتي غمامة فتظلل محمداً ومن يُجاوره.

كذلك نزل محمد وميسرة تحت شجرة يستريحان، فجاء راهب كان في صومعة بالقرب من هذه الشجرة، وقال لميسرة: مَنْ هذا الرجل؟ قال ميسرة: هو رجل من قريش من أهل الحرم. قال الراهب: ما نَزَلَ تحت هذه الشجرة قط إلا نبيّ!

وسارت القافلة إلى الشام بعد ذلك، وباع محمد وربح أكثر مما كان مقدراً، وبمدة بسيطة قبل أن يبيع التجار الذين معه، واشترى ما أراد. ولما رجع من الرحلة سلَّم صاحبة المال مالها وانصرف. وكانت سعيدة بالربح، إلاَّ أنها سعدت أكثر عندما سمعت أخبار الرحلة من «ميسرة»، حيث ذكر لها ما شاهده في الرحلة وما رآه، وما قاله الراهب، وهنا أسرعت خديجة بالتوجه إلى وَرَقَة بن نوفل، وهو أحد الحنفاء الذي قرأ في الكتب السابقة، وعرف من أخبار النبيين الكثير. فلما سمع من خديجة ما سمع اعتدل في جلسته وقال: سُبُّوح قدُّوس، رب الملائكة والروح، إنْ صحَّ ما ذكرتِ يا خديجة فإن هذه أماراتُ وعلامات النبي الذي آن أوانه، وسيُبعث من مكة، وإنه لنبي هذه الأمة.

هنا تحركت عواطف السيدة خديجة وشعرت بشيء من الرضا والارتياح، وتقرر في نفسها أمراً.

زواج موفَّق

تقول بعض الروايات: إن خديجة أرسلت نفيسة بنت منية صديقتها إلى محمد ﷺ تسأله عن سبب عزوفه عن الزواج إلى اليوم، فأجابها: «ما بيدي ما أتزوج به». قالت: فإن دُعيت إلى الشرف والكفاءة والجمال والمال؟ قال: «من تَعْنِينَ؟»، قالت: خديجة. فقال محمد ﷺ في نفسه: «خديجة التي يرغب فيها أغنياء القوم وعظماؤهم وهي تردُّهم في أَنَفَةٍ وكبرياء تَقْبلني أنا اليتيم الفقير؟»، ولكن سرعان ما تنبَّه إلى الواقع المحسوس أنَّ مَنْ مثله في رُجولته الفذة وخُلقه الكامل ما يجعل خديجة تميل وترغب إليه، هي وأمثالها من فضليات النساء.

وقد جاء في سيرة ابن هشام: أن محمداً ﷺ انطلق يسعي نحو الكعبة فإذا بكاهنة تلقاه في الطريق وتسأله قائلة: جئت خاطباً يا محمد؟ أجاب غير كاذب: «كلا»، فتأملته برهة ثم هزت رأسها وهي تقول: ولِمَ؟ فوالله ما في قريش امرأة ـ وإن كانت خديجة ـ إلا وتراك كُفئاً لها. ومضت أيام قلائل ثم تلقّى دعوة خديجة، فسارَعَ إليها وفي صحبته عَمَّاهُ: أبو طالب وحمزة. وفي بيتها كان هناك بعض أقاربها. وتكلم أمامهم أبو طالب الذي قال: أمَّا بعد: فإن محمداً ممن لا يُوازَنُ به فَتًي من قريش إلاَّ رجح به شرفاً ونُبلاً، وفضلاً وعقلاً، وإنْ كان في المال قَلٌّ فإن المال ظلٌّ زائلٌ، وعارية مُسْتَرْجَعَة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، فأثنى عليه عمها عمرو بن أسد، وزَوَّجَها منه.

ومرت أيام وأيام والزوجان ينعمان بأطيب حياة زوجية بينهما وبالأُلفة والاستقرار، وقد رُزقا بالبنين والبنات، وأولادها منه ستة: القاسم، وعبد اللّه، وقد ماتا في الصغر، وزينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. ومضت الأيام ومحمد ﷺ سعيدٌ ببناته ـ علي غير ما أَلِفَتِ العربُ ـ هانئ بحياته الزوجية.

وكان ﷺ ميالاً إلى العُزلة، ثم حُببت إليه الخلوة، فكان يذهب إلى «غار حراء» يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد، حتى يعود إلى أهله فيتزود لمثلها، وخديجة في كل هذا ترقبه وتتابع خطواته بدون مَلَل أو شكوي أو نفور، وكأنها تترقب المكنون في عالم الغيب لتسعد به.

النبي البشير

وبينما محمد ﷺ في غار حراء يتعبد إذْ نزل عليه مَلَكٌ من السماء فقال: «يا مُحمد، اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ؟». فأخذه وضمه إلى صدره ثم أرسله وقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، فأخذه وضمه إلى صدره ثم أرسله وقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾[١]. ورجع محمد ﷺ

(١) سورة العلق، الآيات ١ ـ ٥.

إلى خديجة يرجف فؤاده ويقول: «زَمِّلُوني زَمِّلُوني». ثم يقول لخديجة: «لقد خشيتُ على نفسي»، ثم أخبرها الخبر، ولكن خديجة التي عرفته عن قرب ولمست فيه كل صفات الكمال تقول وهي تنظر إليه نظرة حانية ملؤها العطف والتقدير:

«كلا والله لا يخزيك الله أبداً». ثم تعلل ذلك فتقول: «إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتكسب المعدومَ، وتعين على نوائب الحق». ومَنْ أعرف الناس بدخيلة الرجل من زوجته؟ فهي ألصق الناس به، وأقربهم إليه، فشهدت بما عرفت، وحكمت بما سمعت، وهي اللبيبة الطاهرة.

ثم تُدثِّره في فراشه ويغط الرسول ﷺ في نومه. ثم تجمع بناتها من حولها وتبشرهن بما حدث للأب العظيم، ثم تذهب خديجة إلى ورقة بن نوفل وتقص عليه ما حدث، فيرد عليها ورقة: «أَبْشِرِي يا بنت العم، هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى». وعندما ترجع خديجة إلى بيتها يكون الرسول ﷺ قد استيقظ من نومه ويقول: «يا خديجة، لقد وَلَّى عهد النوم وذَهَبَ عهد الراحة». ثم تلا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾(١). وهنا تعلن خديجة استجابتها على الفور، وأنها مؤمنة برسالته، مُصَدِّقة لما يقول.

ومنذ تلك اللحظة وهي واقفة بجواره، تشد أزره، وتعينه على احتمال أقصى ضروب الأذى والاضطهاد من قومه. بذلت من مالها، وضحّت في سبيل ما جاء به، وذاقت مرارة الحرمان عندما حُوصِرَ الرسول ﷺ في شِعْب بني هاشم. إنها ربيبة عز وجاه، ولكن حبها لعقيدتها جعلها تصبر على أقسى أنواع البلاء بجوار زوجها الوفي، رسول الله ﷺ إلى خير أُمَّة أُخرجت للناس.

اختبار وسلام

كان الرسول ﷺ يخبر خديجة عن جبريل، رسول الوحي الذي يأتيه بخبر

(١) سورة المزمل، الآيات ١ ـ ٥.

السماء، فقالت: «أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟» فلما جاءه جبريل قال لخديجة: «هذا جبريل قد جاءني». قالت: «قم فاجلسْ يا ابْنَ عم على فخذي الأيسر». فقام ﷺ فجلس عليها. فقالت: «هل تراه؟»، قال: «نعم». قالت: «فتحول واقعد على فخذي الأيمن». فتحول ﷺ كما أرادت، فقالت: «هل تراه؟»، قال: «نعم». فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها ثم قالت: «هل تراه؟»، قال: «لا». قالت: «يا ابن عم اثبتْ وأبْشِرْ، فوالله إنه لَمَلَكٌ وما هو بشيطان». ثم غاب جبريل عليه السلام، وذهبت خديجة تعد طعاماً لرسول الله ﷺ ونزل جبريل عليه السلام على الرسول ﷺ فقال: «يا محمد، هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام فإذا جاءتك فاقرأ عليها السلام من ربها». فقال ﷺ: «يا خديجة، هذا جبريلُ يُقْرِئُكِ مِنْ ربك السلام». قالت خديجة: «الله هو السلام، ومنه السلام، وعلي جبريل السلام».

منزلتها في الجنة

روي أن فاطمة رضي الله عنها قالت لأبيها ﷺ: «لا يهنأ لي عيش حتى تسأل جبريل عن أمي». فقال: «هي بين مريم وسارة في الجنة».

وروي أن جبريل قال للنبي ﷺ: «بَشِّرْ خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخبَ فيه ولا نَصَبَ». كما رُوي أنه ﷺ خط أربعة خطوط وقال: «أتدرون ما هذا؟»، قالوا: «الله ورسوله أعلم». فقال: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون».

ذكري دائمة

خديجة هي أول مَنْ آمَنَ برسالة محمد ﷺ. شَدَّتْ من أزره، وبذلت من مالها، ووقفت بجواره، وكانت بمثابة الأم الحنون، والأخت البارَّة، والزوجة الكريمة، تواسيه وتخفف عنه الآلام عندما يرجع مهموماً، ولم تجعله يحمل هَمَّ الأولاد، فكانت ترعاهم وتكفيه كل شيء، ولا نستطيع أن نقول فيها إلا كما قال الشاعر:

ولـو أنَّ النسـاء كَمِثْـلِ هَـذِي   لَفُضِلَتْ النسـاءَ علـى الرجـال

ولقد كانت ذكراها الطيبة العطرة على لسان الرسول ﷺ، وخيالها لم يفارقه، ولذلك كانت عائشة تقول: «كان الرسول ﷺ إذا ذكر خديجة أَثْنَي عليها وأحسنَ الثناء. قالت: فَغِرْتُ يوماً وقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت من الدهر، وقد أبْدَلَكَ الله خيراً منها». فتغيَّرَ وجهه ﷺ وزَجَرَ عائشة غاضباً وقال: «**والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي إذْ كفر الناس، وصدقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذْ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء**». فقلت بيني وبين نفسي: «لا أذكرها بسوء أبداً».

ولم يكن ﷺ يسأم من الثناء عليها والاستغفار لها. وكان إذا ذبح شاة يقول: «**اذهبوا بهذه إلى أصدقاء خديجة**». وكثيراً ما يذكر أصدقاءها بالخير. وكان يرتاح لأقربائها، والوفي شيمته الوفاء لمن أحب.

وفاتها

عاشت سيدتنا خديجة رضي الله عنها بمكة تحيط الرسول ﷺ بعطفها، وتحنو عليه الحنو كله، وشاركته في محنة الحصار بإيمان راسخ، ولمَّا فُكَّ الحصارُ ـ وكان الاضطهاد قد بلغ منها ما بلغ ـ علاوة على أن سنها قد تقدمت، حيث أصبحت في الخامسة والستين من عمرها، رقدت مريضة منهكة نتيجة ما أَلَمَّ بها من وَهَنٍ أخذ يدب في جسمها، وهي وإنْ كانت تتشبث بالحياة كي تظل على صلة بالهادي الأمين حتى يُبَلِّغَ دعوة ربه إلا أن قَدَرَ الله إذا جاء لا يُؤَخَّرُ، فأسلمت روحها بين يدي الرجل الذي أحبته منذ رأته وصدقت برسالته حين سمعت بها. وكانت وفاتها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنوات، في شهر رمضان، وقد نَزَلَ ﷺ في حُفْرَتِها وأضجعها في مَقَرِّها الأخير وهو دامع العين، لأنه فَقَدَ بفقدها السكن النفسي، وسُمِيَّ العامُ الذي ماتت فيه عامَ الحزن.

وقد حزن عليها حزناً شديداً. وعاش ﷺ بعدها يؤدي رسالة ربه. ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وقد كان ﷺ يتذكر خديجة رضي الله عنها في كل

مواقفها التي انتصرت له فيها، لأنها كانت ملء قلبه. فرضي الله عنها، وأحسن جزاءَها جزاءَ ما بذلت من تضحية في مؤازرة الدعوة الإسلامية ورسول الدعوة وما عند الله خير وأبقى.

أم المؤمنين سودة بنت زمعة

يظن كثير من الناس أن عظمة الرجل لا تكتمل إلاَّ إذا امتلك الضِّياع وحاز تحت يده النساء والخدم. ولذا يفتري كثير من المستشرقين على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، ويتجنُّون على عظمة هذا النبي الكريم، ويتَّهمونه بأنه رجل قد أخذ بعقله الهوى، وأن عظمته كانت في كل شيء حتى في شهوات الدنيا.

والمتأمل في تاريخ هذا النبي العظيم يجد أن حياته قبل الزواج تُعْرَفُ بالعفَّة، وتُوصف بالفضيلة، مع أن البيئة العربية كانت النساء فيها متبرِّجات، يُبدين الزينة، ولا ترد المرأة يَدَ لامسٍ، ومحمد ﷺ الذي أعده الله للرسالة، له من وسامة الطلعة، وريعان الفتوة، وجمال الرجولة، ما يهفو إليه قلب كل امرأة، وتتمناه كل فتاة.

ولكنه مع انتشار فساد الأخلاق وانهيار القيم ظل متمسكاً بشرفه يصون عرضه عن كل دنس، ويربأ بنفسه عن كل ما يصله بأفعال الجاهلية، حتى إذا بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة ارتبط بالسيدة خديجة رضي الله عنها زوجة وفية، طاهرة نقية، شريفة عفيفة، بعد أن مات زوجها عنها. وعاش النبي الكريم معها عيشة كلها حب ونقاء، مع إنجاب البنين والبنات، إلى أن بلغ من العمر أكثر من خمسين عاماً وهو راضٍ عن حياته، سعيد بزواجه، ولم يشرك معها زوجة أخرى، حتى إذا ما انتقلت إلى جوار ربها راضية مَرْضية عاش بعد وفاتها يرعي بيته، ويجاهد في سبيل تبليغ رسالته، والأيام تمضي ثقيلة الخطوات، وهو مرهق بأعباء الجهاد في تبليغ الرسالة، وخلو بيته من الزوجة الحبيبة الوفية التي كانت تشجعه وتواسيه وتشد من أَزْره، وتجعله لا يفكر إلا في أداء الرسالة. وكان الصحابة يلاحظون آثار الحزن بادية على وجهه، فيشفقون عليه، ويريدون أن يفاتحوه لسؤاله عَمَّا يشغله علَّهم

يستطيعون تقديم ما يملكون، ولكنهم كانوا يتهيبون ذلك إجلالاً وتقديراً لشخصه النبيل. حتى إذا ما انتهت أيام الحداد على خديجة تقدمت السيدة «خولة بنت حكيم» وقالت: «يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خَلَّةٌ[1] لفقد خديجة». فأجاب: «أجَلْ، كانت أُمَّ العيال وربة البيت». فاقترحت عليه أن يتزوج. فقال لها: «مَنْ بَعْدَ خديجة؟». فردَّت عليه «خَوْلَة» وقالت: «عائشة بنت أحب الناس إليك». فقال: «ولكنها لا تزال صغيرة يا خولة»، فقالت: «تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج». قال: «ولكن، من للبيت يرعي شؤونه؟ ومن لبنات الرسول يخدمهن؟»، فقالت خولة: «هل لَكَ في ثيِّبٍ؟»، قال: «ومَنْ هي؟»، فأجابت: «إنها «سودة بنت زمعة» المؤمنة المهاجرة، التي فقدتْ زَوْجَها بعد الأوبة من الهجرة للحبشة، وهي مُعرضة لأن يعذبها قومها ويفتنوها، والزواج بها فيه كفالة لها، وتأليف لبني عبد شمس». فوافق النبي الكريم على الزواج منها.

ومنذ تلك اللحظة دخلت «سودة» التاريخ وتبوأت مكاناً مرموقاً تهفو إليه النفوس، وتتطلع إليه العيون.

نَسَبُ السيدة سَوْدة

هي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس، العامرية، القرشية، أول زوجة لرسول الله ﷺ بعد خديجة رضي الله عنها. وأمها الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد بن لبيد من بني النجار من الأنصار. فمن ناحية الأب قرشية عربية، ومن ناحية الأم من بني النجار أخوال الرسول ﷺ.

زواجها الأول

تزوجت سودة ابن عمها السكران بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وقد عاشت معه عيشة طيبة هنية، حتى بدأ الرسول ﷺ يدعو بدعوته، فكانت من

(١) الخَلَّة: الحاجة، أو اضطراب الشيء وعدم انتظامه.

السابقات للإسلام، وكذا زوجها، وتعرَّضا للعذاب بسبب الإسلام، فهاجرا إلى الحبشة، وكان معهما أخوها مالك بن زمعة وزوجته عمرة بنت السعدي بن وقدان، ومن أسرة زوجها أخواه سُليط وحاطب وَلَدا عمرو بن عبد شمس، وابن أخٍ لزوجها عبد اللّه بن سهيل بن عمرو، ومن النساء أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو.

وهكذا نري أن معظم الأسرة التي كانت فيها سودة قد هاجرت في سبيل الله، مضحية في سبيل العقيدة بالبُعد عن الوطن، متحمِّلة أقسي ما يكون في سبيل التمسك بالمبدأ، وفي وسط أسرة لها قَدَمُ السَّبْق في الإسلام.

رؤيا صادقة

ذكر ابن سعد في طبقاته الكبري أن السيدة «سودة بنت زمعة» وهي زوجة لابن عمها ـ السكران بن عمرو ـ قد رأت في المنام «أن النبي ﷺ أقبل يمشي حتى وطئ على عنقها. فأخبرت زوجها بذلك، فقال: لَئِنْ صَدَقَتْ رؤياك لأَمُوتَنَّ وليتزوجنَّك رسول الله ﷺ». فقالت «سودة» لزوجها: «حجراً وستراً» كأنها تنفي ذلك.

ثم رأت بعد ذلك في المنام أيضاً «أن قمراً انقضَّ عليها من السماء وهي مضطجعة»، فأخبرت زوجها بذلك فقال لها: «وأبيكِ لئن صدقتْ رؤياكِ لم ألبث إلا يسيراً حتى أموت وتتزوجين من بعدي...».

عودة إلى الوطن

وعادت الأسرة المهاجرة إلى مكة حيث الرسول الحبيب يبلغ دعوة ربه وينشر رسالة السلام والأمان، وكانت سودة متعطشة إلى لقاء الهادي الأمين، حيث يتنزل عليه الوحي من السماء وآيات القرآن البيِّنات تتنزل جلية ندية، تنير القلب، وتثبت الفؤاد، وتهدي لِلَّتي هي أَقْوَمُ. وما لبث السكران زوج سودة أن انتقل إلى جوار ربه قريرَ العين، رضيَّ النفس، لأنه مات على أرض الوطن، وقد اكتحلت عيناه برؤية رسول الله ﷺ، وترك زوجته وديعة بين إخوانه من المسلمين، وعلي رأسهم

النبي الكريم. وشعرت «سودة» بِلَوْعَة الفراق، وخافت على نفسها من قومها أن يبعدوها عن جو الإيمان وهي ليس فيها مطمع للرجال، لأنه لم يكن لها من الجمال أو الثراء نصيب، ولكن الذي لها أنها زوجة لرجل من السابقين إلى الإسلام، وأنها هاجرت إلى الحبشة ولَقِيَتْ من الأذي في سبيل العقيدة الكثير.

موافقة الرسول

عندما ذَكَرَتْ خَوْلَةُ لرسول الله ﷺ «سَوْدَةَ» وأَمْرَها، رَضِيَ بها زوجة إكراماً لمنزلة زوجها، وتطييباً لخاطرها وسابقتها للإسلام، وليعولها بعد أن ماتَ العائل، لأنه ﷺ هو القائل: «مَنْ ترك مالاً فلورثته، ومن ترك أولاداً فعليَّ وإليَّ». وهو الذي وصفه ربه بأنه: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

وذهبت «خولة» لبيت «سودة» تزف إليها البشري بهذا النبأ السعيد، وما إنْ أخبرتها بذلك حتى داخلتها رهبة من جلال هذا الزواج. إنها قاست نفسها بخديجة ذات المال والجمال، فعرفت أن الرغبة لهذا الزواج نفسية الرسول العطوف الودود، فكادت أن ترفض، ولكنها ما لبثت أن سكنت ورضيت. وبَنَي بها الرسول ﷺ في رمضان من السنة العاشرة من البعثة، ودخل عليها بمكة، وهاجرت معه إلى المدينة، ولقد أرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها في بيت رسول الله ﷺ بعد خديجة وقبل عائشة ـ رضي الله عن الجميع ـ وأنها أصبحت في بيت النبوة يُسعدها أن تري النبي ﷺ صباحاً ومساءً تخفف آلامه، وتخدم عياله، وترعى شؤونه، لأنها لو تُركت وشأنها ما تطلّع إليها إنسان. ولقد كانت رضي الله عنها طويلة اليد بالخير والتصدُّق على الفقراء، وكانت تخفف آلام المكروبين. ولقد عاشت في بيت رسول الله ﷺ حتى جاءت عائشة بنت أبي بكر زوجةً شابةً، فأفسحت لها المكان الأول في البيت، وآثرت «بإخلاص» هذه الزوجة الجديدة بالعطف والمحبة. ثم وفدت بعد ذلك إلى بيت رسول الله ﷺ زوجات أخريات اقتضت الحكمة أن يلتحقن بالبيت النبوي الكريم، وأن يَكُنَّ من أمهات المؤمنين، وقد عدل الرسول الأمين ﷺ بينهن

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

في العطاء، وقسم لكل واحدة منهن ليلة.. وظلت سودة رضي الله عنها الزوجة الأولي بعد خديجة ـ رضي الله عنها ـ على العهد بها، راضية مطمئنة، لم يظهر عليها الضيق أو التبرُّم، لأن الذي يهمها هو إرضاء رسول الله ﷺ ورضاه عنها، وكانت عواطفها نبيلة، فأفسحت مكانها، وتنازلت عن ليلتها بطيب نفس منها للسيدة عائشة رضي الله عنها، وعاشت في بيت النبوة تسعد بالقرب، وتَحظي بالعَطْف، بقولها: «والله ما بي على الأزواج مِنْ حرصٍ ولكنّي أُحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجةً للرسول ﷺ».

وذلك هو الشعور الطيب، والمَثَل العالي، حتى إذا حَجَّ الرسولُ ﷺ حَجَّةَ الوداع حجَّت معه واعتمرت، وعاشت في بيت الطُّهْر والعافية، حتى انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلي وهو عنها راضٍ.

نهاية المطاف

ظلت سيدتنا السيدة سودة رضي الله عنها قعيدة الدار، لم تبرح مكانها ولا بيتها بعد انتقال زوجها الكريم ﷺ للرفيق الأعلى، وهي تقول: «والله لا تحركني دابّة بعد رسول الله ﷺ». وظلت محل احترام الجميع ورعاية ولاة الأمور، يزورها أهل العلم والفضل، ويتردد عليها أهل التقوي والصلاة، فتزوِّدهم بما تعرف، وتروي لهم ما رأته من أفعال رسول الله ﷺ، حتى انتقلت إلى ربها في آخر زمَنِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١). ودفنت بالمدينة راضية عن حياتها، مرضية عنها من ربها، لأن الرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلي وهو عنها راضٍ. وظلت أُمّ المؤمنين عائشة تذكر لها صنيعها، وتؤثرها لجميل الوفاء فتقول: «ما مِنِ امرأة أحبُّ إليَّ من أن أكون في مِسْلاخها، من سودة بنت زمعة...»(٢).

تلك نبذة قصيرة عن سيدتنا «سَوْدة» رضي الله عنها، فسلام عليها في الأولين

(١) وهذا على الأرجح.. ويذكر الواقدى أنها توفيت فى سنة ٥٤ من الهجرة فى خلافة معاوية.

(٢) انظر: نساء النبى للدكتورة عائشة بنت الشاطئ، ص ٧٣.

والآخرين، ورضوان الله على جميع أمهات المؤمنين، اللائي قال الله فيهن: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[1]

الصديقة بنت الصديق
عائشة بنت أبي بكر
(رضي الله عنهما)

لم يكن النبي ﷺ يفكر في الزواج في حياة السيدة خديجة رضي الله عنها زوجته الأولى، وأول مَنْ آمن به، وشدَّتْ من أَزْره، وشجَّعته على تلقي الدعوة. ولما توفيت في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين حزن الرسول ﷺ لفقدها حزناً شديداً، وسمّي العام الذي توفيت فيه عام الحزن. وكان النبي ﷺ يتردد على بيت صاحبه الوفي وصديقه المخلص أبي بكر رضي الله عنه، وكان في حالة نفسية يسودها الحزن على وفاة خديجة، وكان يَرَي السيدة عائشة رضي الله عنها طفلة صغيرة، وكان يداعبها مداعبة الأب لابنته، ولم يكن يدور بخلده أنه سيتزوجها، حتى أقبلت عليه خولة بنت حكيم وقالت: يا رسول الله، كأني أراك قد دخلت عليك خلة لفقد خديجة! فأجاب: «نعم، كانت ربة البيت، وأم العيال». فاقترحت عليه أن يتزوج، واختارت له سَوْدَة بنت زَمْعَة، امرأةً لها تجربة سابقة في الزواج وتستطيع رعاية البيت، وأخرى بِكْراً وهي عائشة، بنت ألصق الناس به، وأحبهم إليه. فوافق النبي ﷺ على ذلك. وذهبت خولة إلى منزل الصِّدِّيق لتقوم بدور الخاطبة.

نسب السيدة عائشة

عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لُؤَيّ، من أفخاذ قريش، وكان أبو بكر يسمي عتيقاً لأن أُمَّه

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣١.

لم يكن يعيش لها أولادٌ، فنذرت إنْ عاش لها ابن تسميه «عتيقاً»، أي: الذي أُعتق من الموت. وقيل: سُمِّيَ عتيقاً لأن الرسول ﷺ قال له عندما أسلم: «أنتَ عتيقٌ من النار». وكان يُسَمَّي في الجاهلية «عبد الكعبة»، فسماه الرسول ﷺ «عبد اللّه».

وقبيلة أبي بكر تتصف بالشجاعة والكرم والوفاء، والذود عن الكرامة. وكانوا يشتغلون بالتجارة. وعُرف أبو بكر قبل الإسلام بصِدْق الكلمة، وحُسن المعاملة، وقد احتل منزلة طيبة في نفوس العرب، لأنه كان سهلاً في معاملته، كريماً في خُلُقه، كما كان على علمٍ بأيام العرب، وكان أنسبَ قُريشٍ[1]، ولذا كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لحُسْن مجالسته.

أمَّا أُمها: فهي «أم رومان» وكانت تسمي «زينب»، وكانت متزوجة قبل أبي بكر من عبد اللّه بن الحارث صديق أبي بكر، وقد توفي عنها وتزوجها أبو بكر، فولدت له عبد الرحمٰن وعائشة. أسلمت أم رومان عندما دعاها زوجها أبو بكر إلى الإسلام وكانت صالحة تقية ذكية قال عنها رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان». ولقد ذكرتُ ذلك ليكون القارئ الكريم على بَيِّنَة بأن البيئة التي نشأت فيها السيدة عائشة رضي الله عنها بيئة صالحة طيبة، كما أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، يقول عنه الرسول ﷺ: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه كبوة ونَظَر وتردّد، إلا ما كان من أبي بكر رضي الله عنه حينما ذكرتُه له ما تردَّدَ فيه». كما أنه تحمَّلَ الكثير من أجل عطفه على المسلمين، وخاصة الضعفاء منهم، ولقد آثر البقاء بجوار الرسول ﷺ عندما هاجر المسلمون الأُوَلُ إلى الحبشة، وكان أنيسَ المصطفي في الغار، وفيه يقول الرسول ﷺ: «ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر»، فبكي أبو بكر وقال: «يا رسول الله، هل أنا ومالي إلا لك»!.

مولدها

ولدت السيدة عائشة رضي الله عنها في السنة الخامسة من النبوة، وتربت في

(١) أى: أعْلَمُ قريش بالأنساب.

بني مخزوم على حسب العادة في الجزيرة العربية، فنشأت فصيحة اللسان، قوية البيان، تحفظ كثيراً من أشعار العرب، وقد أكسبتها حياة البادية كثيراً من صفات الشجاعة والمروءة والجرأة. وقد أسلمت هي وأختها أسماء وهما صغيرتان، وكان رسول الله ﷺ يوصي أُمَّها بها إذا ذهب إلى بيت صديقه قائلاً: «**يا أم رومان استَوْصِي بعائشة خيراً واحفظيني فيها**». وكان ذلك يُعلي شأنها في منزل أبيها. ولقد دخل مرة دار أبي بكر فوجد عائشة تبكي بكاءً شديداً وهي عند الباب مستترة، فسألها عن سبب بكائها، فشكت له، فدمعت عينا الرسول ﷺ ودخل على أم رومان وقال لها: «**يا أم رومان، ألم أُوصيك بعائشة أن تحفظيني فيها؟**» فقالت: «يا رسول الله، إنها بلَّغت الصديق عني وأغضبته علينا، فقال النبي ﷺ: «**وإن فَعَلَتْ**» قالت أم رومان: «لا جَرَمَ لا سَوَّءتها».

كانت عائشة قد خطبت لجبير بن مطعم بن عدي، ولم يكن قد أسلم، ولكنَّ أبا بكر بقي على عهده له، فلما جاءت خولة خاطبة لعائشة لم يشأ أبو بكر أن يعطي كلمة حتى ينظر في وعده، فتوجه إلى بيت المطعم بن عدي، فقالت أم جبير ـ وكانت مشركة ـ يا ابن أبي قحافة لعلنا إنْ زوَّجنا ابننا ابنتك تدعوه للدخول في دينك وتُصبئه. فالتفت أبو بكر إلى المطعم، فكأنه أَمَنَّ على كلام زوجته، فانصرف أبو بكر وهو يشعر بارتياح لتحلله من وعده، وذهب إلى منزله وقال لخولة: اذهبي فادْعِي رسول الله ﷺ.

رؤيا صادقة

المعروف من مجريات الأحداث أن علاقة الرسول بعائشة علاقة أب بابنته، ولم يفكر في الزواج بها حتى اقترحت عليه «خولة» ذلك. وعائشة برغم صغر سنها فيها ذكاء ونباهة، وكان الرسول يعجب بها، ويري فيها ما يلائم طبعه، وخاصة أنَّ أباها هو الصديق الكريم الذي أدَّبها فأحسن تأديبها. وقصد بهذا الزواج أن يكرم المسلم الأول، وأن تكون هناك علاقة النسب، ليتم الترابط والتراحم بين النبي الكريم وأبي بكر الصديق. وكانت هناك إرادة إلٰهية نتبين معناها فيما رُوِيَ عن

رسول الله ﷺ: «أن جبريل أتاه بصورتها في خِرْقَة من حرير خضراء قائلاً له: إنها زوجتك في الدنيا والآخرة». وكانت عائشة تُرَدِّدُ دائماً أن رسول الله ﷺ قال لها: «أُرِيتُكِ في المنام مرتين، أرَي رجلاً يحملك في خِرْقة من حرير فيقول هذه امرأتك، فأكشفُ عنها فإذا هي أنْتِ، فأقول: إنْ يَكُ هذا من الله يُمْضِهِ». كما أن جبريل قال له: «يا رسول الله، هذه تذهب بعض حُزنك، وإنَّ في هذه خلفاً عن خديجة».

وتمت الخطبة

عادت خولة لرسول الله ﷺ تدعوه ليذهب إلى بيت أبي بكر ليخطب عائشة التي كانت سنها سِتَّ سنوات، وكان ذلك جائزاً، خاصة أن السيدة عائشة كانت مخطوبة لجبير بن مطعم. وتمت الخطبة، ولم يُساوم أبو بكر بمهرِ ابنته، بل إنه اكتفي بالشرف الذي ناله بهذه المصاهرة الطيبة فخوراً راضياً مبتهجاً، وكان الصَّداق خمسمائة درهم. واستمرت الخطبة حتى هاجر الرسول ﷺ وبني بها بعد الهجرة بثمانية أشهر، وكانت تبلغ من العمر تسع سنين، وكانت هي الأولي والأخيرة التي تزوجها الرسول ﷺ بكراً. وكان يوم بناء الرسول ﷺ بعائشة بسيطاً هادئاً، ليس فيه من الشكايات شيء. وكان كل شيء ينطوي على الرضا والتفاهم والوئام، ولم يتوافر للعروسين من الطعام غير حفنة أرسل بها سعد بن عبادة وقدح من لبن.

أثاث المنزل

كان أثاث البيت الذي تم فيه بناء الرسول ﷺ بالسيدة عائشة غاية في البساطة، تقول السيدة عائشة: إنه لم يكن لديهما إلا فراش واحد: وسادة من أَدُم[1] محشوة ليفاً، وليس بينها وبين الأرض إلاَّ الحصير. ولقد دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ذات مرَّة وذرفت عيناه الدُّمُوعَ حينما رأي الحصيرَ قد أثَّر في جنب الرسول فقال: يا رسول الله، كسري وقيصر عَدُوَّا الله

(١) الأَدُم: الجلد.

يفرشان الديباج والحرير وأنت نبيه وصفِيُّه وليس بينك وبين الأرض إلا وسادة محشوة ليفاً فقال رسول الله ﷺ: «أولئك عُجِّلَتْ لهم طيباتهم». وكانت الحجرة مبنية من اللِّبْن ومسقفة بسعف النخيل.

ولقد كان باب هذه الحجرة يطل على المسجد. وبيتٌ هذا أثاثه وذلك بناؤه لم يكن طعام ساكنيه يختلف عنهما في بساطته. تقول السيدة عائشة: «إنه كان ليمر هلال وهلال وهلال، ثلاثة أهِلَّة، ولم يوقد في البيت نار». وتقول: «كان يأتي على آل محمد الشهر ما يختبزون خبزاً، ولا يطبخون قدراً». ولكن كان يعمُر هذا البيت ما يخلعه النبي على من فيه من بشاشة وإيناس، كان الوحي ينزل من السماء، وتُتلي آيات القرآن، وجبريل يظهر للمصطفي في هذا البيت المتواضع البناء، والشامخ بما يتردد في جنباته من آيات السماء.

وعاشت السيدة عائشة حياة الزوجية التي دامت حوالي تسع سنين وطوال هذه المدة تتمتع بحب النبي الكريم الذي أحلَّها منزلة تليق بصداقة أبيها وقُرب منزلته، وخلع عليها بعض الكنى، فكان يناديها بقوله: «يا عائشُ»، وأحياناً: «أمّ عبد اللّه»، ومرة أخرى: «بالشَّقْراء أو الحَمْراء». وكانت تدعي «الصادقة» أو «الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق»، أو «حبيبة رسول الله»، أو «حبيبة حبيب الله»، وكل ذلك يدلنا على قُربها من قلب رسول الله ﷺ. وقد سألَ عمرو بن العاص الرسولَ ﷺ وقال له: مَنْ أحَبُّ الناس إليكَ؟ قال: «عائشة». قال: إنما أقول مِنَ الرجال؟ قال: «أبوها». لذا كان الرسول ﷺ يُشاركها اللعب إذا سمح وقته، وأحياناً يستتر بثوبه ويتركها تلعب بالبنات «عرائس تصنع من العهن». ولم يُرِدْ الرسول ﷺ أن يحرمها منظراً تصبو إليه نفسها حين كانت معه تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في يوم العيد. لقد كان الرسول ﷺ حريصاً على راحتها، إذا دخل عليها وهي نائمة خرج بهدوء. وكانت شخصية أبي بكر تتجلي في عائشة أمام الرسول، فكان يحبها لذاتها ولصلتها بأبي بكر، وكان يحبها حبًّا ممزوجاً بالثقة، وكانت هي تحاول خَلْقَ جوٍّ مرحٍ ترتاح فيه نفسية الرسول لتزيل عنه متاعب الحياة.

العالِمَة الرَّاوِيَة، والفقيهة المحدِّثة

لقد كانت السيدة عائشة فقيهة عالمة أديبة لبيبة ذكية، تُعَدُّ من أئمة الحديث، فقد بلغ ما روته من حديث (٢٢١٠) أحاديث، كما أنها كانت فقيهة تُسْأل في كثير من الأشياء التي تتعلق بالفرائض، كما أنها كانت فصيحة اللسان، قوية الحجة، تعبر عن أفكارها بأسلوب متين، وكثيراً ما كانت تتمثل بالشعر الجيد، ولها علم ودراسة بأخبار العرب الماضية وأنسابهم، وكان لها إلمام بعلم الفلك والطب، ولا غرابة في ذلك، فهي مَنْ هي حسباً ونسباً. يقول عنها عطاء بن أبي رباح: «كانت أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة». وقال عروة: «ما رأيت أحداً أعلم بفقهٍ ولا بشعرٍ ولا بطبٍّ من عائشة». كما أنها كانت تقوم بتوجيه النصح للنساء، وقد تحملت مسؤوليتها كاملة كأم للمؤمنين وزوجة نبي قائد يهدي للحق ويوجِّه للخير، وكثيراً ما تدخلت لفض النزاع بين المتخاصمين، وكانت تسأل عن أخص خصائص المرأة فتعطي الفتوي بما يتفق وتعاليم الدين. وهكذا نجد تغلغل السيدة عائشة في جميع نواحي الحياة العامة التي تتطلب مساهمة إيجابية من زوجة المصلح الكريم.

إشاعة كاذبة

ولما كانت هذه مكانة السيدة عائشة ومنزلتها في بيت الرسول وفي المجتمع أراد ضعاف الإيمان من المنافقين أن ينالوا من مكانتها ويحطموا شخصيتها، فأشاعوا عنها كذباً وافتراءً «حديث الإفك»، واتهموها بصفوان بن المُعَطَّل السلمي رضي الله عنه. وذلك عندما خرجت السيدة عائشة مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المُصْطِلِق، وشاءت إرادة الله تعالى أن يتحرك الرَّكْبُ قبل الفجر والسيدة عائشة تقضي حاجتها، فلما عادت لم تجد الركب فبقيت وحدها وسط الصحراء حتى جاء الصحابي الجليل «صفوان» وكان بمؤخرة الجيش، فاحتملها على بعيره دون أن ينظر إليها، وكانت ملفوفة في سَوادٍ، وسألها عن سبب تخلُّفها، فما كلَّمته، فَقَرَّبَ البعير وتأَخَّر عنه وقال: «اركبي يرحمك الله». ووصلت المدينة في وَضَح النهار،

فأشاع المنافقون «حديثَ الإفك» لينالوا من شخصيتها، وليعملوا قدر جهدهم على خَلْق جوٍّ يفسد على الداعي دعوته لينفضَّ من حوله الجميع، وينالوا بذلك مأربهم، والذي تَوَلَّي ذلك وأشاعه هو عبد اللَّه بن أُبَيٍّ بن سَلُول، الذي امتلأ قلبه بالحقد والكراهية للنبي الكريم، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1].

وكان حديث الإفك سحابة مليئة بالغيوم في حياة السيدة عائشة وزوجها ﷺ، ولم تلبث أن انقشعت بوحيٍ من الله، ونزل في ذلك آيات بيِّنات تظهر براءة أم المؤمنين مِمَّا تَقَوَّلَ عليها المتقوِّلون، وهي التي اتصفت طوال حياتها بالطُّهْر والعفاف، ولذا تقول لها «أم رومان»: «أي: بُنَيَّة، خَفِّفِي عليكِ الشأن، فوالله لقلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كَثَّرْنَ وكَثَّر الناس عليها». ولقد كانت السيدة عائشة أيام حديث الإفك مريضة في منزل والدها، فلما نزلت آيات السماء تعلن عفافها ونقاء حياتها، وتبعد عنها ما تكلَّم به أهل الإفك والبهتان، عادت إلى بيت الرسول ﷺ تحفُّ بها آيات النور، واحتلت مكانتها الأولي في بيت الرسول ﷺ الذي يقول: «لا تُؤْذُوني في عائشة».

وعاشت عائشة تشهد أمجاد الرسول الذي يؤسس أُمَّةً على العدل والتقوى، وهو يغزو وينتصر لينشر نور الله في الأرض، حتى حانت اللحظات الأخيرة من حياة البطل المنتصر، فاستأذنَ نِساءَهُ أنْ يُمَرَّضَ في بيت عائشة، التي سهرت عليه تُمرضه وترعاه، وكانت تود لو تفتديه بالروح ليحيا بين أُمَّتِه مصدر خير ومهبط للبركات، حتى قُبِضَ رسولُ الله ﷺ في بيتها وحجرها، وبين سَحْرِها[2] ونحرها. ودُفن ﷺ حيث قُبِضَ، وتولي أبوها الخلافة من بعده بتوجيه النبي الكريم، وكان لأبيها من الشخصية الفذة ما حالَ بينها وبين التدخل في الشؤون السياسية، وكذا في عهد عمر بن الخطاب، حتى تولي عثمان بن عفان الخلافة، وهو الذي تَحْمِلُ له الاحترام والتقدير، لأنه تزوج بابنتي رسول الله ﷺ، وبعد سنتين من خلافته كان قد قَرَّبَ الأمويين وقَدَّمَهم على غيرهم، وأهمل غير الأمويين، مِمَّا سَبَّبَ خروج الناس

(١) سورة النور، الآية ١١.
(٢) السَّحْر: كل ما تعلَّق بالحلقوم من قلب ورئة.

عليه، وتأججت ثورة ضده، وزَحَفَ على المدينة بعضُ الثائرين من البصرة والكوفة ومصر، وقُتِلَ عثمان، فخاضت السيدة عائشة غمار الحياة السياسية، وحضرت بعض المواقع الحربية، وكان يشد من أزرها طلحة والزبير.

وفاتها

كانت السيدة عائشة رضي الله عنها ذات شرف ونسب، وضَّاءة الجبين، معتدلة القوام، تتصف بالاحتشام والوقار، وكانت ترغب في لبس الطريف، وتوجِّه النصح للنساء للعناية بأنفسهن.

وكانت رضي الله عنها تقية ورعة، تصلي وتصوم وتحج وتعتمر، وتُحسن إلى الفقراء، وتترفع عن شهوات الدنيا، ولقد رُوي أنها تصدقت بسبعين ألف درهم في يوم واحدٍ، وشاءت إرادة الله أن ينتابها مرض في آخر أيامها، وزارها أكابر الصحابة، ومن بينهم ابن عباس رضي الله عنهما، الذي دَخَلَ عليها معزِيًّا إياها بحب الرسول لها، وبنزول آية التيمم بسببها، وسورة النور التي برَّأتها من فوق سبع سمٰوات، ولكنها ما لبثت أن توفيت ولها من العمر ستة وستون عاماً، وكانت وفاتها يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٨ هـ، وصلي عليها أبو هريرة رضي الله عنه في البقيع ليلاً، ولقد اشتد حزن الناس عليها، لأنها كانت مرشدة كريمة، موجِّهة أمينة، وناصحة فاضلة، وزوجة لأحب خَلْقِ الله. وبموتها طُوِيَتْ صفحة زاخرة مليئة بالحوادث، تتحدث عنها الأجيال، ويستوحي من حياتها معاني الاعتزاز بالنفس. رضي الله عنكِ يا أم المؤمنين، وسلامٌ عليكِ في الأولِّين والآخرين.

حفصة بنت عمر بن الخطاب

مرت الأيام بالمسلمين وهم يعيشون في المدينة حول نبيِّهم الكريم، وقد كَلَّل الله مساعيهم بالنصر في غزوة بدر الكبرى، ونصرهم على أعدائهم ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾[1]. وكان المسلمون وهم يلتفُّون حول نبيهم ويتلقون منه ما يتنزل

(١) سورة الأنفال، الآية ٨.

عليه من تعاليم السماء تغمرهم السعادة، ويسعون في الأرض بجَلْب الرزق، ورفع راية السلام. وبينما الحياةُ تمشي بهذا النسق العجيب استيقظ الناس ذات صباح على صوت الناعي ينعي مسلماً كريماً من أبطال المسلمين، هاجَرَ الهجرتين: هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد مع رسول الله ﷺ بدراً دفاعاً عن عقيدته إنه «خُنيس بن حذافة السهمي» زوج السيدة حفصة بنت عمر، التي دخلت التاريخ بعد ذلك الحادث وأصبحت من أمهات المؤمنين، ولها في الإسلام منزلة وذِكر، حيث يقول الله سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[1]. فمن هي حفصة؟

نسبها

أبوها هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العُزَّى، وينتسب إلى لؤيّ، وهو قرشي كريم، وعربي أصيل، وفارس مغوار، له في التاريخ ذكر كريم، حيث تولي الخلافة بعد أبي بكر، وسادَ العَدْلُ في أيامه، وأَمِنَتِ الرعِيَّة، واطمأنَّ الفرد إلى حقه، وهو الذي أسس دولة الإسلام ورفع راية القرآن، وكان الرسول ﷺ يدعو الله في بدء الدعوة أن يعز الإسلام بأحد العمرين، فكان عمر رضي الله عنه دعوة رسول الله ﷺ، وبه أعزّ الله الإسلام.

أمَّا أُمُّها فهي زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب، وهي عربية أصيلة، وأمها أخت عثمان بن مظعون، وهو من السابقين الأوائل في الإسلام.

مولدها

وُلدت رضي الله عنها وقريش تبني البيت الحرام ـ بمكة ـ قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين، ونشأت وترعرعت في هذا الجو الذي أراد الله تبارك وتعالى فيه الهداية للإنسانية، ولقد اهتم بها أبوها فرعاها حق الرعاية، وعاشت عزيزة كريمة

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

في بيته، يوجِّهها الوجهة الصحيحة، ويربِّيها على مكارم الأخلاق، خاصة أن الإسلام قد غَيَّرَ طباع العرب الذين كانوا يتألمون بمولد البنات، فغيَّر الإسلام النظرة إلى المرأة وأعطاها حق الحياة العزيزة وكرَّمَها، نزل في ذلك القرآن يقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[1].

ومن هنا عاشت حفصة وهي تري أباها في بدء الإسلام وهو يعاديه ويصد عنه، ثم إذا به فجأة يتغيَّر حاله ويعلن إسلامه، ويغير من اتجاهه، وبذلك يتغير وضع المسلمين الاجتماعي، ويُكَبِّرُونَ تكبيراً من فرحهم بإسلام عمر تهتز له أركان مكة. ومنذ إسلامه أَلْقَي الرعب في قلوب المشركين، وحَمَي المسلمين من الأذي والظلم، ووقف يُدافع بقوته وشجاعته، لأنه كان صادقاً في إسلامه، عظيماً في تفكيره، ولذا اتخذه الرسول إلى جانب أبي بكر مرافقاً ووزيراً. ودخلت سيدتنا السيدة حفصة الإسلام، وهاجرت لتكون قريبة من أبيها، وعلي مرأي من مهبط الوحي، حيث تتنزل آيات السماء ندية جلية، تبيِّن للناس أَمْرَ دينهم، وتربطهم بخالق الكون العظيم.

زواجها

لقد كان يسرُّ عمر بن الخطاب أن يري ابنته زوجةً سعيدة في بيتها، ليؤمِّن بذلك حياتها، ولتهنأ دنياها، ولتكون تحت رجل يرعي أمرها، ويدبر شأنها، وتلك سُنَّة الله في خَلْقه، لتنتظم الإنسانية، ولتسير الحياة في مَجْراها المُحَدَّد لها في القدر السابق في علم الله. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ ﴾[2].

وقد كان «خنيس بن حذافة السهميّ» من أوائل المسلمين الذين دخلوا الإسلامَ في أول أيامه، وذلك عندما بَشَّرَ به الرسولُ ودعا إليه، قبل دخوله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، التي تُعَدُّ بحق المدرسة الأولى التي خَرَّجَتِ الأبطالَ، وقادةَ

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآية ١.

الفكر، وهُداةَ الإنسانيةِ. ونال «خنيس» من الأذى ما نال أي مسلم دخل في الإسلام، واحتمل وصبر ابتغاء مرضاة الله، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، ورضي عمر بن الخطاب بهذا المسلم الكريم زوجاً لابنته، لأن الإنسان عندما يتخير لابنته يتخير لها الكفء من الرجال، ثم رجع «خنيس» من هجرة الحبشة وهاجر إلى المدينة مع المسلمين المهاجرين، وعاش «خنيس» بجوار زوجته الوفية البارَّة، التقية النقية، يرعي أمرها حتى انتقل إلى ربه، بعد أن شهد بدراً ورأى انتصار المسلمين أصحاب العقيدة الثابتة على الكافرين المشركين، وقد انتقل إلى ربه بعد الهجرة بخمسة وعشرين شهراً، وصلَّي عليه النبي ﷺ ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر عثمان بن مظعون، وهو خال حفصة، والذي كان يعزه، لأن الإسلام جمع بينهما وقد التقيا على مرضاة الله وطاعته[1]. وما إن دُفِن «خنيس بن حذافة» زوج حفصة حتى حزن «عمر بن الخطاب» حزناً شديداً، لأن حفصة ما تزال في ريعان الشباب، حيث إنها لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها. وبدأ الترمُّل يغتال شبابها، ويمتص حيويتها، ويخنق صباها، فرأي عمر بن الخطاب بعد تفكير طويل أن يختار لها زوجاً كريماً تأنس لصحبته، بعد أن ضاعت في الحِداد على زوجها ستة أشهر أو تزيد.

العَرْض

في الوقت الذي توفي فيه زوج حفصة كانت رُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ هي الأخرى قد انتقلت إلى جوار ربها، وتركت من ورائها عثمان بن عفان الزوج الكريم، والصحابي الجليل.

فرأي عمر بثاقب فكره أن يعرض ابنته على عثمان، وهو من المشهود لهم بالخُلُق الكريم، والمعاشرة الطيبة، فذهب عمر وعرض ابنته على عثمان ـ الذي كان حزيناً على زوجته ـ ولكنه لم يُجِبْه بما يُحقق أمنية عمر، لأنه كان حزيناً على زوجته، وكان يتمني الزواج من أختها أم كلثوم لينال بذلك الشرف الرفيع

(١) انظر: «طبقات ابن سعد»، ج ٣، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

والمصاهرة الكريمة للنبي العظيم. وبدأ عمر يستعرض في ذهنه الكثير من شباب المهاجرين والأنصار ليتخير من بينهم شخصاً فيه كفاءة حتى يزوِّجه ابنته، ووقف أمام صاحبه أبي بكر، وذَهَبَ عمرُ يعرضها عليه، ولكنَّ أبا بكر سكت ولم يردّ، فآلمَ ذلك عمر، وذهب إلى الرسول ﷺ يشكو له من صاحبيه ـ عثمان وأبي بكر ـ لأنهما لم يحققا رغبته، وهنا يبتسم الرسول ﷺ ويقول لعمر: «**يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة**». وتأخذ المفاجأة بعمر، وتشرق في خاطره لمحة مضيئة، فمن هو خير من عثمان؟ إنه نبي الأمة وهاديها الذي يجد الإنسان بجواره الراحة، وفي رؤيته الهدوء إنه رسول الله ﷺ. وخرج عمر مسرعاً فلقيه أبو بكر ولمح عليه أسارير الفرح والابتهاج، فمد يده إليه مصافحاً مهنئاً وهو يعتذر في لطف ويقول: «لا تَجِدْ عليَّ[1] يا عمر، فإن رسول الله ﷺ ذَكَرَ حفصةَ، فلم أكن لأُفشِي سِرَّ رسول الله ﷺ، لو تركها لتزوجتها».

الزواج الكريم

كان البيت النبوي يضم بين جنباته السيدة «سَوْدَة» والسيدة «عائشة» رضي الله عنهما، وكانت الحياة تمشي بهما رتيبة هادئة ولقد علمت المدينة بخبر هذه المصاهرة التي قصد منها توثيق الصداقة وتتويج الأخوّة، وزيادة الرعاية لعمر بن الخطاب، كما حدث ذلك من قبل لأبي بكر الصِّدِّيق عندما تزوج الرسول بعائشة، وباركت المدينة هذا الزواج، وأصبحت سيدتنا السيدة حفصة الزوجة الثالثة لسيدنا رسول الله ﷺ بعد «سودة بنت زمعة» و«عائشة بنت أبي بكر»، ولقد أسعدَ هذا عمر بن الخطاب، ولم يعد صاحبَ رسول الله ﷺ فحسب، بل أصبح صاحبه وصهره، وعَلاَ بهذا قدره في المجتمع الإسلامي، وانتقلت حفصة إلى بيت الرسول ﷺ، وكانت تتمتع بحظ كبير من الجمال والذكاء، وهي على جانب كبير من التقوي والورع، وأخذت تشهد بنفسها عن قرب مجريات الأمور في البيت النبوي، وتلحظ البطل الكريم وهو يتحمل في صبر وجَلَد مشقة الدعوة، ويجادل

(١) لا تجدْ عليَّ: لا تغضب مني.

قومه بالتي هي أحسن، ويجهز الجيوش لتغزو في سبيل الله، وتلحظ آثار الانتصار الذي يعود به القائد الملهم من غزواته.

ولقد وفد بعد ذلك على البيت النبوي نساءٌ أُخريات اقتضت الحكمة أن يَدْخُلْنَ البيت النبوي، وكانت هي بحُكْم وضعها الاجتماعي قريبة من قلب السيدة عائشة، فتعاطفتا وتصادقتا، وظهرت بينهما مَوَدَّةٌ وأُخُوَّةٌ، وكان عمر يسرُّه ذلك ويُعجبه أن تكون ابنته على صفاء مع السيدة عائشة، وهي الحبيبة إلى قلب رسول الله ﷺ، والقريبة منه قرب منزلة أبيها من الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان زواج الرسول ﷺ بها سنة ثلاث من الهجرة.

المظاهرة

كان رسول الله ﷺ يخرج من غزوة ويدخل أخرى وهو ينتصر، ويُساق إليه الخير، وتُجْبَى إليه الأموال، فظن نساء النبي ﷺ أن الدنيا أصبحت تحت يديه، وأنه في استطاعته أن يُغَيِّرَ من وضعهن ويأتي لهن بالحرير والديباج، والذهب والفضة، ويبني لهن القصور، ولذا رُحْنَ يتحدثن في ذلك، ويتصورن أن المستقبل سيكون مشرقاً لهن من ناحية الملبس والمسكن، ونظراً لقرب حفصة وعائشة راحتا تتحدثان مع بقية أمهات المؤمنين وتسألانهن أن يتجمعن في صفٍّ واحد يسألنه النفقة والإغداق عليهن بلا حساب، وذهبت أمهات المؤمنين إلى النبي الكريم وتكلمن، وأصغي طويلاً لمطالبهن، ثم سكت، وهنا دخل أبو بكر وعمر وأخذتهما دهشة لما رأيا مطالبة نساء النبي ﷺ بالنفقة، وخاصة أن حفصة وعائشة هما المحرِّضتان على ذلك، وقد أغلظ كُلٌّ منهما لابنته القول وبعد أيام شاع في المدينة أن رسول الله ﷺ طَلَّق نساءه، وبدأ نوع من الذعر يقض مضاجع المسلمين، لأنه لو حدث هذا ستكون سابقة خطيرة في الحياة الإسلامية ربما تؤدي بالمجتمع إلى الانهيار، ولذا خرج عمر مسرعاً إلى بيت ابنته، وفعل ذلك أبو بكر هو الآخر، وكل منهما يردد: ما يعبأ الله بنا بعد اليوم.

وأسرع عمر إلى رسول الله ﷺ فوجده قد اعتزل نساءه، وهناك نوع من الكآبة

يخيم على البيت النبوي، وأمهات المؤمنين في حالة بكاء، ولَمَّا دخل عمر على رسول الله ﷺ قال له: «يا عمر، إنَّ لنا الآخرة والذين يتنعمون لهم الدنيا» . ولقد اعتزل الرسول ﷺ نساءه شهراً، وفي الشهر نَزَلَ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾(١).

وما إنْ نزل هذا التعبير الإلٰهي حتى تراجعت حفصة، وكذا عائشة، واستغفرت أمهات المؤمنين، ورضي الكل بالله ورسوله، وعاد الصفاء إلى البيت النبوي، وسارت الأمور في مسارها الطبيعي.

عودة إلى الحِلِّ

أرسل المقوقس إلى رسول الله ﷺ طبيباً وجارية ردًّا على الرسالة التي بعث بها الرسول عليه الصلاة والسلام، فَرَدَّ الطبيبَ وقَبِلَ الجارية، وهي «مارية القبطية»، التي رفعها إلى مصافّ أُمِّ ولده بعد أن أنجبت ابنه إبراهيم. وكانت له حليلة بمِلْكِ اليمين، وقد جاء في كتاب السّمط الثمين: أن حفصة خرجت من بيتها فبعث رسول الله ﷺ إلى جاريته فجاءت في بيت حفصة رضي الله عنها، فدخلت عليه حفصة وهي معه في بيتها، فقالت: يا رسول الله، في بيتي وفي يومي وعلي فراشي؟ فقال رسول الله ﷺ: «اسكُتي، فَلَكِ الله عليَّ لا أقربها أبداً، ولا تذكريه». فذهبت حفصة فأخبرت عائشة رضي الله عنها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾(٢).

ثم وَضَّحَ الحقُّ سبحانه نبأ هذه القصة فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ يعني حفصة ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي أخبرت عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) سورة التحريم، الآيتان ١ ـ ٢.

وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ يعني حفصة، لما أخبره الله، قالت حفصة: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ قال: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾[1] إلى آخر ما ورد في سياق هذه القصة التي خرجت من الحيز الخاص برسول الله ﷺ، فلم يعد له وحده تَحِلَّة أيمانه بل صار رخصة للمسلمين جميعاً. وقد أُشيع في المدينة أن الرسول طَلَّق حفصة، وذهب عمر مسرعاً ينتابه نوع من الفزع إلى بيت ابنته ويسألها في إشفاق: هل طَلَّقكِ رسول الله ﷺ؟ ولم تستطع أن ترد بجوابٍ، وكانت تبكي، وذهب عمر إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن طلَّقت نساءك فإنَّ الله معكَ وجبريل وصالح المؤمنين. ونزل قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾[2].

وقد رُوي أن عمر بن الخطاب حَثّي على رأسه التراب عندما بلغه هذا الخبر، وقد نزل جبريل وقال للنبي ﷺ: الله يأمرك أن تُراجع حفصة بنت عمر رحمة لعمر. وفي رواية أخرى: راجِعْ حفصةَ فإنها صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وإنها زوجتك في الجنة. وقد راجَعَها الرسول وعاشت معه.

نهاية سعيدة

عاشت السيدة حفصة وهي تشهد أمجاد المسلمين، ورأت بعينها الرسول ﷺ وروحه تصعد إلى الرفيق الأعلى، وأصبح أبو بكر هو الخليفة من بعده. وقامت حرب طاحنة تسمي بحرب الرِّدَّة، وقُتِلَ فيها كثير من حَفَظَةِ القرآن، وأشار عمر على أبي بكر بجمع القرآن، لأنه كان في الصدور محفوظاً، وخوفاً من قَتْل القرَّاء فلا بد من جمعه. واقتنع أبو بكر برأي عمر، وجمع العديدَ من الحَفَظَةِ، وعهد إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي بجمع القرآن ومراجعته مع الحَفَظَة، وتمَّ ذلك. وجُمِعَ في مصحف واحد وأُودِعَ في بيته طيلة خلافته، فلما انتقل إلى ربه وتولي عمر الخلافة انتقل المصحف إليه، فقام بدوره وأودعه عند أم المؤمنين حفصة. وعاشت

---

(١) سورة التحريم، الآية ٣.

(٢) سورة التحريم، الآية ٥.

أم المؤمنين حفصة تري نجم المسلمين يعلو وشمسهم تشرق بقيادة أبيها الذي كانت نهايته غدراً بيد «أبي لؤلؤة» المجوسي، وانتقل إلى ربه، وبكت حفصة أباها كما بكت من قبل على زوجها الحبيب، وكانت رقعة العالم الإسلامي قد اتسعت، وامتد العمران، وعظم شأن المسلمين، وتعددت اللهجات، واختلطت الألسنة، فرأي عثمان بن عفان الخليفة أن ينسخ من المصحف الموجود عند حفصة مصاحف تُوَزَّعُ على الأقطار، وبقي المصحف في حيازة حفصة، حتى إذا تشعبت الأمور وظهرت بوادر الفتن في الأفق لَزِمَتْ أم المؤمنين حفصة بيتها، وعكفت على عبادة ربها وهي محل ثقة الجميع.

ولقد شهدت أم المؤمنين حفصة خلافةَ معاوية، حتى إذا كان عام ٤٥ في شهر شعبان لقيت ربها وهي ابنة ستين سنة، وصلَّي عليها أبو هريرة رضي الله عنه، ونزل في قبرها عبد اللّه وعاصم ابنا عمر.. وهكذا طُوِيَتْ صفحةٌ طيبة طاهرة نقية، والتقت مع زوجها الكريم وأبيها العظيم في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِر. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[1].

سلامٌ عليكِ يا أم المؤمنين في الأولين والآخرين.

هند بنت أبي أمية

«أم سلمة المخزومية» رضي الله عنها

لقد كان رسول الله ﷺ من أَوْفَى الناس لأصحابه في حياتهم وبعد مماتهم، فقد كان يتفقدهم، يسأل عن غائبهم، ويعود مريضهم، ويشيِّع من مات منهم إلى مثواه الأخير، ويزورهم في قبورهم يترحَّم عليهم ويستغفر الله لهم. كما كان يسأل عن أولادهم ويعطف عليهم، ويعطيهم من قلبه الكبير ما يجعلهم يشعرون بالدفء

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

والأمن، وكَأَنَّ أباهم بينهم وأكثر. وشمائل الرسول ﷺ في ذلك كثيرة.

وأمام أعيننا صورة لهذا الوفاء النادر الوجود الذي تحلّي به نبي الله عليه أفضل الصلاة والسلام، ذلكم هو زواجه ﷺ من هند بنت أبي أمية رضي الله عنها.

اسمها ونسبها

اسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية القرشية، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية، من بني فراس، وأبوها من رجال قريش المعدودين. وكان مشهوراً بالكرم، كان إذا سافر معه صُحْبَة أو جماعة يكفيهم المؤونة، ولذا لُقِّبَ بـ «زاد الراكب». فهي من سلالة طيبة ذات مجد كريم.

زواجها الأول

تزوجت هند من عبد اللّٰه بن عبد الأسد المخزومي، وعاشت معه عيشة طيبة ظللتهما، حتى إذا بَشَّرَ الرسول بالدين الجديد ودعا إلى الإسلام الحنيف، كان عبد اللّٰه المخزومي من السابقين إلى الإسلام، المؤمنين بما بَلَّغَ سيدنا محمد الأمين.

إلى الحبشة

اعتنق عبد اللّٰه الإسلام عن يقين وإيمان، ودعا زوجته هند بنت زاد الراكب فأسلمت وآمنت، وصدَّقت بكلمات ربها وحفظتها، وامتدت يد المشركين بالإيذاء إلى عبد اللّٰه وزوجته، فاحتملا وصبرا واحتسبا عند الله الكبير المتعال. ومضت الأيام والإيذاء يزداد يوماً بعد يوم، حتى أَذِنَ الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، لأن المسلمين في إمكانهم أن يعيشوا بجوار ملكها في أمن على عقيدتهم. وعلي أرض الحبشة وُلِدَ لهما أولُ مولود، وسُمِّيَ «سَلَمة»، ومن هذا التاريخ لُقِّبَتْ هند بأُمِّ سَلَمة، كما لُقِّبَ زوجها بأبي سَلَمة.

وفي تلك الأثناء وصلت إشاعة كاذبة بأن قريشاً أسلمت، ولما عاد

المهاجرون وجدوا أن قريشاً ما زالت على الكُفْر والعناد، وقد دخل كُلُّ مهاجرٍ في جوار أحدَ رجالِ قريش، ودخل أبو سلمة وزوجته في جوار أبي طالب بن عبد المطلب، فهو ابن عمة رسول الله ﷺ من جهة وأخوه في الرضاعة من جهة أخرى.

حادث أليم

عاشت سيدتنا هند «أم سلمة» في مكة بعد العودة من الحبشة، وهي تري الرسول يربي أصحابه وينمِّي فيهم الإحساس بالمسؤولية تجاه الإنسانية الحائرة، ويعلِّمهم الدين، ويغرس في نفوسهم التضحية في سبيل المبدأ والعقيدة، والدفاع عن الوطن. وتلحظ الرسولَ في غُدُوِّهِ ورَوَاحِهِ، وتَنْعَم عيناها برؤيته معلِّماً وهادياً وبشيراً رحيماً، حتى أُمِرَ بالهجرة للمدينة، وأَذِنَ لأصحابه بالهجرة، واستعد أبو سلمة للهجرة، وقد أعدَّ لذلك راحلة ليأخذ معه زوجته المؤمنة الوفية أُمَّ سَلَمة وابنهما الطفل الوليد «سَلَمة». وعند مشارف مكة لحق به بعضُ بني المغيرة «أهل أُمّ سلمة» وقالوا له: هذه نفسُكَ غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه، عَلاَمَ نتركك تسير بها في البلاد؟ ثم أخذوها وردُّوها معهم ومعها وليدها الصغير، فَغَضِبَ من هذا الصنيع بنو عبد الأسد «أهل زوجها»، فأرادوا أَخْذَ الطفل، وكان بينهما تجاذُبٌ أَدَّي إلى خَلْعِ يد الطفل الصغير، ثم أخذَ الولدَ أهلُ زوجها، وظلت هي مع أهلها بعيدة عن زوجها وولدها.

ومضت الأيام وهي في سيرها بطيئة، والحزن يعتصر قلبها، والهمّ يزحف عليها، حتى رآها أحد أبناء عمومتها ورأي ما بها، فَرَقَّ لحالها، وأخذ يشفع لها عند أهلها أن يتركوها لتذهب إلى زوجها، وأخيراً أَذِنُوا لها أن تهاجر، وعند ذلك ردَّ بنو عبد الأسد ولدَها إليها، وجهَّزت نفسها، وأعدت راحلة لتهاجر عليها، وكانت وحيدةً لأن الكل قد هاجَرَ وليس بمكة أحد، وخرجت حتى إذا كانت بالتنعيم ـ علي بعد فرسخين من مكة ـ لقيها عثمان بن طلحة ـ وكان ما زال على الشرك ـ وسألها: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقالت: أريد أن ألحق بزوجي في المدينة. فقال: أَمَعَكِ أحد؟ فقالت: معي الله. فانطلق معها عثمان بن طلحة يأخذ

بخطام بعيرها. وكان أميناً شهماً كريماً، عاملها بالإحسان والرفق حتى وصلت إلى زوجها راضية مرضية. تأمَّلْ عناية الله حيث يسخِّر لها هذا الإنسان الذي ما زال على الشرك يقود بعيرها ويحرسها، ولحقت الزوجة الوفية بزوجها بعد فراق دام ما يقرب من سنة، بكت كثيراً، وحزنت حزناً عظيماً، ولكنْ ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾(1).

والتأمَ شَمْلُ الأسرة من جديد، وبدأت السعادة تعرف طريقها إلى الزوجين الوفيين، وكانت الثمرة المباركة إنجاب ثلاثة أطفال غير «سَلَمة» الذي وُلِدَ في الحبشة، وهم: عمر، ورقية، وزينب.

البطل

تحركت قريش لجَمْع الأحزاب والتحالف مع اليهود سرًّا وجهراً لملاحقة الإسلام ومناهضته، والصَّدِّ عنه، وإعلان الحرب عليه، فكان لا بد من ردٍّ فعلٍ من قِبَلِ المسلمين بوقف هؤلاء الذين ملكهم الغرور عند حدٍّ معيَّن، ولذا فرض الله الجهاد على المسلمين فقال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(2). ولذا كان الرسول ﷺ يخوض مع أصحابه الحرب ضد هؤلاء المعتدين، ومن خير الأبطال الذين وقفوا معه عبد اللّه المخزومي «أبو سلمة»، فكان في غزوة «بدر» له جولات مشرِّفة، وكذلك في غزوة «أُحُد»، وأُصيب بجرح عميق، وقد استعمله الرسول ﷺ قبل ذلك على المدينة، وأَمَّرَهُ ـ عليه السلام ـ على سرية توجهت لبني أسد، وكان تحت إمْرَتِه سعدُ بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، مما يدل على مكانته عند القائد العام للدولة الإسلامية نبي الإسلام.

ورجع البطلُ من هذه السرية وهو مُتَوَّجٌ بالنصر، إلا أن جُرحه قد عاوَدَهُ ولَزِمَ بيته، وزاره النبي العظيم وهو على فراش الموت، حتى إذا دنت الساعة الأخيرة

(1) سورة يوسف، الآية ٩٠.
(2) سورة الحج، الآيتان ٣٩ ـ ٤٠.

كان الرسول بجانبه يدعو له بالخير، وأسبل بيده الكريمة عينيه، ثم صَلّي عليه وكَبَّرَ تسع تكبيرات، فقيل له: يا رسول الله، لقد كَبَّرْتَ تسعاً. أسهوت أم نسيت؟ فقال: «لم أَسْهُ ولم أنسَ، ولو كَبَّرْتُ على أبي سَلَمة ألفاً كان أهلاً لذلك». وهذا يدل على عُلُوِّ قدره وعظيم منزلته. والتفت الرسول إلى أُمِّ سلمة وقال لها: «سَلِي الله أن يُؤْجِرَكِ في مصيبتك ويخلفك خيراً».

الخطبة

ما إن انتهت أيام الحداد على الزوج الكريم حتى تقدم شيخ الصحابة «أبو بكر الصديق» إلى أم سلمة يخطبها ليحفظ ودّ أخيه في الإسلام ويرعي أولاده، ولكنها رفضت برفق ولين. ثم تقدم عمر بن الخطاب الشهم الكريم لخطبتها، فكان الجواب كالأول، ثم قالت: «وَمَنْ يكون خيراً من أبي سَلَمة؟» ثم أرسل الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يخطبها لنفسه، فوجدت أن هذا الشرف تتمناه أي امرأة في المجتمع، ولكنها فَكَّرَتْ وأرسلت تقول: يا رسول الله، إنني امرأة مُسِنَّةٌ وأُمٌّ عيال وعندي غيرة. فأرسل الرسول عليه السلام يقول لها: «أما أنك امرأة مُسنَّة فأنا أكبر منك، ولا يُعاب على المرء أن يقال تزوج من هي أَسَنُّ منه، وأما قولك إنك أم عيال أيتام فإنهم كلهم على الله ورسوله، وأما قولك إنك شديدة الغيرة فإني أدعو الله أن يُذهب عنك غيرتك». وتمت الخطبة، وتزوجها الرسول الكريم، وانتقلت لتأخذ مكانها في المجتمع الإنساني كأمٍّ للمؤمنين وكان مكانها في البيت النبوي الكريم في المكان اللائق بها كربَّة بيت ترعى شؤونه، وكأم للمؤمنين ترعى شؤونهم، وتعطف على ذي الحاجة منهم.

في بيت النبوة

انتقلت «أُمّ سَلَمة» إلى بيت النبوة وأخذت مكانتها بين نساء النبي الكريم، وكانت برغم تقدُّم سنِّها تتمتع بقسط وافر من الجمال، مما جعل السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: «لما تزوَّجَ الرسولُ ﷺ «أُمّ سَلَمة» حزنتُ حزناً شديداً لما ذُكِرَ

لي من جمالها، فتلطفتُ حتى رأيتها، فرأيتُ والله أضعافَ ما وُصِفَتْ به». ولكنها لم تكن تدل بجمالها، بل هناك منزلةُ العِزِّ التي عاشَتَتْ فيها وورثتها عن أجدادها، ثم فوق ذلك سابقتها للإسلام، وهجرتها، وتحمُّلها المشاق والصعاب في سبيل العقيدة والمبدأ، وهي زوجة رجل أعطى حياته للإسلام، وأم أيتام تركهم أبوهم أمانة ووديعة بين يدي المسلمين ونبيهم الكريم، والوحي لم ينزل في أي بيت من نساء النبي إلاَّ السيدة عائشة رضي الله عنها تُباهِي بذلك، حتى إذا جاءت «أُمُّ سَلَمة» وانضمت إلى الرَّكْب الطاهر نَزَلَ الوحي في بيتها، ورتُّلت آيات السماء في حجرتها ندية مضيئة. كما أنها صحبت الرسول ﷺ إلى مكة في العام السادس الهجري (عام الحديبية)، وكان لها دور كبير في المشورة على النبي عندما أراد المسلمون تغيير العهد الذي أُبرم بين النبي وأهل مكة، وحدثت هناك تساؤلات: لِمَ نُعْطِ الدَّنِيّة في ديننا؟ وأصبح الجو ينذر بالخطر، حتى إن الرسول أمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا، فما قام منهم أحد، فأشارتْ عليه «أُمُّ سَلَمة» برأي هو الصواب، فقالت: اخرجْ ولا تُكَلِّمْ منهم أحداً فتنحر وتدعو حالقك يحلق لك وفعل النبي ذلك، فتبعه المسلمون.

وكانت في صحبة النبي في فتح مكة وفي بعض الغزوات الأخرى، وعاشت وهي تري نصر الله يتحقق للبطل الكريم الذي كان مَثَلُهُ كمثل الشمس، كل شخص يتمتع بها، ويظن أنه وحده الذي يتمتع بالدفء. حتى إذا انتقل الرسول ﷺ إلى ربه راضياً مرضيًّا، بعد أن بَلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، لزمت سيدتنا أم سلمة بيتها لم تبرحه، وتجنبت الخوض في معترك الحياة العامة، حتى انتقلت إلى ربها راضية مرضية سنة ٥٩ هـ، ولها من العمر أربعة وثمانون عاماً، وصلي عليها أبو هريرة رضي الله عنها، ودُفِنَتْ بالبقيع.

رملة بنت أبي سفيان

«أم حبيبة» رضي الله عنها

إن الله جلَّت قُدرته أيَّدَ رسوله الكريم بنصرٍ عظيم على أعدائه الذين تآمروا عليه ووقفوا في سبيل دعوته يصدون الناس عنها، ويشيعون حوله ما نطقت به ألسنتهم من كذب وافتراء على رجل اصطفاه الله واختاره لحمل الرسالة وهداية البشر، وكان يعامل الصديق كما يعامل العدو في حال الدعوة والتوجيه، وإذا ما سَمِع الأذي من عدوه رفع يديه إلى السماء وقال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فإنهم لا يعلمون**». ومع أنه كان رجل دعوة فقد كان له عقل الساسة الكبار والمصلحين العظام الذين ألقت عليهم الأقدار مسؤولية القيام بهداية البشر، والأخذ بأيديهم حتى يتبوَّأوا مكان الصدارة والسعادة في المجتمع.

هذا النبي الكريم لم ينسَ أصحابه، القريب منهم والبعيد، لأن مثله في المجتمع كمثل الهواء الطيب الذي تنتعش به النفوس، وتهدأ به القلوب، ويستردُّ به الجسد صحته وعافيته. وعندما بدأ يُبَشِّر بدعوته وأسلم له قومٌ شَرَحَ الله صدورهم للإسلام أُوذوا من قومهم، وتحمَّلُوا في صبر وجَلَد عذابهم واضطهادهم، وكان من بين هؤلاء الشابة المليحة الوضيئة «رملة بنت أبي سفيان» التي تحمَّلَتْ في سكون عذاب قومها وسخرية أهلها، وبذاءة السفهاء منهم. ونحن إذْ نقدِّمها اليوم ونلقي على سيرتها ضوءاً ليكون نبراساً طيباً لأمهاتنا وأخواتنا، ويتعرفن على ما تصنعه العقيدة من قوة وثبات.

اسمها ونسبها

هي السيدة رملة بنت أبي سفيان بن صخر بن حرب القرشية الأموية، وأمها صفية بنت أبي العاص عمة عثمان بن مظعون، ومن المعروف تاريخيًّا أن أبا سفيان كان عدوًّا لدوداً لرسول الله ﷺ، فهو المحرِّض على الموقعة الحربية التي وقعت بين المسلمين والمشركين في «بدر»، ثم هو الذي قاد المشركين في «أُحُد» لينتقم

من المسلمين، وتوعدهم مقسماً باللأتِ والعُزَّي ليحاربن المسلمين في العام القادم. وخرج على رأس الأحزاب مجتمعة لقتال المسلمين، وما زال على عدائه لرسول الله ﷺ حتى فتح الله مكة على المسلمين، وقد أسلم في اللحظة الأخيرة خوفاً من الانهزام.

إسلامها وإيمانها

أسلمت رملة رضي الله عنها مع السابقين إلى الإسلام، وكانت متزوجة من عبيد اللّه بن جحش الأسدي الذي أسلم معها وهاجرا معاً إلى الحبشة، ووضعت هناك بنتاً أسمتها «حبيبة»، فأصبحت تُعْرَفُ منذ ذلك التاريخ «بأمِّ حبيبة». وقد عاشت في الغربة بعيدة عن وطنها وأهلها التي كانت تشتاق إليهم، ولكن الذي كان يؤنسها في غربتها رباطها الروحي العظيم برسول الله وبمن معه من المؤمنين الذين بقوا في مكة.

وكانت تعلم من أخبار قومها أن أباها من الزعماء المعاندين لدعوة رسول الله ﷺ، وكان يتوعدها حيث خرجت من طَوْعِه وأسلمت بدون أمره، وهاجرت بدون علمه. وبينما هي في مهجرها رأت رؤيا كَدَّرَتْ عليها حياتها وجعلتها تعيش مضطربة النفس، قلقة الخاطر، حتى تحققت رؤياها، فزادها ذلك نكداً على نكد. وكان هذا الحُلْم: أنها رأت زوجها في صورة سيئة، وبعد ذلك تَنَصَّرَ وارتدَّ عن الإسلام، وكم حاول أن يأخذها معه ليردها عن دينها، ولكنها صبرت وتضرعت إلى الله أن يعصمها ويحفظ عليها دينها الذي هو أغلي من كل شيء. ولقد عاشت بعد فترة لا يعلم إلا الله كم تحمَّلت فيها من مرارة فراق زوجها الذي ترك لها بنتاً في عمر الزهور وهي غريبة عن الأهل والوطن، مما جعلها تشعر بالخزي مما فعله زوجها الذي بدَّل دينه فهو لم يبقَ على دين قومه عَبَدة الأوثان والأصنام ولكنه آمن بالدين الجديد، ثم تنكَّر لكل هذا ودخل في دينٍ آخر، مثله كمثل إنسان يستبدل ثوباً بثوب، ليس له على هذا صبر ولا على ذاك جَلَد. ولقد كانت تنظر إلى ابنتها فيمزق الأسي قلبها وتقول في نفسها: ما ذنب هذه الطفلة البريئة التي أصبحت تعي

ما يدور حولها وقد رأت أن أباها وأمها كُلاً منهما في وادٍ لا يجتمعان، وهما في غُربة لا يعلم إلا الله مداها، فلاذتْ بالإيمان، واعتصمت بربها: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾[1].

منحة بعد محنة

الصبر ضياء، ومَنْ صَبَرَ امتثالاً لأمر الله عوّضه الله خيراً كثيراً، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾[2]. لقد صبرت رملة رضي الله عنها صبر الأبطال، وجاهدت نفسها وهواها حتى لا تنزلق في تيار الارتداد، لقد شهدتها نجومُ الليل ساهرة تُلقي نظرة حنانٍ على طفلتها، وتدعو ربَّها أن يكون لها عوناً ونصيراً ومؤيداً، فأيّدها ربها، وإذا هي ذات صباح تفتح بابها بعد أن استيقظت على من يناديها في منامها بقوله: «يا أم المؤمنين». فصاحت في نفسها: كيف؟ أرسول الله يتزوجني؟ وإذا هي بِطَرْق على الباب الذي ظل كثيراً لا يُفتح لأحد غيرها بعد أن ابتعد عنها الذي كان يطرق عليها ومات في غُربته، وقد جاءتها تلك الطرقات بعد أن انتهت عُدَّتُها من زوجها المرتدّ، ولقد كان الطارق عليها رسولٌ من قِبَلِ النجاشيّ، امرأة تسمي «أبرهة»، جاءت تقول لها: يقول لك الملك إن رسول الله كتب في أمر زواجك منه، فصاحت «أم حبيبة» في فرحٍ: بَشَّرَكِ الله خيراً!! ويقول لكِ الملك أيضاً وَكِّلِي مَنْ يُزَوِّجَكِ. ولقد أخذَتْها نشوةُ الفرحِ، واستعادت ماضيها الطويل، وأخذت تقول في نفسها: أنا بنت أبي سفيان العدُوُّ اللدود لرسول الله. أنا زوجة الهالك المرتد، أنا الغريبةُ الوطن البعيدة المنزل أكون زوجة لنبي الهدى؟

أشرق الإيمان في نفسها، وظهر السرور على وجهها، فنزعت سوارين من معصمها وقدّمتهما إلى «أبرهة» تُحْفَة البشري والنبأ السعيد والمنزلة الخالدة التي تتطلع إليها عيون الكثيرات من النساء. وإذا كان الصبر مفتاح الفرج، وبعد العُسْر يأتي اليسر، وبعد ظلام الليل يأتي نور الصباح الذي تسير الإنسانية في هُداه، فإن

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠١.

(٢) سورة الزمر، الآية ١٠.

التي عاشت قلقة النفس، مضطربة الفكر، بعيدة الأهل، غريبة الوطن، قد أتي إليها الفرج العظيم بنبأ زواجها من نبي الإسلام.

حفل زواجها

أرسلت رملة إلى خالد بن سعيد بن العاص، وكان من المؤمنين المهاجرين، فوكَّلته في زواجها. وبعد العشاء دعا النجاشيُّ جعفرَ بن أبي طالب وجميع المسلمين، ثم تكلَّم النجاشيء فقالَ: «أما بعد، فإن محمداً رسول الله كتب إليَّ أن أُزَوِّجَهُ أُمَّ حبيبة، رملة بنت أبي سفيان، فأجبتُ إلى ما دعا إليه الرسول، وأصْدَقْتُها عنه أربعمائة دينار». وسكب الدنانير بين يدي القوم، وعندئذ نهض وكيلها «خالد» فقال: «الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدي ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبتُ إلى ما دعا رسول الله ﷺ وزَوَّجْتُهُ من رَمْلَةَ بنت أبي سفيان، فبارك الله رسولَ الله»، ثم قبض الدنانير. وأراد القوم أن ينصرفوا فقال لهم النجاش: «اجلسوا فسُنَّةُ الأنبياء إذا تزوجوا أن يُقدموا الطعامَ لمن حضروا الزواج». ثم دعا بطعامٍ، فأكلوا ثم تفرَّقوا.

باتت أم المؤمنين هادئةَ النفس، قريرة العين، وفي صباح اليوم التالي جاءتها «أبرهة» تحمل إليها هدايا نساء الملك من كل ما تحفل به بلاد الحبشة، فقالت لها «رملة»: يا أبرهة، كنتُ أعطيتك السِّوارَيْن بالأمس وليس بيدي شيء من المال. تَأَمَّلْ: ليس عندها مال، ولكن عندها حسن الظن بالله والثقة به، وقد جاءني الله عز وجل بهذه الهدايا. ودفعتْ إليها خمسين ديناراً. ولكن «أبرهة» ردَّت الدنانير والسوارين وقالت: يا سيدتي، إن النجاشيَّ أجزل ليَ العطاءَ وأَمَرني ألاَّ آخُذَ منكِ شيئاً. وهذا مَثَلٌ لو أنَّ نساءنا تعلَّمْنَ منه لكان لهن نور وضياء في حياتهن.

مواقف من حياتها

المتتبع للأحداث الماضية يري أن زواج النبي ﷺ من «رملة» ليس وراءه

غرض من أغراض الدنيا، ولكنه زواج إنساني المنزع، كريم العواطف، فرضته ظروف تلك السيدة المسلمة المهاجرة التي صبرت وتمسكت بدينها، ثم هو زواج سياسي القصد، من ورائه تليين تلك العواطف الجامحة عند أبي سفيان ومن معه، ثم إنه زواج يربط بين قلوبٍ تنافرت، ويؤلف بين أفئدة تباعدت، فهو ليس زواجاً يُقْصَدُ به متعة أو لذة كما تقول بعض الألسنة الحاسدة الناقمة التي لا تعرف تلك العواطف الكريمة التي طُبِعَ عليها نبي الإسلام، أما أبو سفيان الزعيم الثائر على دعوة الإسلام فعندما عَلِمَ بهذا الزواج قال: «هذا الفَحْلُ لا يُجْدَعُ أنفه»! وهذا مَدْحٌ لرسول الله ﷺ من عدو، والفضل ما شَهِدَتْ به الأعداء.

وسارت الأيام في مجراها، وعادت أم حبيبة إلى المدينة لتحتل مكانها في بيت النبوة، وقد كان يؤلمها أن أباها ما يزال على الوثنية يؤلِّب المشركين، وبين الحين والحين تدور رُحَى المعارك، ويسقط قتلي من شيعة أبيها، وشهداء من صحابة زوجها ﷺ. وتطورت الأحداث، ونقضت قريش صلح الحُدَيْبِيَّة، ولاحتْ نُذُر الخَطَر تهدد زعماء مكة الذين اجتمعوا يتشاورون، واستقر رأيهم على إيفاد رسولٍ منهم إلى المدينة ليفاوض محمداً في تجديد الهدنة ومَدِّ أجلها عشر سنين، واختاروا أبا سفيان لهذه المهمة، لأن له بنتاً تحت رسول الله. وفُوجئت أم المؤمنين بأبيها يدخل بيتها، ولم تكن قد رأته منذ هجرتها إلى الحبشة، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ، فطوته عنه، فسألها: أَطَوَيْتِهِ يا بُنَيَّةُ رغبةً بي عنه أم رغبة بالفراش عني؟ فقالت له: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك فلا أحب أن تجلس عليه. ورد أبو سفيان: لقد أصابَكِ بعدي شر.

ووقفت «رملة» تتفكر في تلك الأحداث الطوال وهي معطلة الحواس، عصية الدمع لكل ما مرَّ بها من أحداث، إنها تلك المرأة التقية النقية التي لم تأذن لأبيها بالجلوس على فراش زوجها ونبيِّها، زادها الله تكريماً، وأنزل في زواجها من رسول الله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[1]. لقد التزمت طوال حياتها بتوجيهات رسول الله، فعندما جاءها نعي أبيها دَعَتْ بطيبٍ فمسحت ذراعيها

---

(١) سورة الممتحنة، الآية ٧.

وقالت: ما لي من حاجة لولا أني سمعتُ رسول الله يقول: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميت فوق ثلاث إلاَّ على زوج أربعة أشهرٍ وعشراً**». كما أنها كانت تصلي كل يوم اثنتي عشرة ركعة وتقول: سمعت رسول الله يقول: «**من صلَّى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُني له بيت في الجنة**». قالت «أم حبيبة»: «فما تركتهن مُذْ سمعتُ ذلك من رسول الله ﷺ».

عاشت «أم حبيبة» حتى رأت نبي الإسلام يدخل مكة، ويدخل أبوها في دين الله، فسجدت لله شاكرة، وعاشت متعبِّدةً خَيِّرَةً، صالحة تقية، حتى توفيت سنة ٤٤ هـ في خلافة معاوية، ودُفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين، رضوان الله عليهم أجمعين.

أم المؤمنين زينب بنت جحش

رضي الله عنها

لم يقف المستشرقون طويلاً أمام زوجة من زوجات نبيِّنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم مثلما وقفوا أمام هذه الشخصية الكريمة النبيلة الأصيلة ذات الشرف والحسب «زينب بنت جحش» رضي الله عنها، التي تزوَّجها الرسول ﷺ، وكان زواجها سبباً في تقرير مبدأ جديد غير ما كان معروفاً قبل ذلك بين العرب أجمعين. فمن المعروف عند العرب أن للأدعياء حقوقاً كالأبناء في النَّسَبِ والميراث، فلا يجوز التزوج بنسائهم، ومن هنا اتخذ المستشرقون هذا الزواج ذريعة ليتشدَّقوا ويظهروا خصومتهم للإسلام، ويفتروا على التاريخ، وسوف نتبين افتراءاتهم وكذبهم على نبي الإسلام ﷺ.

اسمها ونسبها

هي السيدة زينب بنت جحش بن رئاب الهاشمية القرشية وأمها أُميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. فهي بنت عمة رسول الله ﷺ، أسلمت في بدء الإسلام، وهاجرت مع أهلها إلى المدينة، وكانت تكبر وتترعرع وبدا عليها

الجمال. وكانت تعتز بذلك وتفخر بنسبها الرفيع وتردِّد: أنا سيدة أبناء عبد شمس، وفوق هذا كانت تدل بقرابتها لرسول الله ﷺ، مما كان يزيد من مكانتها ورفعتها. وكانت ترقبها العيون، ويتمني كل شاب في المدينة أن ينال منزلة القرب من بيت النبوة ويتزوج تلك الهاشمية الجليلة القدر، العظيمة الشأن، وكان من شباب الإسلام وفتيانهم زيد بن حارثة رضي الله عنه.

زيد بن حارثة

زيد بن حارثة بن شراحبيل بن كعب، خرجت به أُمُّه «سُعْدَي بنت ثعلبة» لتزور أهلها فأغار عليها خيلٌ من بني القين وأخذوه أسيراً وباعوه في أسواق العرب، ووقع في يد خديجة بنت خويلد التي وهبته لرسول الله ﷺ قبل البعثة. وعاش معه ردحاً من الزمن، وكان يُلَقَّبُ زيد بن محمد بعد أن رفض العودة مع أبيه بعد التعرُّف عليه، ولمَّا دُعِيَ إلى الإسلام كان أولَ من أسلم بعد عليٍّ بن أبي طالب، وعاش في بيت النبوة قريباً من قلب الرسول، حتى كان يُطلق عليه حب رسول الله. ولمَّا جاء الإسلام بتعاليمه كان من مبادئه الأساسية: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾(١). ومن هنا لُقِّب زيد بن حارثة، نسبة إلى أبيه، وتطبيقاً لنظام الإسلام.

وبلغ زيدٌ مبلغَ الرجال وطلب من رسول الله ﷺ أن يخطب له، وفرحَ رسول الله فرحته الكبرى، إذْ طالما تمنَّي أن يكون لزيد مولاه بيت هادئ ينعم فيه بلذة القرب من زوجة وفيَّة، ويشعر فيه بالراحة والاستقرار، وطلب زيد أن تكون زوجته «زينب بنت جحش» التي أعلنت رفضها لهذا الأمر، لأنها من أسرة لها مكانتها الاجتماعية، وزيد من طبقة الموالي وقد جري العُرْفُ أن لكل طبقة أكْفَاءها. وهنا نزل قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾(٢).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

موافقة زينب

وتراجعت زينب عن موقفها وخشيت أن تكون ممن ينطبق عليهن العصيان لله ورسوله، ورضيت بالزواج الذي كان ثورةً اجتماعية أعلنها الإسلام على النُّظُم التي كانت سائدة في البيئة العربية والتي كان من شأنها أن تقسم الناس إلى طبقات، وهناك حدود بين هذه الطبقات فاصلة لا يمكن تخطيها، فطبقة الموالي كانت دون السادة الأشراف بمراحل كثيرة، والعرب أنفسهم على طبقات تمثل قريش المرتبة الأولى، فكان زواج المولى بقرشية حَدَثاً ذا خطورةٍ كبيرةٍ أراد به الرسول أن يبيِّن أن الإسلام يرفع من شأن المولى ليضعه في طبقة الأشراف، بل ليبيِّن عمليًا أنه ليس في الإسلام شريف أو وضيع، بل هم سواسية أمام الدين، وأنه لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بالتقوى، وأن الناس جميعاً خُلقوا من ذكرٍ وأنثى، فأصلهم واحدٌ، فلا تمايز بينهم بِحَسَبٍ أو نَسَبٍ، كما أنه من المعلوم أن زينب رضي الله عنها كانت ترجو أن تتزوج ممن يناسبها شرفاً ومقاماً، ولكن هذا الزواج كان وراءه حكمة تشريعية كبيرة.

في بيت واحد

ومرت الأيام، وعاش زيد وزينب في بيت واحد، وكان بينهما فرق، فزيدٌ رضي الله عنه من الموالي وزينب قرشية هاشمية، كبيرة النفس، عزيزة الجانب، كانت تنظر إلى زوجها وتتذكر حالها فلا تملك إلا أن ترفع وجهها إلى السماء تسأل الله العليّ القدير أن يجعل لها من هذا الجحيم الأرضيّ مخرجاً. ومن المعلوم أن الزواج الذي لا يقوم على التكافؤ الاجتماعي والثقافي بين الزوجين يكون مبنياً على الاضطراب ومآله إلى الانفكاك. مضت الأيامُ، وكان زيدٌ أَحَبَّ زوجته الحب كله، ولكنها كانت قاسية عليه، فبدأت الكراهية تتسرب إلى قلبه، ولم يعد يحتمل البقاء معها، وكان يذهب إلى رسول الله ﷺ يشكو له هَمَّهُ ويسأله الموافقة على طلاقها لسوء معاملتها له، ولكن الرسول ﷺ كان يقف دائماً موقف الناصح الأمين ويقول له: «**أَمْسِكْ عليكَ زوجَك واتقِّ الله، ولا تَقْدَمْ على ما أنت قادمٌ عليه**»، لأن الرسول

كان أحرص الناس على دوام العشرة بين الزوجين، إلا أنه كان هناك أمر إلٰهي يعلمه الله تعالى من الأزل، وهو تغيير مبدأ من المبادئ السائدة، وهو أن «ليس للمتبني حكم الابن في كل شيء».

أمر الله

وطُلِّقَتْ زينب عند استحالة العِشْرة بين الزوجين ليتم التشريع الجديد، تشريع السماء الذي تسعد به الإنسانية، وينزل أمر الله لرسوله الكريم أن يتزوج زينب رضي الله عنها، وضرب الرسول بهذا الزواج أسمي المثل في السنة الخامسة من الهجرة، وكان عمرها عند الزواج خمساً وثلاثين سنة، وكانت تفتخر بأن الله زوَّجها من فوق سبع سمٰوات، ودخل عليها الرسول ﷺ بغير إذن من أهلها، وسجدت لله شكراً، لأن الله أجاب دعوتها وطُلِّقت من زيد وجزاها خير الجزاء، وزَوَّجَها من رسوله الكريم.

والمتأمل في هذا الزواج يري أن الرسول ﷺ لو كان له رغبة في زينب لتزوَّجَها في أول الأمر بِكْراً، لأنها بنت عمته وليس بخافٍ عليه جمالها منذ صغرها، فقد كانت أمام عينيه يراها في غُدُوِّهِ ورواحه، ولكن الرسول كان يعاني في سبيل دعوته وبثّ رسالته، الأمر الذي جعله لا يفكر في أي امرأة ليتزوج بها لجمالها أو مالها أو حَسَبها، وإنما كان يضم إليه أرملة شهيد ذات أولاد يؤويهم ويضفي عليهم حنانه ورعايته، وتارة ليسنّ سُنَّة ويبيِّن حُكْم الله فيما جهل الناس فيه حكم الله، وكان القصد من وراء زواجه بزينب هو تغيير ما تعارف عليه العرب وإلغاء هذه العادة، وأن المتبنِّي ليس كابن الصلب، وهذا التشريع لا بد أن يبدأ به رسول الإسلام ليكون قدوة لأتباعه. يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾[1].

لقد كان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يخشي تقوُّل الناس عليه بأنه تزوج

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ٣٧ ـ ٣٨.

من كانت زوجاً للذي تبنَّاه والذي أنعم الله عليه بالإيمان والإسلام، وهذا أَجَلُّ النِّعَم، وأنعمت عليه أنت يا محمد بالعِتْقِ وبإلحاقه بك.

أعداء الإسلام

نعم، لقد كان بين الزوجين تنافر فأراد الله لزيد أن يُطلِّق زوجته ليتزوجها الرسول ﷺ لكي لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ فيما أحله الله لهم في أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا منهن وَطَراً، وكان أمر الله مفعولاً. وأمام هذه القصة يقف المستشرقون وأعداء الإسلام ليتقوَّلوا على النبي الكريم لأنه تزوج زوجة ابنه من التبني (فأي نبي هذا؟) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾[1]. ويكفي لإسكاتهم إعجاز الله في كلماته الكريمة التي تحوي بلاغة الرد وعظمة الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حيث خاطبه المولى جل وعلا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝﴾[2]. ويكفي هذا الرد لإسكات هؤلاء المرجفين فالنبوَّة الحقيقية صلة في النسب، والأدعياء تسميتهم عارضة، وإلصاقٌ بمن ليسوا لهم آباءً، وذلك لا يدل على النبوَّة الحقيقية، ولقد كان هذا الزواج خطوة للتشريع الجديد الذي أراده لنبيِّه ﷺ، واختار الحق نبيه الكريم ليقوم بالتطبيق العملي أمام المجتمع، لأنه هو القدوة للناس أجمعين.

في بيت النبوة

وعاشت السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها في بيت النبي الكريم، وكانت صوَّامة قوَّامة متصدِّقة، قال عنها الرسول ﷺ في حديثٍ لعمر بن الخطاب: «إنَّ زينب بنت جحش أَوَّاهة»، فقال رجل: يا رسول الله، ما الأوَّاه؟ قال: «الخاشع

(١) سورة الكهف، الآية ٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآيات ١ ـ ٤.

المتضرِّع»، ثم تلا عليه الصَّلاة والسلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾[1]. وكانت كريمة خَيِّرة، تصنع بيديها ما تُحسن صُنْعَه ثم تتصدق به على المساكين، فكانت بذلك أُمًّا رحيمة، قال عنها الرسول ﷺ: «**أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً**». فكانت نساء النبي إذا اجتمعن في بيت واحدة بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ كما تقول السيدة عائشة ـ نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد طُولَ اليد بالصَّدَقَة. وكانت زينب امرأة صناعة اليدين، تدبغ وتخرز وتتصدق في سبيل الله. وقد انتقل الرسول ﷺ إلى ربه راضياً مرضيًّا، وكانت زينب أولَ نسائه لحاقاً به.

إلى جوار الله

توفيت سيدتنا زينب سنة ٢٠ من الهجرة، وصلي عليها عمر بن الخطاب، ودُفنت في البقيع، وكان عمرها عند وفاتها ثلاثاً وخمسين سنة، وعندما بلغ السيدة عائشة نعيها قالت: «ذهبتْ حميدةً متعبِّدةً مفزع اليتامى والأرامل». كما أن السيدة أُمّ سَلَمة ترحَّمَتْ عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين عائشة، ثم قالت: كانت زينب لرسول الله ﷺ معجبة وكانت امرأة صالحة صوّامة قوّامة صناعة اليدين، تصنع بيديها ما تُحسن صُنعه ثم تتصدَّق بذلك كله على المساكين. ويروي أن عمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ أرسل إليها عطاءها اثني عشر ألفاً، فجعلت تقول: اللهم لا يدركني هذا المال في قابل فإنه فتنة، ثم قَسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة. وعندما حضرتها الوفاة قالت: إني قد أعددتُ كفني وإن عمر أمير المؤمنين سيبعث إليَّ بكفن فتصدقوا بأحدهما.

يا نساء المسلمين، هذه رائدة لكُنَّ في الخير فاقرأن سيرتها لتتعرفن على المُثُل الكريمة، والعمل الصالح الذي يرفع الله صاحبه إلى أعلي الدرجات، وليكن دعاؤنا جميعاً: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾[2].

(١) سورة هود، الآية ٧٥.

(٢) سورة الحشر، الآية ١٠.

زينب بنت خزيمة
«أم المساكين» رضي الله عنها

من المعلوم أن النبي ﷺ بُعِثَ إلى الناس كافة، الرجال والنساء، وقد كان يجلس بين أصحابه يلقّنهم التعاليم. ويُحفّظهم القرآن، ويرشدهم إلى مكارم الأخلاق حتى تسمو نفوسهم فلتسعد بهم الدنيا... والنساء لهن جانب من التعليم والتوجيه، لأنه ﷺ عندما بُعِثَ كانت المرأة تُعَدُّ من سقط المتاع، فكرامتها مُهْدَرَة، ومكانتها ضائعة، فكانت تُباع عندهم وتُشْتَرَي كأنها سلعة، وقد انحطت كرامتها في دولتي الفُرس والروم، وكانوا يطلقون عليها كل لفظ قبيح، لأنها في نظرهم مثار الشر، وظلت المرأة كذلك حتى امتدت إليها يد بعض القبائل فوأدوها حية. واستمر هذا حال المرأة حتى بُعِثَ المصطفي صلوات الله وسلامه عليه الذي حرَّرها من هذا الظلم ورفع مكانتها، وأعلي من منزلتها، ونزل القرآن الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

لهذا كان من الطبيعي أن تتعدد زوجات النبي ﷺ، لأنهن أقدر على تبليغ الأحكام الخاصة بالنساء، ولا يصلح للتلقي عن الرسول إلا مَنْ كانت على عصمته وتحت يده، وفوق ذلك فقد كان للقصد من وراء ذلك اجتذاب القبائل من وراء المصاهرة التي هي أقوي داعٍ للتآلف والمناصرة. كما أن من مات زوجها وليس لها عائل يرعاها أو رجل يذودُ عن حماها ضَمَّها الرسول إلى نسائه، ليستقر وضعه وتشعر بالعطف والحماية في بيت النبي الكريم، من أجل ذلك رأينا أنه ﷺ تزوج «زينب بنت خزيمة».

نسبها

هي زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد اللّٰه بن عمرو بن عبد مناف بن

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.

هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمي في الجاهلية بأم المساكين، لأنها كانت تعطف على الأرامل واليتامى، كما أنها كانت تمد المساعدة لكل محتاج، فهي عربية هلالية، عاشت في الجزيرة العربية، وكانت من السابقات إلى الإسلام، وكذا زوجها الأول عبد اللّه بن جحش ابن عمة الرسول ﷺ الذي استشهد في غزوة أُحُد، وأصبحت بعد فَقْدِهِ بلا عائل.

خطبتها

نظراً لقصر المدة التي عاشتها سيدتنا الكريمة في بيت النبوة فالمؤرخون اختلفوا وتضاربت أقوالهم في تاريخ هذه السيدة، ومَنِ الذي تولي أمر زواجها لرسول الله ﷺ. والذي يؤخذ به من جملة الأقوال أن الرسول ﷺ خطبها إلى نفسه فجعلت أمرها إليه، فتزَوَّجَها وأصدقها أربعمائة درهم، ودخل عليها بعد حفصة بنت عمر، وكان زواجه بها في شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة.

طيبتها

أجمع المؤرخون على تعدد مشاربهم واختلاف أقوالهم أنها كانت تقية صالحة، ورعة مؤمنة، لم تُذْكَر في أي كتاب إلا ويقزن اسمها بجملة: «أم المساكين»، وذلك لأنها كانت تطعم الفقراء وتتصدق على المساكين وتحسن إليهم، كما أنها كانت صَوَّامة قَوَّامة، وقد ذكر هيكل في كتابه «حياة محمد» أنها لم تكن ذات جمال، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لُقِّبت بأم المساكين، كما أنها كانت تعتق العبيد رأفة بهم ورحمة.

حياتها

عندما ضُمَّتْ زينب المخزومية إلى نساء النبي الكريم ونالت هذا الشرف العظيم الذي تصبو إليه النفوس وتتطلع إليه القلوب كانت هي الوافدة الرابعة بعد أم المؤمنين خديجة الكبرى، ولكن حياتها الزوجية لم تدم طويلاً، لأنها لم تمكث في

بيت النبوة إلا ثلاثة أشهر، وفي رواية أخرى ثمانية أشهر، وهي مدة بسيطة قليلة، ولذلك اختلف المؤرخون فيها ولم يستطيعوا أن يعطونا صورة واضحة لحياتها الاجتماعية، لأنها توفيت في حياة رسول الله ﷺ.

وفاتها

إن حياة الإنسان لا تُقاس بأيام عمره، ولكن تُقاس بما قَدَّم من عَمَل، وبما ترك من أثَر، فكم من أناس عاشوا مئات السنين وخرجوا من الدنيا ومُحِيَتْ آثارُهم ولم يُذكر اسمهم. وكم من أناس عاشوا قِلَّة من الزمن ومع ذلك فأيامهم حافلة بجلائل الأعمال، ينطق الزمن باسمهم، ويقف أمامهم إجلالاً وإكباراً. ومن الذين يقف الزمن أمام اسمهم أم المؤمنين سيدتنا زينب بنت خزيمة «أم المساكين»، التي انتقلت إلى ربها ولها من العمر ثلاثون عاماً، وقد صلي عليها الرسول ﷺ ودفنها بالبقيع، وقد نزل في حفرتها ليكون قبرها رحمة وفيه نور من أنوار المصطفي صلوات الله وسلامه عليه، ويكفيها فخراً أنها تُبعث يوم القيامة في عِداد أمهات المؤمنين أزواج النبي الكريم ﷺ، الذي بَلَّغَ رسالة ربه، ودعا الناس إلى دين الهدي والسعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة. وإنَّا ونحن نتحدث عنك يا أم المؤمنين، يا من كُنْتِ زوجةَ شهيدٍ ضَحَّي بدمه في سبيل العقيدة وصبرْتِ أنتِ من بعده، واحتسبتِ فعوضَّكِ الله خيراً، وأبدلك زوجاً خيراً من زوجك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾[1].

فسلامٌ عليك ما تُليت آيات الله في الأرض، وما تردد اسم الله من فوق المآذن، وجزاكِ الله خيراً. وسلامٌ عليكِ يوم نلقاكِ أمام رب العزة وقد ضاعت الأحساب والأنساب ولم يبق يومها إلا حَسَب الإسلام ونَسَب الإيمان. إن هذه الزوجة الكريمة كانت الزوجة الثانية التي تُوفيت في حياة الرسول ﷺ، أما الأولي فهي السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها وعن الجميع، وألحقنا بهم على خيرٍ في مقعد صِدْقٍ عند مليك مقتدر.

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠.

جويرية بنت الحارث

إذا مدَّ الإنسانُ القويُّ يده إلى الضعيف لينهض بشخصه ويرفع من ضعفه ويسمو بقدره دون أن يمنَّ عليه فإن ذلك يعتبر من سُمُوّ الأخلاق ونُبُل الصفات، وهذا ما تحلي به نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان من خُلقه أن يعفو عمَّن ظلمه، ويصل مَنْ قَطَعَه، ويعطي من حَرَمه، ولقد كان من شمائله ما ذكره الله عز وجل وجعله منهاجاً له ولأمته: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾(1).

ولقد ضرب نبينا صلوات الله وسلامه عليه أمثلة رائعة في هذا السبيل أصبح مضرب الأمثال، ولقد كانت تلك الصفات مِمَّا جمعت حوله القلوب وألَّفت النفوس، وجعلت أعْدَي أعدائه أحب أحبائه. ولقد كان من منهجه في تعدد زوجاته أن يؤلف القلوب ويجمع حوله الناس ليدخلوا في دين الإسلام دين السماحة والعدل والحق. والمتأمل في زواجه صلوات الله وسلامه عليه من جويرية بنت الحارث يجد هذا المثل. لقد خاض النبي غمار حروب انتصر فيها وساد، وأصبحت كلمته في الجزيرة العربية يعدّ لها ألف حساب وحساب، ونحن نري من مجريات الأحداث التي مرَّت به صلوات الله وسلامه عليه أن المشركين عندما جمعوا جمعهم وحَزَّبُوا أحزابهم وساروا في جحافل من الجيوش نحو المدينة ليقصدوها بسوء في السنة الخامسة من الهجرة وأشار أحد أصحاب رسول الله ﷺ بحفر الخندق الذي سُميت الغزوة باسمه، ونري أن اليهود المجاورين للمدينة انقادوا للمشركين وساروا في ركْبهم، ولكن الله القوي القادر الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق كتب للإسلام النصر ولرسوله التأييد وانهزم الأحزاب، وبعد ذلك تفرغ الرسول لتأديب بني قريظة، وبعد ستة أشهر من هذه الأحداث كان النبي يراقب بحذر ما يجري في المحيط الذي حوله فشعر بحركة لم تبعث في نفسه الارتياح، لأن بني المصطلق أَعَدُّوا عدة لاغتياله صلوات الله وسلامه عليه، وعندئذ

(1) سورة فصلت، الآية ٣٤

جهَّز جيشه ونادَي مناديه بالجهاد، وتحرك الرَّكْب من المدينة حتى وصل قريباً من قبيلة خزاعة، ونزل عند مكان به ماء يسمي «المُرَيْسِيع» وحاصر بني المصطلق الذين سِيقَتْ نساؤهم سبايا، وكان من بين النساء «بَرَّةُ بنت الحارث بن أبي ضرار» التي أصبحت فيما بعد «أم المؤمنين جويرية بنت الحارث».

اسمها

هي برة بنت الحارث زعيم بني المصطلق وقائدهم، وكان هذا الرجل يكنُّ العداء الشديد لرسول الله ﷺ ولدعوته، وقد جمع الجموع ليحاربه ويقضي على الرسول، خاصة بعد أن هزم الأحزاب وانتصر الرسول على بني قريظة، ثم إن الرسول ﷺ انتصر بعد ذلك على بني المصطلق وسَبَى نساءهم، ووُزِّعت السبايا على الجند من أتباع النبي العظيم ﷺ ووقعت «بَرَّة» في سهم «ثابت بن قيس» الذي كاتَبَها على تسع أواق من الذهب تدفعها فدية عن نفسها. وقد ذهبت إلى القائد العظيم ﷺ تسأله أن يعينها بماله حتى تفك أسرها. لقد ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهي تقول له: «أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، قد أصابني من البلاء ما قد عَلِمْتَ، فوقعتُ في السهم لثابتِ بن قيس، فكاتبتُه على نفسي، فجئتُكَ أستعينك على أمري».

وقد كانت تتكلَّم وفي صوتها نبرة أسى، لأنها بالأمس كانت عزيزة الجانب، لها مكانتها في قومها، لأنها بنت سيد الناس، العربي الحر، فأصبحت رقيقة. فنظر إليها الرسول الكريم صاحب الخُلُق العظيم، الذي من شمائله أن يرحم الضعيف والمسكين، ومن مبادئه: «ارْحَمُوا عزيزَ قَوْمٍ ذَلَّ»، وتكلم الكريم وقال: «فهل لَكِ في خيرٍ من ذلك؟»، وسألته في لهفة: وما هو يا رسول الله؟ قال لها: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك». وتهلَّل وجهها بالفرح، لأن مثلها مثل الغريق الذي وَجَدَ المنقذ لينقذه من الهلاك والغرق وأجابت: «نعم يا رسول الله». وردَّ عليها الشهم الأصيل النبي العربي ﷺ: «قد فعلت».

حياتها من قبل

لقد كانت هذه السيدة متزوجة من ابن عمٍّ لها يسمي «صفوان بن مالك» وقُتل عنها في يوم الأحزاب، وعندما وقعت أسيرة ـ وكانت مخايل الجمال تبدو على وجهها، لأن سنها لم يتجاوز العشرين ـ كانت تخشي على نفسها أن يصيبها الهوان والضياع للرقِّ الذي لَحِقَ بها، وأنها سَتُباع بعد ذلك في الأسواق. وما إنْ سمعت أذناها كلامَ الرسول صلوات الله وسلامه عليه حتى أشرق الأمل في قلبها، ورأت السعادة تلوح أمامها وأشرقت البسمة على وجهها، لأنها ستدخل التاريخ وستتبوأ مكاناً كريماً، ويُتلي في شأنها قول الله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

حياتها في بيت النبوة

عندما عرض عليها الرسول ﷺ أن يقضي عنها كتابتها ويتزوجها وشاع الخبر في المدينة بأن الرسول ﷺ قد تزوج بنت الحارث سيد بني المصطلق أقبل جميعُ الصحابة على من بأيديهم من أَسْرَي قومها ففكوا إسارهم وأرسلوهم أحراراً، وكان كل واحد من الصحابة يقول: «أصهار رسول الله»، ومن هنا أصبحت هذه المرأة لها فَضْلٌ على قَوْمها، وأصابهم من وراء هذا الزواج بركة عظيمة. وعندما تزوجها الرسول غيَّر اسمها من «بَرَّة» إلى «جُوَيْرِيَّة»، لئلا يقال: خرج من عند «بَرَّة» ودخل إلى «بَرَّة». وهذا الزواج كان من ورائه خير عظيم فإن الحارث بن ضرار ما كان ليطمع في أن تنال ابنته هذا الشرف وأن تضم إلى نساء النبي العظيم، بل إنه جاء إلى المدينة وهو يحمل الفداء لابنته وقال: «يا محمد، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، فإن ابنتي لا يُسْبَي مثلها». فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «أرأيت أن أُخَيِّرَها، أليس قد أحسنت؟» فأجاب: بلى. فأتاها أبوها فَذَكَرَ لها ذلك، فقالت: «اخترتُ الله والرسول».. لقد أَسْلَمَتْ وحَسُنَ إسلامُها، وعندما سمع أبوها منها ذلك صاح بأعلي صوته: «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٢.

ولقد أصدقها الرسول أربعمائة درهم ولقد جمعت هذه الصلة بين المسلمين وبين بني عبد المصطلق جمعتهم في إطار واحد، وهذا النسب جعلهم ينسون سخافات الجاهلية، كما أنهم كانوا عبيداً أذِلَّة فأعتقهم النبي الكريم، وأصبحوا يتفاخرون بأن ابنتهم أصبحت زوجة لقائد المسلمين، وأصبح بنو المصطلق بهذه المصاهرة حُرّاساً لدعوة الإسلام، أمناء على الإيمان، يدفعون زكاة أموالهم، ويساهمون في الدفاع عن الدولة العظيمة.

حادث أليم

حدث أن الرسول ﷺ أرسل إلى قومها الوليد بن عقبة ليأتي منهم بزكاة المال، فاجتمعوا وخرجوا في وفود هائلة احتفاءً بالقادم من قِبَلِ الصِّهْرِ الكريم، وما إن رأي الوليد جَمْعَهُم حتى كَرَّ عائداً إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي له أن بني المصطلق جمعوا جموعهم وهم يتحرشون بالإسلام وبمن يأتي من قِبَل نبي الإسلام. وثارت ثائرة المسلمين وطالبوا بقتالهم، ولكنَّ بني المصطلق أرسلوا إلى رسول الله ﷺ يقولون له: خرجنا نرحِّب برسولك القادم إلينا من قِبَلِك ولكنه خُيِّلَ إليه أننا ننوي شرًّا، ولكن يعلم الله ما أردنا برسولك إلا خيراً. وهنا نزل قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾[1]. ومن هنا يتبين لنا نظرة الرسول السياسية الصائبة بزواجه هذا الذي ضم إليه قبائل لها بطش شديد وأصبحت تري فيه سيدها.

حياتها ووفاتها

عاشت سيدتنا «جويرية» في بيت النبوة وقد حسن إسلامها، وتعبَّدت وزادت صلتها بالله وأصبحت ترى رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة، وكانت طيبة كريمة، تُحسن إلى المحتاجين، وتتصدق على الفقراء. وبعد أن انتقل الرسول إلى الرفيق

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

الأعلي لم تَخُضْ غمار الحياة الاجتماعية وصارت قعيدة بيتها حتى توفيت في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما سنة ٥٦هـ ولها من العمر خمسٌ وستون عاماً، علماً بأن الرسول ﷺ تزوجها ولها من العمر عشرون عاماً، وصلَّي عليها مروان بن الحَكَم والي المدينة، وعُرفت في تاريخ الإسلام بأم المؤمنين التي لم تكن امرأة أعظم على قومها بركة منها رضي الله عنها وأرضاها، وألحقنا بها في مقاعد المتقين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم.

صفية بنت حُيَيّ بن أخطب
رضي الله عنها

الوفاء من مكارم الأخلاق... ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلي درجات الكمال من الأخلاق، مَدَحَهُ ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1]. وقد كان من طبعه صلوات الله وسلامه عليه أن يمد يد الإحسان إلى من أَخْنَي عليهم الزمن، أو تغيرت بهم الأحوال، وكان هذا شأنه صلوات الله وسلامه عليه في السلم والحرب، ومن هنا رأيناه يمد يده بالمعروف إلى امرأة تَبَدَّلَ حالها من عز الحرية إلى ذُلِّ الأَسْر، إذْ وقعت أسيرة بعد أن قُتِلَ أبوها وزوجُها في معركة خيبر التي دارت رحاها بين المسلمين واليهود في شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة، وقد أراد الرسول بذلك أن يؤدِّب اليهود اللئام الذين كشفت وقعة الخندق عَمَّا يطوون عليه من حقد مرير، وما يبيتون للإسلام من شر، ولقد دُكَّتْ حُصون خيبر، وقُتِلَ رجالها، وسُبِيَ نساؤها، وكان من بين السبايا «صفية» رضي الله عنها التي أصبحت «أُمَّ المؤمنين» فيما بعد.

اسمها ونسبها

هي السيدة صفية بنت حُيَي بن أخطب اليهودي، وأمها بَرَّة بنت سَمَوْأَل من

(١) سورة القلم، الآية ٤.

بني قُرَيْظَة، ويرجع نسبها إلى سيدنا موسى عليه السلام، لأنه كما ورد في كتاب «السمط الثمين» أن رسول الله ﷺ دخل عليها وهي تبكي، فقال لها: «ما يبكيك؟»، قالت: إن حفصة بنت عمر قالت إني ابنة يهودي. فقال النبي ﷺ: «إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي وإنكِ لتحتَ نبي ففيمَ تفخر عليك؟»، وفي رواية أخرى قال لها: «قولي: زوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى، صلوات الله وسلامه عليهم»، فيؤخذ من هذا أن نسبها يتصل بسيدنا هارون وسيدنا موسى عليهما السلام.

رؤيا صادقة

عاشت هذه السيدة بين يهود بني النضير، وكان الحقد على الإسلام يتأصل في قلوبهم، مع أنهم يعرفون أن الرسالة التي نزلت على النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه هي الرسالة الخاتمة، ويعلمون أنه صادق فيما يبلِّغ عن الله الذي يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[1]. وقد تزوجت وهي صغيرة السن من شاعر قومها «سلام بن مشكم»، ثم خلف عليها «كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق»، وهو شاعر أيضاً، فقُتِلَ يوم خيبر.

وعندما كانت متزوجة بابن أبي الحقيق رأتْ كأن قمراً وَقَعَ في حجرها، فأخبرت زوجها بذلك ـ وكان من اليهود الممتلئة صدورهم بالحقد على نبي الإسلام ـ فعرف أن هذه الرؤيا يستدل منها على أنها ستكون زوجة لهذا النبي الذي يبغضه، فلطمها وقال: تتمنين مَلِك يثرب؟! وقد تركت هذه اللطمة أثراً في عينها سألها عنها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن تزوجها، فقصَّت عليه هذه القصة التي يؤخذ منها أن الرؤيا تعبِّر أحياناً عن مستقبل الإنسان وعن الغيب المكنون في علم الله، وقد صدقت هذه الرؤيا، وكان القمر الذي وقع في حجرها هو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء وصفوة خَلْق الله.

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

زواجها من الرسول ﷺ

تكاد الروايات تُجمع على أن سنها عندما تزوجها الرسول ﷺ كان سبع عشرة سنة، فهي كانت صغيرة، إلا أنها كانت على دراية كبيرة بالأمور الاجتماعية التي تجري في مجتمعها الذي كان يتآمر على الإسلام والمسلمين، ويكنّ البغض للقائد، ولكن عندما عاشت «صفية» بالقرب من المسلمين وضمها البيت النبوي الكريم رأت السماحة، والكَرَم، والحِلْم، والصفحَ، والإحسان، وكل مكارم الأخلاق تتمثل في شخصية النبي الحبيب الذي يُعَلِّم أتباعه تلك المبادئ.

عندما وقعت السيدة صفية في الأَسْر جاء «دحية» ـ أحد الصحابة ـ فقال: يا رسول الله، أَعْطِنِي جارية من السَّبْي. فقال: «اذهبْ وخُذْ جارية». وأخذ صفية بنت حيي. فجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، أعطيت «دحية» صفية بنت حُيي سيدة قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك لأنها كانت بنت أمير القوم، ومن أعقلهم، وأُصيبت في أعز أهلها. فأرسل الرسول ﷺ إلى «دحية» وقال له: «خُذْ جارية من السبي غيرها». ثم أعتقها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن ضمها إليه وتزوجها. وقد عرف الصحابة ذلك عندما ألقي عليها رداءه.

وفي الطريق من خيبر إلى المدينة جاءت أُمّ أنس بن مالك فمشطتها وجَمَّلَتْها، وبذلك ذهب أثر الحزن من نفسها على أبيها وزوجها، وأقيمت لها وليمة العُرْس، وأكل الناس من طيبات خيبر، ثم دخل الرسول ﷺ عليها بعد أن ضرب القبة التي وقف يحرسها أبو أيوب خالد بن زيد، وكان متوشحاً سيفه يطوف بالقبة على غير علم من الرسول... فلما أصبح ووجده ساهراً يقظاً سأله: «ما لك يا أبا أيوب؟»، قال: يا رسول الله، خفتُ عليكَ من هذه المرأة لأن أباها قُتل وزوجها كذلك، وكثير من قومها، وهي حديثة عهد بكفر فخفت منها عليكَ! فدعا له الرسول ﷺ وقال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما باتَ يحفظني».

السبت واليهود

وعاشت تلك السيدة في بيت النبوة بينها وبين آل البيت كل حُبٌ ومودَّة،

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يكرمها ويعطف عليها، وكانت صادقة تقية ورعة. وكان النبي ﷺ يُشعرها أنها ليست غريبة ـ كما كانت تحس ـ لأن زوجات النبي ﷺ معظمهن عربيات قُرشيات، أما هي فكانت تحس بالغربة وعدم الأهل، فكان يعوّضها بحنانه وعطفه، مما جعلها تشعر أنها بين يدي نبي كريم أعز من أبيها وأكرم من قبيلتها. ومضت الأيام ولحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وأحست «صفية» باللوعة والأسي لأنها فقدت أعز وأكرم مخلوق لديها.

وقد ذهبت جارية لها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقالت: يا أمير المؤمنين، إن صفية تحب السبت وتَصِلُ اليهود «وهذه فرية»، فبعث إليها عمر بن الخطاب يسألها عن ذلك، فأجابت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإنَّ لي فيهم رحماً، فأنا أصلها. ثم التفتت السيدة صفية إلى جاريتها تسألها عَمَّا حملها على مثل ذلك الافتراء؟ فأجابت الجارية: الشيطان. وردت صفية: اذهبي فأنت حرة! لقد أخذت سيدتنا صفية ذلك المبدأ، مبدأ العفو من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾(1).

في خلافة عثمان

عاشت أم المؤمنين بعد انتقال رسولنا ﷺ إلى الرفيق الأعلى تصلي فرضها وتكثر من التهجُّد والتنفُّل والصيام، وتجلس على مائدة القرآن تغذي روحها وتصل نفسها بربِّها حتى إذا وقعت الفتنة في عهد سيدنا عثمان بن عفان كانت موالية لعثمان. وأثناء الحصار كانت تنقل الطعام والماء إليه وهو في محنته، وكانت تصنع المعروف، ويدل موقعها من سيدنا عثمان على طيبة نفسها وحسن صنيعها.

خاتمة حياتها

وبعد حياة طويلة مليئة بعمل الخير، وبعد أن سجل اسمها في كتب

(1) سورة فصلت، الآية ٣٤.

الحديث، حيث روى عنها بعض آل البيت، كالإمام زين العابدين علي بن الحسين، وكذلك روى عنها مسلم بن صفوان، ومولاها يزيد بن متعب، وابن أخيها كنانة - روي عنها الكثير من الأحاديث التي سمعتها من رسول الله ﷺ. وهكذا كان لها أثر طيب، وعاشت حتى استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان. وانتقلت إلى جوار ربها سنة خمسين من الهجرة، ودُفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين، وطويت بذلك صفحة طيبة مشرقة لسيدة جليلة آمنت بربها، وأخلصت لنبي الإسلام، وتخلّت عن مبادئ اليهود بعد أن تبين لها الرشد، فرضي الله عنها وأرضاها، وألحقنا بها في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ميمونة بنت الحارث الهلالية
رضي الله عنها

هي بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد اللَّه. وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، سيدة من أكرم سيدات مكة. اسمها «بَرَّة» إحدي أخوات أربع، قال ﷺ عنهن: «الأخوات المؤمنات». الأولى: شقيقة لها، هي أم الفضل، زوج العباس عم الرسول ﷺ، وأول امرأة آمنت بالرسول ﷺ بعد خديجة، وهي التي ضربت أبا لهب بعامود فشجَّت رأسه وهو عدو الله ورسوله. والثانية: أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب. والثالثة: سلمي بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء. وكانت أمها أكرم عجوز لها أصهار كرام.

زواجها الأول

تزوجت بَرَّة من مسعود بن عمرو، ثم فارقها فتزوجها أبو رهم بن عبد العزيز، ثم توفي عنها، فجعلت أمرها إلى أختها «أمّ الفضل» وأسرَّت إليها ترغب في رسول الله ﷺ، فكلمت أم الفضل زوجها العباس عم الرسول ﷺ الذي كَلَّم ابن أخيه محمداً ﷺ، فتزوجها على بُعْدِ عشرة أميال من مكة سنة ست من الهجرة، وغيَّر اسمها من «بَرَّة» إلى ميمونة، وأصدقها أربعمائة درهم. وأراد ﷺ أن يتم

زواجه منها بمكة، لأنه قد قارب نهاية المدة المنصوص عليها في صُلح الحُديبية، ولكنَّ قريشاً رفضت، وخرج الرسولُ ﷺ والمسلمون من مكة، وتخلَّف أبو رافع مولي الرسول ﷺ ليلحق به وهي في صحبته وعند مكان يسمى سرف ـ وهو مكان قريب من التنعيم ـ بني بها ﷺ، وسُميت «ميمونة» تيمناً بدخول المسلمين مكة لأول مرة بعد سبع سنين، وتحقق أمل ميمونة بهذا الشرف الذي نالته. وهي آخر زوجة تزوجها ﷺ، وكان الرسول في بيتها حين اشتد به الألم في مرض الموت، وسمحت له بالانتقال إلى بيت عائشة.

منزلة ميمونة

تمتعت ميمونة بمنزلة عظيمة عند رسول الله ﷺ، وقد أسلم بسببها خالد بن الوليد لأنها خالته، وهو فارس قريش، ولقد دار حوار بينه وبين عكرمة بن أبي جهل نسجِّله هنا ليكون دليلاً على بيان الحق الذي دعى إليه محمد ﷺ... يقول خالد في جَمْعٍ من المشركين: «لقد استبانَ لكل ذي عقل أنَّ محمداً ليس بساحرٍ ولا شاعرٍ، وأن كلامه من كلام ربِّ العالمين، فحقٌّ على كل ذي لب أن يتبعه». ففزع عكرمة بن أبي جهل لمّا سمع ذلك ورد قائلاً: «لقد صَبَأْتَ يا خالد».

قال خالد: لم أصبأ ولكني أسلمت.

فقال عكرمة: والله إن أحق أي قرش ألاَّ يتكلَّم بهذا الكلام لهو أنت.

قال خالد: وَلِمَ؟

قال عكرمة: لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جُرح وقتل عمك وابن عمك ببدر، والله ما كنت لأسلم ولا أتكلم بكلامك يا خالد، أما رأيتَ أن قريشاً يريدون قتاله؟

فقال خالد: هذا أمر الجاهلية وحَمِيَّتُها، ولكنني والله أسلمتُ حين تبيَّن لي الحق.

....

وهو حوار طويل دار بينهما وخالد ليس بالهين، فهو الشجاع الكفء اللبيب، وقد تبين له الرشد من الغي بعد أن تزوجت خالته من رسول الله ﷺ، ولقد ازداد الإسلام قوة عندما اعتنقه خالد، لأنه هو مَنْ هو في تخطيطه الحربي وقيادته العسكرية، وتواضعه في غير ذِلَّة، وانقياده لما يُوَجَّهُ إليه من القائد.

وفاتها

عاشت «ميمونة» بعد الرسول عليه الصلاة والسلام قرابة خمسين سنة، وهي صوَّامة قوَّامة، تقية نقية، وتوفيت في السنة الحادية والستين بعد الهجرة في خلافة يزيد بن معاوية، وهي آخر من مات من أزواج النبي ﷺ ولها من العمر ثمانون سنة، وقد أوصت أن تُدفن «بسرف»، المكان الذي التقت فيه برسول الله ﷺ، وقد تَمَّ لها ما أرادت، وحُمِلَ جسمها إلى هناك حيث التقت بأخواتها السابقات من السيدات الكريمات أمهات المؤمنين.

فرضي الله عنها وألحقنا بها في منازل الأبرار والصدِّيقين والشهداء والصَّالحين وحسن أولئك رفيقاً.

سراري النبي ﷺ

بُعِثَ النبي ﷺ والاسترقاق منتشر في العالم أجمع. وقد جاء الرسول ﷺ برسالة تفك أسر الناس من قيود الذل والهوان والاتجاه إلى الخالق لأنه المعبود بحق، الخالق لكل شيء، ولم يكن من الحكمة أن يبدأ الرسول ﷺ بإبطال هذا الوضع مرة واحدة، لأن الناس دَرَجُوا عليه وأَلِفُوه، ولأنه يشكِّل ثقلاً اقتصاديًا خطيراً، ولكن التشريع في المجتمع الإسلامي يدعو الناس إلى أُخُوَّة ومحبة، لا تفاضل فيها بين أبيض وأسود، . ورفع الإسلام قيمة الرقيق بما وضعه الرسول ﷺ من مُثُل وقيم، ورفع من مستواهم الاجتماعي، وأذاب الفوارق بين الطبقات، من ذلك قوله ﷺ: **«إخوانُكُم خَوَلُكُم فَمَنْ كان أخوه تحت يده فَلْيُطْعِمْهُ مما يطعم، ويلبسه مما يلبس»**.

وقال ﷺ: «لا يَقُلْ أحدكم عبدي وأَمَتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي». ثم إن الإسلام وضع منهجاً لتحرير الرقيق لم تصل الإنسانية إلى مثله إلى يومنا هذا في أُسُسه القويمة وأهدافه المثلى، ودعا إلى فك الرقاب بطرق متعددة، كما أنه ضَيَّقَ من سُبُل الرق وحصرها في حالة الحرب الشرعية التي يأمر بها إمام المسلمين بمشورة «أهل الحل والعقد»، فكان من وقع أسيراً يعرض عليه: إما أن يدخل في الإسلام أو يدفع الفدية. وكان من بين الذين يقعون في الأَسْر بعض النساء، وكان المسلمون يأخذونهم للتسرِّي بهن، فالقرآن الكريم يقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1] وذلك ليكنَّ أمهات أولاد شرعيين كسائر الأمهات الأحرار، فإن الجارية التي تلد لسيدها تُعْتَقُ بموته ولا يجوز بيعها. وهذا يعطيها مكانة اجتماعية سامية، لأنها حصَّنت نفسها وضمنت رزقها مع حفظ كرامتها، والحكمة من وراء ذلك أن يكون لها كافل من الرجال في مجتمع ليس لها فيه قريب. والرسول هو القائد للجند في كثير من الغزوات التي وقعت بين المسلمين الذين يدافعون عن دينهم وعقيدتهم، ويردون العدوان عنهم من أعدائهم وأعداء دينهم، وقد يكون من نصيبه ﷺ بعض سبايا الحرب، فكان ﷺ يعرض عليهن الإسلام، فإن أسلمن تزوجهن رحمة وعطفاً، كما حدث لصفية بنت حيي وجويرية بنت الحارث، وتُهْدَي إليه بعض الرقيق، كمارية القبطية التي أُهديت إليه من المقوقس.

وسوف نتكلم الآن عن مارية القبطية التي ربطت بين أرض مصر الطيبة وبين المدينة المنورة وأصبحت أُمًّا لولد هو «إبراهيم» وأبوه سيدنا محمد ﷺ.

ماري القبطية

علي أرض مصر الطيبة وفي قرية من قراها العامرة شاءت إرادة الله سبحانه لمارية بنت شمعون أن تحيا أيامها الأولي من عمرها حتى اكتمل عودها، فانتقلت إلى بيت المقوقس عظيم قبط مصر. وعاشت كأترابها، لا تدري ما هو مخبوء لها

(١) سورة النساء، الآية ٣.

في عالم الغيب، ولا ما يكنّ لها، وكانت تشاركها حياتها أُخْتٌ لها اسمها «سيرين». ومضت الأيام، وبدأ الناس يتحدثون عن ظهور نبي بُعِثَ في جزيرة العرب يدعو الناس لعبادة الواحد الأحد الديّان، مالك المُلْك، رب العالمين، وكانت هي تتسمع تلك الأخبار فينشرح صدرها ويشرق الأمل في نفسها، ولكنها لم تكن تعرف سبب ذلك، فتمضي في عملها حتى لا يلحظ أحد ذلك عليها.

مرحلة جديدة

وفي السنة السادسة الهجرية عقد صلح بين النبي الكريم وبين قريش سُمِّيَ «بصلح الحديبية»، وبسبب هذا الصلح هدأت الأحوال وتوقفت الحروب فترة من الزمن. وصاحِبُ الدعوة يَقِظٌ يتحين الفرصة لتبليغها إلى أكبر عدد من الناس علَّهم يستجيبون له ويسمعون صوت الحق، وما كادت تلك المعاهدة والحروب تتوقف حتى بادر النبي الكريم بإرسال كتب ورُسُل إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ويعرض عليهم الإيمان ويتلو عليهم القرآن، وكان من الذين خاطَبَهُم وأرسل إليهم «المقوقس»، وكان الرسولُ الذي حمل الرسالة هو «حاطب بن أبي بلتعة» رضي الله عنه، وهو صحابي كريم، ومجاهد عظيم، شَهِدَ بدراً وما بعدها من المواقع، وكان على علم تام بمهمته وما تتطلبه من مهارة وقدرة في الإقناع بالمبدأ الذي يؤمن به.

رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس

حمل حاطب بن أبي بلتعة رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس وهذا نصها: **«بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أَسْلِمْ تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم القبط** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٦٤﴾[1]». وقرأ المقوقس هذا الكتاب المشرق ثم

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

طواه في عناية وتوقير ووضعه في حُقٍّ مِنْ عاجٍ، ثم دفعه إلى واحدة من جواريه، وبعد ذلك التفت إلى حاطب بن أبي بلتعة يسأله عن النبي وصفته. وشرح حاطب باستفاضة وذَكَرَ ما يعرفه من محامد هذا النبي.

وما كاد المقوقس يسمع من حاطب ويفكر مليًا فيما سمع ثم قال: قد كنت أعلم أن نبيًا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، ولكنه خرج من أرض العرب. ولكن القبط لا تطاوعني وأنا أضن بملكي أن أفارقه. ثم دعا بكاتبه فأملي عليه: «أما بعد... فقد قرأتُ كتابك وفهمتُ ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبيًا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولَكَ وبعثْتُ لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبثياب ومطية لتركبها، والسلام». ولما دفع المقوقس كتابه إلى حاطب وَصَّاهُ بأن يكتم ما دار بينهما من حديث.

وعاد حاطب إلى النبي ﷺ ومعه الهدايا وهي: مارية وأختها سيرين، وعَبْدٌ خَصِيٌّ، وألف مثقال ذهباً، وعشرون ثوباً من نسيج مصر، وجواد مسرج، وحمار أشهب، ونوع من العسل، وبعض العود والمسك.

وانطلق حاطب بذلك عائداً إلى المدينة حيث كان الحبيب المصطفى ورفاقه الأبرار، وبلغ الركب المدينة سنة سبع، وتلقي النبي ﷺ الهدية. وحجز لنفسه مارية، أما سيرين فإنه أهداها إلى شاعره حسان بن ثابت.

طار نبأ تلك الوافدة الجديدة إلى نساء النبي الكريم فكان هناك نوع من القلق، خاصة أن الرسول ﷺ كان يُبْدي نحوها اهتماماً خاصًا قد يكون فيه دوافع إنسانية، وتلك صفاته مع كل من يلتقي به، وقد يكون هناك نوع شبه بين الوافدة وبين جَدَّتنا هاجر أم إسماعيل، لأنها كذلك من مصر بلد الخصب والنماء.

ومضت الأيام ومارية كانت تحب سماع قصة هاجر ونجدة السماء لها مع وليدها عند بيت الله الحرام، وهي قد أسلمت وحَسُن إسلامها، ودأبت على قراءة القرآن والذكر والدعاء. ومضت سنة من اقتراب الرسول ﷺ منها، وبدأت تحس ببوادر تغيرت بسببها حياتها. إن هناك ما يشبه الحَمْل، فهل يصدق ظنها وتكون أمًّا

لمولودٍ لهذا النبي الذي تزوج بعد خديجة الكثير ولم ينجب من أي واحدة منهن. ومضي شهر وشهر ولم تُبحْ لأي واحدة بما تحس به، ثم أفضت بسرها إلى أختها سيرين، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فرفع وجهه إلى السماء شاكراً لله رب العالمين، وكان لهذه البشري وَقْعٌ في نفس الرسول ﷺ الذي بات يرعاها وعمل على راحتها.

إشاعة وتكذيب

ولم تكتمل الفرحة التي سرت في أنحاء المدينة أن رسول الله ﷺ ينتظر مولوداً من مارية المصرية، فسرعان ما انتشرت إشاعة كاذبة بأن مارية لها اتصال برجل وَفَدَ معها وكان يأوي إليها يأتيها بالماء والحطب، فقال الناس في ذلك: عِلْج يدخل على علجة، «وعلج كلمة تقال للأحباش وتقال لكل حاف غليظ من الرجال».

وبلغ الخبر إلى سيدنا رسول الله ﷺ فاغتمّ لذلك، خاصة أنه قد سبق أن تكلم الناس في حق أم المؤمنين عائشة فبرّأها الله مما قالوا، ولكن هل يترك الرسول ﷺ مارية ويتخلي عنها ـ لا ـ إنه لم يتركها في محنتها بل أراد أن يتثبّت من الخبر عملاً بقول الله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾[١]. عندئذ أرسل الرسول ﷺ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى هذا الخادم ليتعرف على أحواله فوجده على نخلة هناك، فلمّا شهر سيدنا عليّ سيفه وَقَعَ في نفس القبطي الخوف وألقي الرداء الذي كان يستره فتعرّى فإذا هو «مجبوب»، فرجع سيدنا عليٌ إلى النبي ﷺ فأخبره بما رأى من القبطي. ثم جاء أمن الوحي جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، فاطمأن رسول الله ﷺ، وبعد ذلك نقلها إلى ضاحية من ضواحي المدينة بمكان يسمى العالية توفيراً لراحتها، وعناية بصحتها وصحة الجنين.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

الوليد إبراهيم

وتقدمت الأيام بمارية، وكان رسول الله ﷺ يرعاها وكذلك أختها سيرين، حتى إذا اكتمل الجنين وحانت ساعة الوضع في ليلة من شهر ذي الحجة سنة ٨ هـ، أرسل الرسول ﷺ قابلتها «سَلْمَى» زوج أبي رافع، وخرج الوليد إلى الدنيا يعلن صلته بها، وكان سبباً في إكرام أمّه التي أُعتقت من الرقّ بعد ذلك حيث أصبحت أم ولد.

وحمل الرسول ولده بين يديه وسمَّاه إبراهيم تيمُّناً بجده إبراهيم عليه السلام، وتصدَّق الرسول ﷺ على كل مسكين في المدينة بوزن شعر الوليد وِرْقاً[(١)]، وكانت لحظات السعادة تغمر النبي الكريم وتغمر كذلك مارية التي شعرت أنها أسعدت هذا الرسول العظيم، حيث ولدت له على الكِبَر إبراهيم، ولكن تلك السعادة لم تدم فما كاد إبراهيم يبلغ من العمر عامين حتى أَلَمَّ به مرض، فجزعت أُمُّه وسهرت بجواره، وكان الرسول ﷺ يدخل عليه وهو محزون القلب، ليست له حيلة في دفع ما نزل بوليده، حتى إذا حان وبلغ الأجل مداه دمعت عينا الرسول ﷺ، فسأله أحد أصحابه: لِمَ هذا الدمع؟ فقال: **«إنها رحمة أودعها الله في قلب مَنْ أحب من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**. ثم يقول: **«إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرْضِي رَبَّنَا، وإنَّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»**. . . وأقبل الفضل بن عباس فغسَّل الميت وأبوه ينظر إليه، ثم قبر في البقيع في يوم غام فيه الأفق فقيل: «غام الأفق وانكسفت الشمس لموت إبراهيم». وبلغت الكلمة أُذُن الرسول، فلم يتركها هكذا، وإنما وَجَّهَ الناس إلى الحق والصواب فقال: **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»**. . . ثم طوي الرسول قلبه على جُرحه مستسلماً لأمر الله وقضائه، وما هو إلا عام حتى لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلي بعد هذا الحادث الذي مرَّ في حياته.

نهاية المطاف

أما مارية التي دخلت التاريخ وتبوَّأت هذا المكان الكريم فقد عاشت بعد

(١) الوِرْق: الفضة.

الرسول ﷺ خمس سنوات في عُزْلة لا تَلْقي أحداً إلاَّ قليلاً، عاشت عابدة متعبِّدة لله، خاشعة، وأسلمت روحها لله ولقيت ربها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٦ هـ، وكفاها فخراً أن الله تعالى تَدَخَّل لحمايتها، وأن الرسول ﷺ رُزِقَ منها الولد في آخر أيامه، وكانت سبباً في أن الرسول ﷺ يوصي بأهل مصر خيراً بعد أن تمَّ هذا الرباط الوثيق، وأعادت سيرة هاجر مع إبراهيم في تلك البقعة المباركة من الجزيرة العربية. ولمّا جاء عبادة بن الصامت الصحابي الجليل إلى مصر بعد فتحها بحث عن قرية مارية، وسأل عن موضع بيتها وبَنَي به مسجداً.

والحسن بن علي طلب من معاوية رفع الخراج عن أهل قرية «حَفْن» بلدة مارية بقري الصعيد بمصر إكراماً لذكراها.

إن حياة مارية فيها العظمة والعبرة لأمهاتنا وأخواتنا وبناتنا، نسأل الله أن يجعلنا من المستفيدين من حياة أزواج نبينا الكريم ﷺ.

ريحانة

ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة بن شمعون بن زيد. من بني النضير، وكانت متزوجة برجل من بني قريظة يقال له الحَكَم، كان مُحِبًّا لها مُكْرِماً إيَّاها، فقالت: لا أستخلف بعده أبداً، فلما وقعت في السبي أمر بها النبي ﷺ فَعُزِلَتْ، وأرسل بها إلى بيت أُمِّ المنذر بنت قيس، وبعد أيام دخل عليها ﷺ، وتقول هي: «فتخبيت منه حياءً، فدعاني فأجلسني بين يديه وقال: **«إن أحببت أعتقتُكِ وتزوجتك فعلتُ، وإن أحببتِ أن تكوني في ملكي»**. فقلت: يا رسول الله، أكون في ملكك أخفُّ عليَّ وعليكَ»، فكانت في مِلْك رسول الله ﷺ حتى ماتت عند عودته من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع.

قصتان

ونختم هذا الموضوع بذكر قصتين يتبيَّن منهما أن الرسول ﷺ لم يكن جباراً ولا قاسياً، وإنما كان بارًّا رحيماً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ

رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

القصة الأولى: زواجه من عمرة الكلابية

عمرة بنت زيد بن عبيد بن رواس بن كلاب، تزوجها ﷺ في ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة. وعندما خيَّرَها كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[2]. اختارت الدنيا وقومها، ففارقها وذهبت إلى قومها، فَرُئِيَتْ وهي تلتقط البعر «روث الإبل» وتقول: «أنا الشقية». وإنما ذكرنا ذلك لنقف أمام هذه العظمة المحمدية، لقد كان بحق رؤوفاً رحيماً، وكان منهجه كما يقول القرآن: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾[3].

القصة الثانية: أسماء

أسماء بنت النعمان بن أبي الجون بن الأسود بن الحارث. قال والدها النعمان بن أبي الجون: يا رسول الله، ألا أُزَوِّجُكَ أجمل أيم في العرب كانت تحت ابن عمٍّ لها فتوفي عنها فتأيمت ورغبت فيك وتطلعت إليك. فتزوجها ﷺ على اثنتي عشرة أوقية. فقال: يا رسول الله، لا تُقَصِّرْ في المهر. فقال ﷺ: «ما أصدقتُ أحداً من نسائي فوق ذلك». فقال النعمان: ففيك الأسى. ثم طلب النعمان من رسول الله أن يبعث معه من يحمل ابنته إلى الرسول حيث يتم الزواج، فبعث الرسول ﷺ أبا أسيد السَّاعدي، فلما وصلت إلى المدينة ودخل عليها ﷺ رفعت وجهها وقالت: أعوذ بالله منك. فرجع عنها ﷺ وقال لها: «لقد استعذتِ

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية ١٥.

بمعاذٍ أمين عائذ الله». ثم أمر بردِّها. فلما اقتربت من أهلها تصايحوا وقالوا: إنَّكِ لَغَيْرُ مباركة.

وهذا مَثَلٌ آخر نضعه أمام مَنْ يتطاولون على النبي ﷺ فإنه لم يقتنصها ولم يهنها، وإنما رَدَّها معزَّزة مكرَّمة، مع أنها أساءت التعبير في بيته. إنه مَثَلٌ يدل على حُسْن الخُلُق الذي كان يتمتع به الرسول ﷺ. وهو الذي وضع لنا دستوراً ومنهجاً لمعاملة النساء معاملة كريمة. ويقول فيما رُوي عنه: «ما أكرمَ النساءَ إلاَّ كريمٌ وما أهانهن إلا لئيم».

صلوات الله وسلامه عليكَ يا سيدي يا رسول الله، يا مثلنا الأعلى، وقدوتنا إلى الله ورضوان الله على أمهات المؤمنين الصالحات اللائي حَرَّمَهُنَّ الله على المؤمنين زواجاً من بعدك يا رسول الله لتكتمل لهن منزلة الإعزاز والتقدير.

ولقد حدث أن عُيينة بن حصن الفزاري دخل على النبي ﷺ بغير إذن وعنده عائشة، فقال ﷺ: «فأين الاستئذان؟»، فقال: يا رسول الله، ما استأذنتُ على رجلٍ من مُضَرٍ منذ أدركت. ثم قال: مَنْ هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال: «هذه عائشة أم المؤمنين». فلما خرج قالت عائشة: مَنْ هذا؟ قال: «هذا أحمق مطاع، وأنتِ على ما تَرَيْنَ سيدَ قومِه». وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾[1]. وقد نزلت هذه الآية في رجل كان قد تكلم بأنه يرغب في زواج بعض نساء النبي.

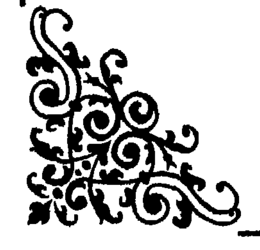
فسبحان ربِّك ربِّ العزَّة عَمَّا يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلَّي الله على سيد الأولين والآخرين، وعلى أنبياء الله والمرسلين.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.




الفصل الثالث

بنات النبي ﷺ




زينب الكبرى

تزوج النبي ﷺ بخديجة، وعاش معها عيشة الهناء والسعادة، لم ينغِّص حياتهما أي شيء برغم ما كان بينهما من فارق السن.

وخديجة امرأة طاهرة الذيل، عفيفة العرض، كريمة الأصل، واسعة المال. تزوجت قبله برجلين وأنجبت منهما، ولكنها مع زوجها الثالث ـ الكفء الكريم الذي تتطلع إليه العيون مهابة وإجلالاً ـ كانت مشتاقة إلى أن يكون بينه وبينها رباط من مولود يملأ عليهما الحياة، ويضفي على البيت بهجة وسروراً. ولما أحسَّت ببوادر الحمل فرحت من أعماقها وأقبلت تزف البشري إلى زوجها، وما هي إلاَّ أيام حتى تلقّى الزوج الكريم أول مولودة له من زوجته الوفية البارَّة، ورنا إلى الطفلة بنظرة الأب الحاني العطوف، وقد سمَّاها «زينب».

ومن المعلوم أن إنجاب البنات في المجتمع العربي كان سبباً في سواد وجه الأب لما يظن أن ذلك يجلب عليه العار والخزي، والقرآن الكريم قد صوَّر لنا ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1]. لكنَّ محمداً فرح بالمولودة، وظهر البِشْرُ على وجهه مما يدل على سمو نفسه وعلوّ همته. وعطف محمد ﷺ على ابنته وأعطاها من حنان قلبه، وهو بذلك يغيِّر نظرة المجتمع إلى البنات وإنجابهن، فليس في ذلك عار كما يظن الجهلة أصحاب العقول الضعيفة، فالبنت شقيقة الولد، وكل منهما له رسالة في المجتمع، والله يُعْطي كل فرد ثوابه على عمله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[2].

---

(١) سورة النحل، الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٤.

وعاشت البنت في كنف أبيها يؤدبها ويهذب أخلاقها ويغرس فيها مكارم الأخلاق، وينمي فيها الصفات الحسنة، يتعهدها بتوجيهاته حتى إذا بلغت من العمر عشر سنوات بدأت عيون الهاشميين تتطلع إليها، وأصبح كل فتي في مكة يتمناها زوجة لنفسه ترعي له بيته وتشرف على شؤونه، لأنها العاقلة الفاضلة المهذبة الكريمة بنت محمد العظيم. وكان كل إنسان تحدثه نفسه، ولكنه لا يجرؤ على أن يعلن ذلك حتى لا يرفض طلبه. وكان هناك «أبو العاص بن الربيع»، أحد رجال مكة الذين لهم مكانة، وعندهم مال، ثم إن خالته السيدة البارّة خديجة بنت خويلد، فتقدم إليها وعرض عليها أن يكون له شرف الارتباط بزوج خالته العظيم عن طريق زينب، فأشارت إليه أن يتقدم إلى محمد من تلقاء نفسه، وتقدم أبو العاص إلى محمد وفاتحه في هذا الموضوع وقال له: «أنت نِعْمَ الصِّهْر الكفء العظيم». ولكنَّ محمداً لم يشأ أن يقطع برأيه حتى يشاور ابنته القريبة من قلبه، الحبيبة لنفسه، ثم انتقل إلى ابنته وعرض عليها ما تكلم به أبو العاص وقال لها: «يا بنتي، لَكِ ما أردْتِ». وصمت محمد، ولم يسمع منها أيّ ردٍّ ولا تعقيب، اللهم إلاّ خفقات قلبها الطاهر ودعوات أمها الحنون.

وَوُوفِقَ على هذا الزواج، وأبو العاص يلتقي نسبه مع النبي ﷺ عند عبد مناف بن قصي، فهو قرشي حميم، ويلتقي نسبه من جهة الأم مع خالة زينب هالة بنت خويلد بن أسد، ومع هذا الأصل العريق وصلة القربي فلقد كان كريمَ الخصال، حيث إنه كان يشتهر في وسط المجتمع بالأمانة.

العروس زينب

زُفَّتْ زينبُ إلى بيت زوجها أبي العاص، وعاشت عيشة طيبة ليس فيها ما ينغِّص حياتها، اللهم إلاّ تلك الفترات التي كان أبو العاص يسافر فيها في تجارته. وكانت زينب تعيش في بيتها، فإذا طال غياب زوجها انتقلت إلى بيت أبيها تجد في كنفه الحب والحنان.

ومضت الأيام هنية لا يعكر صفوها أي شيء، وقد اكتملت سعادتها بأنْ مَنَّ

الله عليها بمولودة سَمَّاها جدها «أُمامة» وكثيراً ما كان الجد يداعبها في حنان.

وكانت «أمامة» قرة عين لوالدها. لقد كان محمد في تلك الفترة يتعبد في غار حراء ويتحنث هناك الليالي ذوات العدد، وكانت تري أمها وهي راضية مسرورة ليس هناك ما يعكر صفوها، بل كانت تري في عيني أمها سرًّا لم تستطع إدراكه، ومضت الأيام، وذات صباح توجهت إلى بيت أبيها حيث كان زوجها في سفر، وعندما اقتربت من باب الدار إذ بأمها تخرج مسرعة ثم تعود بعد قليل والاهتمام بادٍ عليها، واقتربت من الحجرة التي يرقد فيها زوجها الكريم، ثم تنهدت وكأنها بذلك نفضت عنها بعض مخاوفها. وكانت زينب تنظر ولا تدرك ما يجري حولها، وإذا بفاطمة أختها الصغرى تقدمت منها وقالت لها: أبشري يا أختاه، فإنكِ بنتُ نَبِيٍّ هذه الأمة. فأسلمت في التوِّ واللحظة، ثم أصغت بأذنها وقلبها إلى أمها وهي تحدثها بإعجاب عن نزول الوحي على أبيها وهو في غار حراء، وأن الملَك من السماء نزل عليه وقال له: اقرأ يا محمد، وأنه جاء إليها يرتعش فؤاده من هول ما رأى، فدثَّرته وأراحته حتى نام، وانطلقت إلى ورقة بن نوفل الذي أخبرها أن الناموس الذي نزل على زوجها هو الناموس الذي نَزَلَ على موسى من قبل. وأصبحت الدنيا أمام زينب يغمرها نور وشعاع من هدي السماء بعد أن تنزلت آيات الوحي على أبيها.

موقف الزوج

عادت زينب إلى دارها وما هي إلاّ أيام وعاد زوجها أبو العاص من رحلته، وقد وصل إلى مسامعه ما تكلم به صهره من أن وحيَ السماء نزل عليه، وأسرَّتْ زينب إليه بالخبر، وأخبرته أنها أسلمت، لأن النبي هو أبوها، ثم هي تعرف من صفاته وأخلاقه أكثر ما يعرف الغَيْر. ولكن أبا العاص لاذَ بالصمت وقال: إني خائف لو اتَّبَعْتُ ما قاله صهري الكريم لقال القوم عني إني فعلت ذلك إرضاءً لكِ. وعاشا مع بعضهما أياماً هي مسلمة مؤمنة وهو على دينه. وطالت الأيام، وحُوصِرَ أبوها ومن معه من المؤمنين في شِعْب أبي طالب، وطال الحصار، وكانت هي

بالخارج يؤلمها ما يؤلم من بالشعب، ولكنها لا تملك إلاّ أن ترفع وجهها إلى السماء وتسأل الله أن يعينهم على محنتهم. وعندما فُكَّ الحصار ما هي إلاّ أيام حتى انتقلت الأم الكريمة «خديجة» ـ الأم الوفية التقية النقية التي أعطت ولم تأخذ، وضَحَّتْ ولم تسأل ـ إلى الرفيق الأعلى. ومضت الأيام، وهاجر أبوها الحبيب الغالي من مكة إلى المدينة، وبقيت هي وحدها تنظر إلى ديار الأحِبَّة فيمزق قلبها الأَسَى، وكانت تتذكر ما كان لها من أيام كلها سعادة بين أحِبَّة منهم من ذهبوا إلى غير رجعة كأمها خديجة وأولادها الذكور، ومنهم من هاجر واغترب كوالدها وأم كلثوم ورقية وفاطمة.

قلادة خديجة

ومضت الأيام، واقتربت نُذُر الحرب والاصطدام بين فئة مؤمنة بقيادة نبي طاهر، وفئة مشركة بقيادة أعداء الله وأعداء رسوله، ورأت قريشاً تتحرك لأول غزوة وأول اصطدام، وباتت لا يعلم إلا الله مَدَي ما بها. لم يُغْمَضْ لها جفن، ولم تنم لها عين. ومضت الأيام حتى جاءتها عاتكة بنت عبد المطلب عمتها فأخبرتها أن أباها انتصر على المشركين، فمنهم من قُتِل، ومنهم من أُسِرَ، ثم جاءت الأنباء بأن زوجها من ضِمْن الأسري ولا بد من الفداء يدفع عن كل أسير. ثم جاء عمرو بن الربيع شقيق أبي العاص وطلب من زينب أن تدفع الفداء لزوجها، فأرسلت قلادة كانت أمها أهدتها لها يوم زفافها، وما إن وصلت القلادة إلى يد الرسول حتى أطرق في خشوع وطافت أمام عينيه ذكري ذَكَّرَتْهُ بها تلك القلادة. إنها «خديجة» الزوجة الوفية التي شاركته أيام الرسالة الأولي وتحمَّلت العنت والإرهاق، ومضت إلى ربها قبل أن تذوق طعم الانتصار. ثم قال: **«تلك قلادة زينب إنْ أَرَدْتُم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا»**. فقال الصحابة: نعم يا رسول الله.

وبعد فك الأسير من أسره أدناه صهره الكريم وأَسَرَّ إليه بحديث مضمونه أنه يُرسل بزينب لأن الإسلام فَرَّقَ بينها وبينه.

أبو العاص يستجير

ووافق أبو العاص وعاد إلى مكة فجهَّز زينب لتلحق بأبيها، وعرفت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بسفر زينب، فأرسلت وراءها هبَّار بن الأسود الأسدي الذي روعها بالرمح ونَخَس البعير الذي تمتطيه، فوقعت زينب على الصخرة فنزفت دماً وطرحت جنيناً كان في أحشائها، وعادت إلى مكة حتى استراحت أياماً ثم خرجت إلى يثرب. ومضت أيام حتى كانت السنة السادسة من الهجرة. وفي ليلة من ليالي جمادي الأولي وجدت أن أبا العاص بن الربيع يدخل عليها بيتها، ولم تصدق زينب عندما رأته، ولكنه أخبرها أنه خرج في تجارة لقريش إلى الشام، فأخذ أتباع أبيها ما معه من المال، أما هو فهرب منهم وجاء يستجير بها. فقالت: مرحباً بك يا ابن الخالة يا أبا أمامة العزيز. ثم وقفت على باب بيتها تصيح: أيها الناسُ، إني أجرتُ أبا العاص بن الربيع.

وسمع الناس صوتها وفيهم رسول الله ﷺ، فقال: «**هل سمعتم ما سمعت؟**»، قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «**والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم**». ثم قال: «**إنه يجير على المسلمين أدناهم وقد أَجَرْنا مَنْ أجارت**». ثم سأل الرجال الذين كانوا في السرية وقال لهم: «**إن هذا الرجل منَّا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنَّا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فَيْءُ الله الذي أفاءه عليكم، فأنتم أحق به**». فأجابوا: بل نرده يا رسول الله.

إسلام أبي العاص

وأخذ أبو العاص ماله ورجع به إلى قريش، وأعطي كل ذي حق حقه، ثم وقف وقال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال؟ قالوا: لا. فقال: والله ما منعني من الإسلام إلاَّ أن تظنوا أني إنما أردتُ أن آكلَ أموالكم، أما الآن فأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله. ثم هاجر إلى يثرب، وحسن إسلامه، ورد الرسول عليه زوجته.

ومضى عام، وفي مستهل السنة الثامنة ماتت زينب، وكان بها آثار من علّتها عندما طرحها البعير، وصَلَّي عليها أبوها، وعاشت «أُمامة» صورة حية من الراحلة تؤنس الأب، وكان الرسول يحبها. ولم يتزوج أبو العاص حتى لحق بزينب في خلافة أبي بكر، وعاشت أمامة حتى تزوجت من عَلِيٍّ بن أبي طالب بعد وفاة خالتها «فاطمة الزهراء». وعاشت معه حتى قُتِلَ، وقال لها عندما طُعِنَ: إني لا آمن أن يخطبك هذا الطاغية «معاوية» بعد موتي، فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك «المغيرة بن نوفل». ولما انقضت عدتها أرسل معاوية يخطبها، وبَذَلَ لها من المال مائة ألف درهم، ولكنها رفضت وتزوجت «المغيرة بن نوفل» وعاشرها حتى ماتت من غير إنجاب، وبموتها انقطع عقب زينب، فرضي الله عنهم جميعاً، وألحقنا بهم في منازل الأبرار الأطهار، في يومٍ لا ينفع مال ولا بنون.

«رقية» و«أم كلثوم»

إذا كان المجتمع المكي قبل أن تشرق عليه أنوار الرسالة يكره البنات ويظن أنهم مجلبات للعار، مطيات للفقر، فإن محمداً الكريم غيَّر نظرة المجتمع في ذلك الحين، وقبل أن تنزل عليه الرسالة، فلقد رُزِقَ بزينب البنت الأولي من زوجته الوفية خديجة، أمَّا رقية فهي البنت الثانية في حياته، وعندما رزق بها لم يتضجَّر، واعتبرها بشري خير وبركة، وشاع بوجودها الدفء في البيت الكريم.

مصاهرة كريمة

ولم يذكر أحد ممن عاصر محمداً في أيامه الأولي أنه بدا عليه نوع من الضيق بإنجاب بنات في مجتمع ينطوي قلبه على الكراهية والبغضاء لإنجاب البنات... وعاشت «رقية» تنعم في بيت أبيها وتحبو من عام لعام حتى إذا ما اكتمل عودها وبدأت العيون تتطلع إليها، خاصة بعد أن انتقلت أختها زينب إلى دار زوجها أبي العاص، تمني كل فتي من أشراف قريش أن يكون له شرف المصاهرة بأبي البنات الكفء الكريم، ونظراً لأن أبا العاص من أقارب خديجة فقد اجتمع

أعمام النبي وتشاوروا فيما بينهم، واتفقوا على أنه لا بد أن يفوز بإحدي بنات محمد أحد أولاد عمه، وكان عبد العُزّي «أبو لهب» أحد أعمام النبي ﷺ، وزوجته أم جميل ـ حمَّالة الحطب ـ قد طلبا أن يزوِّجا «رقية» و«أم كلثوم» ابنيهما: الأولي من عُتْبة، والثانية من عُتيبة. ونظراً لأن أم جميل سوف تكون «حماة» للفتاتين الكريمتين فإن سيدتنا خديجة قد أشفقت على بنتيها، لأن أم جميل مشهور عنها القسوة وسلاطة اللسان، ولها إرادة تحكُّمية على زوجها وأولادها، كما أنها شرسة الطباع، وفيها صلف أحمق، وطيش أهوج.

وإذا كانت خديجة قد شعرت بانقباض فإنها لم تَبُحْ لزوجها بما في نفسها، خوفاً من أن يقال بأنها تُمانع في زواج بناتها من أقارب زوجها، ولذلك سكتت وهي تخشي على بناتها من تلك المرأة التي تفقد اتزانها لأتفه الأسباب.

أصهار الرسول

وانتقلت «رقية» إلى بيت زوجها وعاشت هناك، وكان محمد الأب الحاني العطوف يغمرها بودِّه وحُبِّه، ومضت الأيام، ونزلت الرسالة على سيدنا محمد ﷺ، ووقفت قريش تصدُّه عن دعوته، وترميه بكل ما في جعبتها من افتراء. ثم فكرت قريش في الذهاب إلى أصهار الرسول الثلاثة: «أبي العاص زوج زينب»، و«عتبة زوج رقية»، و«عتيبة زوج أم كلثوم»، وأن يطلبوا منهم أن يردُّوا على محمد بناته ليزداد همه وينشغل بهن في مجتمع لا يرحم. ولكنَّ أبا العاص كان كريماً، فرفض ما طُلب إليه، أمَّا أم جميل فقد أقسمت على ولديها أن يُطَلِّقا زوجتيهما. واستجاب الولدان، وكان أبوهما مسلوب الإرادة لزوجته ونسي ما توجبه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ على صلة القربى، ولكن المرأة العجوز أرادت أن تشفي غليلها من خديجة التي كانت ملء العيون مهابة وجلالاً.

وكانت أم جميل تؤلِّب الناس بلسانها على صاحب الرسالة وقد رُوِيَ أنه لما نزل قول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1]، ونادى الرسول على بطون مكة جميعاً واستمعوا إليه وهو يقول: «لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

عليكم أكنتم مصدقيّ؟»، قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد». فردَّ عليه عمه عبد العُزَّي ـ أبو لهب ـ قائلاً: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1] . . . لآخر السورة. وذلك أن زوجته كانت تحمل الشوك وكل شيء مستقذر وتطرحه في طريق رسول الله، ولما سمعت أُم جميل ما نَزَلَ فيها ذهبت إلى الكعبة ورسول الله ﷺ يجلس ومعه أبو بكر، وفي يد أم جميل قطعة من حجارة، فلما وقفت عليهما لم ترَ إلاَّ أبا بكر فقالت: أين صاحبك؟ بلغني أنه يهجوني، والله لو كان هنا لضربته بهذا الحجر. ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، ألم تَرَكَ؟ قال: «ما رأتني، إن الله أخذ بصرها عني».

رقية في المدينة

وعاشت رقية في بيت أبيها معزَّزة مكرَّمة، تلحظ أباها في غُدُوِّه ورواحه يبشِّر بالدعوة وينذر من كان حيًّا. وكان ممن آمن برسالته ومن السابقين إلى الإسلام وأحد العشرة المبشَّرين بالجنة «عثمان بن عفان»، وهو من أعرق بيوت قريش، وتقدم عثمان إلى رسول الله ﷺ يسأله شرف المصاهرة، وتزوج «رقية» وهاجر بها إلى الحبشة في المرة الأولى، وعاشت هناك ملء العيون مع زوجها البارّ الكريم، ثم عادت إلى مكة مع من عادوا، فوجدت أن أمها خديجة قد انتقلت إلى جوار ربها، وبعد فترة هاجر أبوها ﷺ إلى المدينة، فهاجرت في إثْرِه وعاشت هناك، ووضعت طفلاً سمَّته «عبد اللّه بن عثمان» فملأ حياتها، إلاَّ أن الزمن لم يطل به، فمات بعد سنتين من مولده، وعندما خرج أبوها ﷺ إلى غزوة بدر كانت مريضة وتخلَّف زوجها بجوارها ليمرضها، وعاد أبوها منتصراً، وما إنْ وصل إلى المسجد حتى وصل إلى مسامعه نعي ابنته «رقية»، فقام إلى بيتها وشيَّعَ جثمانها إلى مقره الأخير بعد أن صَلَّي عليها والحزن والأسَي ظاهران عليه!! طَيَّبَ الله ثراكِ يا ذات الهجرتين ورَزَقَنا الشهادة حتى نلحق بكِ ونكون معكِ في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

---

(١) سورة المسد، الآية ١.

وبعد أن انتقلت «رقية» إلى جوار ربها زَوَّجَ رسولُ الله ﷺ عثمان أختها «أم كلثوم»، وبقيت معه سنوات حتى لحقت بالرفيق الأعلي في حياة أبيها، لذا قال ﷺ يُعزِّي عثمان فيها: «لو أنَّ لنا ثالثة لزوجناك». وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على حُبِّ الرسول له، فقد كان ﷺ يعرف له فضله ورجحان عقله وحُسْن إيمانه، فقد كان عثمان رجلاً صالحاً، ليّناً، كريماً، حسن المعاشرة رضي الله عنهم أجمعين[1].

«السيدة فاطمة الزهراء»

شاءت إرادة الله تعالى أن يولد للنبي ﷺ قبل أن تنزل الرسالة عليه أربع بنات في بيئة كانت تعتبر ميلاد بنت واحدة عاراً لا يُمحي إلاَّ بوأدها أو إمساكها على هُون، فما بالنا إذا نظرنا إلى محمد الكريم ﷺ وقد رُزق بالبنت الرابعة فسمَّاها «فاطمة» ولم يظهر على وجهه أي أثر من الحزن أو الامتعاض؟

ولقد اقترن ميلاد هذه الطاهرة الزكية «فاطمة الزهراء» بحدث جليل في الجزيرة العربية وهو تجديد بناء الكعبة، وارتضاء قريش لأن يكون أبوها حكماً بينهم فيما شَجَرَ من خلاف في وَضْع الحجر الأسود في مكانه. وكانت سن النبي ﷺ في هذا الوقت خمساً وثلاثين سنة، قبل بدء الوحي بخمس سنوات.

ودرجت فاطمة في بيت الطهر والجلال والسعادة والصفاء. فأمها الطاهرة السيدة خديجة بنت خويلد أسعد الزوجات بزوجها العظيم الذي شهد له أهل مكة جميعاً بالصدق والأمانة، والمروءة والشهامة. وتقدمت بها الأيام، وما كادت تعي ما يدور حولها حتى رأت أباها يعتزل الناس ويختلي بنفسه في غار حراء، ثم شهدته وقد وعت وهو يقول لزوجته خديجة: «دثِّريني، دثِّريني» والعرق يتصبب منه. وعندما بَشَّرَ الرسول ﷺ بدعوته آمنت أمها على الفور وأخواتها جميعاً، وآمنت هي بنبوّة أبيها العظيم. وقد اعتزلت من تلك اللحظة ملاعب أمثالها واقتربت

(١) انظر: «عثمان بن عفان» لمحمد حسين هيكل، ص ٢٤ ـ ٢٥.

من أبيها تلحظه بحنان زائد وعطف بالغ، مما جعل منزلتها في قلب أبيها تزداد يوماً بعد يوم إعزازاً وسموًّا، حتى قال: **«خير نساء العالمين أربع: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة»**.

ومضت الأيام بسيدتنا فاطمة، حتى كان حصار المسلمين في شِعْب بني طالب، وعندما فُكَّ الحصار كانت سيدتنا خديجة قد بلغ منها الجهد، ونالت منها الأيام، وضعفت صحتها، فلما شعرت باقتراب أجلها نظرت إلى ابنتها فاطمة في حنان وعطف ومسحت بيدها الحانية على جبين ابنتها، وكان ما يدور بخلدها في تلك اللحظة هو أن زينب ورقية قد تزوَّجتا وأصبح لكلٍّ منهما مستقرّ وأم كلثوم لها من تجربتها في زواج سابق ما يجعلها تطمئن عليها، أمَّا الصغيرة فاطمة فإن أمها تخشي عليها، لأنها سترحل عن الدنيا عمَّا قريب وفاطمة ما زالت في ريعان الشباب ومقتبل العمر، وليس لها سابق عهد بالزواج، فكأنها كانت تُشعرها بحنانها البالغ وعطفها الزائد. ثم هاجرت إلى المدينة المنورة، وعاشت ترعي أباها بعد انتقال أمها الكريمة إلى ربها.

زواجها

والسيدة فاطمة كانت عظيمة منذ طفولتها فهي ربَّة أكرم بيت، تحملت الآلام والأحزان في شجاعة وصبر، فكم رأت الأعداء وهم يتهجَّمون على أبيها، وكم أزالت من على كتفيه التراب، وكم سمعت بأذنها ما كان يردِّده المشركون، ولكن الأقدار ألقت عليها مسؤولية قيادة البيت بعد رحيل أمها ورؤية كل تلك الأحداث، حتى كان يقال عنها إنها أنجح صغيرة قادت أعظم بيت، ولقد كان لرجحان عقلها وخفة روحها ما يجعل أباها يسكن إليها، لأنها تواسيه وتخفف عنه ما يلاقيه من آلام في سبيل دعوته، وقد تقدم إليها صفوة القوم يخطبونها لأنفسهم، ويطمع كل منهم أن ينال شرف المصاهرة من أبيها، خاصة أنها جميلة متبتِّلة، فإنها ريحانة الرسول ﷺ وأعلم نساء الأرض بالقرآن ومعانيه، ولكن كان الرسول ﷺ يردهم برفق، وكان ﷺ يستخير الله في كل أعماله، فانشرح قلبه لعليٍّ بن أبي طالب الذي

خطب الزهراء، ورحَّبَ به الرسول ﷺ، وكأنه أراد بذلك أن يرد جميل أبي طالب الذي رعاه صغيراً وآواه إلى بيته، وحماه من بدء الدعوة الإسلامية، ومن أكرم من الرسول الذي يكافئ الحسنة بأكثر من مثلها؟ وقد باع عليٌّ درعه ليجهِّز بثمنه ما يلزم العروس. وتم عقد الزواج في شهر رجب من السنة الأولي من الهجرة، وقد أقيم حفل العرس في بساطة تامة، وخطب عليٌّ يومها خطبة جامعة جاء فيها: «. . . وهذا رسول الله ﷺ زوَّجني ابنته فاطمة على خمسمائة درهم. . .».

وكم تمنَّت سيدتنا فاطمة أن تكون أمها خديجة تري فرحتها، وتشهد سرورها، ولكن ما شاء الله كان، وعندما انتقلت العروس فاطمة إلى بيت زوجها صحبها الرسول ﷺ، ودعا بماء فتلا عليه بعض آيات القرآن الكريم، ثم أمر العروسين أن يشربا منه، وتوضأ هو بالباقي، ونثره على رأسيهما وهَمَّ بالانصراف وهو يقول: «**اللهم بارِكْ فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما**». وقد استجاب الله تلك الدعوات الطاهرة، فكان منها النسل المبارك من آل البيت الأطهار. ولقد عاشت سيدتنا فاطمة مع سيدنا عليٌّ الشجاع الكريم، الذي أسلم صغيراً، وجاهد كبيراً، وفَدَي النبي في ليلة الهجرة، فكان أولَ فدائيٍّ في الإسلام.

كان الرسول ﷺ يحب عليًّا لخلقه وتواضعه وحيائه وعمله، يقول عنه الرسول ﷺ: «**إنه سيد في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، وإنه أكثر الصحابة علماً وأفضلهم حلماً، وأولهم إسلاماً**». . . وقد عاشت السيدة فاطمة في بيت عليٍّ عاملة على تهيئة الجو المناسب لزوجها، كادحة له لأن زوجها لم يستأجر لها خادمة لفقره. . . وقد ذهبت إلى أبيها مرة تشكو ثقل عمل المنزل عليها، وتسأله أن يعطيها إحدي السبايا لتقوم بخدمتها، ولكن الرسول ﷺ برغم حُبِّه الشديد لها ولزوجها قال: «**لا. . . لا أعطيكما وأدع أهل الصُّفَّة تتلوى بطونهم لا أجد ما أُنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم الثمن**». ثم علَّمها أن تقول عندما تأوي إلى فراشها هي وزوجها: سبحان الله ثلاثاً وثلاثين، ويحمدانه ثلاثاً وثلاثين، ويُكَبِّرانه ثلاثاً وثلاثين». فعاشت على ذلك حتى لقيت ربها.

ولم يخلُ بيت السيدة فاطمة من بعض الأمور التي تجري بين الزوجين،

وكان الرسول ﷺ يصلح بينهما، لأن حالة البيت من ناحية الرفاهية لم تكن متيسرة، حتى كان لهما غطاء واحد إذا تغطَّيا به من البرد القارس على رأسيهما انكشفت أقدامهما، ولكن الذي كان يعزِّي فاطمة هو المودَّة والصفاء، والإيمان والإخلاص.

السلالة الطاهرة

نعلم أن أبناء الرسول ﷺ لم يبقَ من نسلهم إلاَّ ما كان من فاطمة وعليٍّ، فقد وُلد الحسن بن علي من السيدة فاطمة في السنة الثالثة من الهجرة، وولد الحسين في السنة الرابعة من الهجرة، وكذلك زينب في السنة الخامسة، ثم ولدت أم كلثوم. وقد حَبا الله الزهراء البتول بحفظ نسلها، مما كان له أثر طيب في نفس الرسول ﷺ، مما جعله في أُبوة حانية على هؤلاء الأطفال، يحملهم على كتفه ويطيل السجود إن عَلَوْا على ظهره وهو ساجد، وينزل من على المنبر عندما يري الحسن والحسين يتعثران في مشيتهما ويحملهما ويصعد بهما ليكمل خطبته. ثم يراه الصحابة وقد أمسك بالحسين وهو مع صبيان في مثل سنه يلعبون في شوارع المدينة ويُقَبِّلُهُ ويقول: **«حُسين مِنِّي وأنا من حسين... اللَّهُمَّ أَحِبَّ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً»**... إن هذا الحب الجارف من هذا القلب العظيم الذي كان يحب الدنيا بأسرها لتلك الثمرة الطيبة المباركة جعلته يقول لابنته وقد سمع بكاء ابنها: **«أوَ ما علمتِ أنَّ بكاءَه يؤذيني؟»**.

لقد كانت سيدتنا الزهراء البتول فاطمة الكريمة التي يقول عنها أبوها العظيم: **«رِضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أَرْضَي فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخطَ فاطمة فقد أسخطني»**. ولقد شهدتْ في أيامها الأخيرة مكة وهي تدخل في دين الله، وأهل مكة وهم يعلنون الولاء لأبيها، ومع ذلك عاشت طيبة كريمة، تسعد بما يُتْلي عليها من القرآن الكريم في شأنها: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[2]. وحفظ الله نسل رسوله الكريم منها وحدها.

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

(٢) سورة هود، الآية ٧٣.

وفاتها

بعد أن شهدت انتصار أبيها وتبوأه مكانة الزعامة في الجزيرة العربية، مضت الأيام بها ليس هناك ما ينغِّص عليها حياتها أو يكدِّر صفوها، وانتقل أبوها ﷺ إلى الرفيق الأعلي بعد أن همس في أذنها بأنها أوَّلُ من يلحق به من أهل بيته. وكانت رضي الله عنها محسنة متصدِّقة، صوَّامة قوَّامة، وأفضل نساء أهل الأرض في زمانها... أَحَبَّها القريب والبعيد، ومدحها الشعراء على اختلاف الأزمان بينهم، وكَتَبَ فيها الكُتَّاب، وقال فيها الشاعر: «هي بنت مَنْ، هي زَوْج مَنْ، هي أُمُّ مَنْ، من ذا يُداني في الفخار أباها؟!...».

ثم لحقت بربها بعد وفاة أبيها بستة أشهر... فرضي الله عنها، وحشرنا في زمرتها يوم الدين.




الفصل الرابع
السلالة الطاهرة




السيدة سكينة (بنت الحسين)

يقف التاريخ وقفة إجلال وإكبار أمام آل بيت رسول الله ﷺ، لمنزلتهم الكريمة، وقربهم لرسول الله ﷺ.

وسيدتنا مدار حديثنا هي بنت الإمام الحسين سيد الشهداء، وبطل كربلاء، وكان المسلمون يجدون فيه نفحات من نبيهم الكريم، رآه عبد اللّٰه بن عمر ذات يوم فهتف قائلاً: هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء.

مولدها

ولدت سيدتنا سكينة عام ٤٧ هـ على الأرجح، والأعوام التي سبقت مولدها شهدت فيها المدينة أحداثاً تمخّضت عن مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكذا عثمان رضي الله عنه، ثم جدها لأبيها الإمام عليّ كرَّم الله وجهه.

وعندما ولدت في هذا العام سمَّاها أبوها آمنة، تيمناً باسم جدتها الكبري أم النبي ﷺ، ولأن فيها هدوءاً وسكوناً، وكانت مبعث أنس لآلها الكرام، يسكنون إلى مرحها وظرفها، خاصة في الظروف العصيبة التي كانت تمر بهم، ولقبتها أمها «سَكِينة» بفتح السين وكسر الكاف.

أمها

الرباب بنت امرئ القيس الذي أسلم في عهد عمر بن الخطاب، وعقد له اللواء على قضاعة بالشام، وقد درجت في بيت النبوة خالية البال من الهموم التي كانت تشغل فكر آلها في ذلك الحين، لأنه لم يكن قد مضى على مَصْرَع جدها أكثر من سبع سنوات، ثم إن عمها الإمام الحَسَن الذي بُويعَ بالخلافة وتنازل عنها حقناً لدماء المسلمين وبرغم ذلك فقد امتدت إليه يد الخيانة والغدر، فدسَّت له السُّمَّ، فلقي مصرعه بيد زوجته.

وإذا كانت ظلال الأسَى والكآبة تسيطر على البيت الهاشمي فإن صغر سنها لم يكن يعطيها عمق الإحساس الذي أحس به آل البيت الكرام، لذلك كانت تبدو لطيفة الطلعة، خلية البال في طفولة بريئة، تحاول إظهار الضحك والسرور لتسرِّي عَمَّنْ حولها. ولقد سألوها مرة: «إنكِ لَتَمْزَحِينَ كثيراً وأختك فاطمة لا تمزح»، فأجابت: «لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة، وسميتموني باسم جدتنا الأخرى». ولذلك كان أبوها يلتمس لديها الأنس لنفسه، لأنها كانت مبعث سرور قلبه لظرفها ومرحها. ولما عُوتب لكثرة جُلوسة مع السيدة سكينة وأمها الرباب أجاب مَنْ لامُوه بقوله:

لعمـــري إنَّنِـــي لأحـــبُّ داراً   تضيفهـــا سكينـــة والـــربـــابُ
أحبهـــا وأبـــذل بعـــد مـــالـــي   وليـــس لـــلائمـــي فيهـــا عتـــابُ
ولَسْـتُ لهــم وإنْ عَتَبُـوا مُطِيعـاً   حيـــاتـــي أو يغيبنـــي التـــرابُ

ويستفاد من ذلك شدة تعلُّق الإمام الحسين بابنته سكينة وزوجته الرباب التي أخلصت له الإخلاص الكامل، ووقفت بجواره تشد أزره، وتساعده على أمره، وتعينه على مسائله الخاصة والعامة. كما أن سكينة كانت تُتابع أباها بخواطرها وقلبها إذا غاب خارج المنزل، فإذا رجع إليه كانت أسرع مَنْ في البيت إلى لقائه، وهي تبتسم له ابتسامة الأنس والرضا، وتحاول أن تخفف عن أبيها ما كان يُثقل كاهله من هموم أمر الخلافة التي آلت إلى شخص لا يرعوي ولا ينزجر.

الأحداث في حياتها

كانت السيدة سكينة كلما تقدمت بها الأيام تشعر بما يحيط بأسرتها وما يجري حولها من أحداث، وبدأت تشعر بهذا الصراع المحتدم بين حق أبيها وباطل خصومه، وإذا كان ما قدمناه من أنها كانت خالية البال عريضة الابتسامة لا هَمَّ لها إلاَّ أن تملأ البيت بدعابتها المرحة، وتسرِّي عن أبيها، فإننا نلخِّص هنا أنها كثيراً ما هجرها النوم، وتلاعبت أمام عينها أشباحُ الهَمِّ، وكانت في الليل تري أباها وهو يتحرك فكان يزداد أرَقُها وحزنها، وكم مرت عليها الليالي دون أن يغمض لها

جفن، حتى إذا أشرقت الشمس كانت هي مشرقة معها الابتسامة المعهودة، ومرحها المألوف، حتى لا يشعر أبوها يما يعتلج في نفسها. ولقد كان شقيقها عبد اللّٰه الذي كان الحسين يُكَنِّي به لا يُظهر مثل ما تظهر هي، لأنه كان يحضر مع أبيه في المجالس، ويري ما يجري في المجتمعات الخارجية.

في دوامة الأحداث

قبل موت «معاوية» أخذ العهد لولده «يزيد» الذي أظهر الاستهتار بالقيم الدينية، وعدم الالتزام بالمنهج الديني، مِمَّا دعا أهل الكوفة أن يُكاتبوا الإمام الحسين ويطلبوا منه الحضور إلى ديارهم ليكونوا من ورائه صفًّا، ويعمل على تصحيح الأوضاع والأخذ على يد العابثين. وأجاب الحسين دعوتهم، وذهب إلى أهل العراق دون أن يعرف ما هو مُخَبَّأ له في علم الله، وكان معه آل البيت الأطهار، ومن بينهم سيدتنا سكينة، ودَنا الرَّكْبُ من مشارف الكوفة، ونزل الجميع، وغشيهم نوع من الحزن، لأنه في تلك الديار قُتِلَ أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب، ومضت معارك طاحنة. وكانت سكينة تبكي، لأنها رأت أن جند أبيها يتساقطون واحداً بعد الآخر، فبكت وكثر بكاؤها، فَدَنا إليها أبوها الحبيب ثم قال لها: سيطول بُعْدِي عنك يا سكينة فادَّخِرِي البكاء لغد، وإنَّ غداً لناظره قريب. ثُمَّ أوصي أمها «الرباب» أن ترعاها وأن تعتني بها.

ومضت لحظات من السكون دارت الأرض من تحتها وكبس عليها الهم من كل ناحية، وابتعد عنها النوم، وقلَّت ابتسامتها، ثم دارت المعارك بعد ذلك، ومضت الأيام، وقُتِلَ الإمام الحسين والكثير من أصحابه وأولاده وآل بيته، وسِيقَتِ العقائل الهاشميات إلى قصر الإمارة في موكبٍ تَعِسٍ لم تشهد الدنيا له مثيلاً من قبل، وكان من بينهم «سكينة» و«الرباب» ولقد سمعت «سكينة» أمها وهي تبكي وتقول:

واحُسَيْنـاً فـلا نسيـتُ حسينـاً أَقْصَدَتْـهُ أَسِنَّـةُ الأعـداءِ

غـادروه بكـربـلاء صـريعـاً لا سَقَـي الله جـانبـي كـربـلاءِ

وطافت الذكريات أمام «سكينة»، ثم استقر بها المقام مع أمها في المدينة بعد مشاهد مثيرة وأحداث عاصفة، فُتِّتَ منها الكبد، وهيجت منها مشاعر الحزن والأَسَى.

ومضت الأيام لا تكفكف لها دمعات، كما أنها لم تُظْهر أيَّ نوع من الرضا. وبعد أن انتهت مدة الحداد خُطبت أمها الرباب، ولكنها لم تقبل الزواج من أحد بعد الإمام الحسين، ولقيت ربها بعد عام من تلك الأحداث، وأقامت سكينة عند أخيها «زين العابدين علي بن الحسين».

سكينة الزوجة

تزوجت سيدتنا من «مصعب بن الزبير» حوالي سنة ٦٦ هـ، وقد استقبلت دنياها الجديدة بوجه يتألق بشراً، وبدأت حياة جديدة، حاولت أن تنسي كل شيء مَرَّ أمامها، خاصة أن لها ضرة اسمها «عائشة بنت طلحة» كانت مشهورة بالجمال والذكاء، إلا أن السيدة «سكينة» كانت أذكي من الجميع، ومشهور عنها العلم، والأدب، والفقه... ومن الأخبار المروية أن «سكينة» شهدت يوماً مأتماً فيه بنت لعثمان بن عفان، فقالت العثمانية: أنا بنت شهيد. فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها بمسمع من بنت سيد الشهداء، على حين أمسكت «سكينة» صامتة لا تعلِّق إلى أن أَذَّنَ المؤذن من مسجد الرسول ﷺ، فلما بلغ قوله: أشهد أنَّ محمداً رسول الله، التفتت سكينة إلى بنت عثمان وسألتها: أهذا أبي أم أبوك؟ فأجابت العثمانية في تواضع: لا أفخر عليكم أبداً.

كما أنها كانت شجاعة، ويدلّنا على شجاعتها ما مرَّ أمام عينيها من أحداث أبيها في كربلاء، وكانت آية في ضبط النفس والتحكُّم في عواطفها، والسيطرة على وجدانها، وكانت في المجتمع الذي تعيش فيه ملء العيون جلالاً ووقاراً.

وفاتها

عاشت سيدتنا الكريمة حياتها وهي تمثل مكاناً مرموقاً في المجتمع، وتنقَّلت

من مكان إلى مكان، وهي في كل ذلك على صلة بربها، عابدة متبتّلة، صوّامة قوّامة، يتحدث الناس عن جمالها الفتّان. وتستغرق في العبادة لحظات طويلة، وكانت لها مناجاة مع ربها إلى أن وافتها المنية في عام ١١٧ هـ، فرضي الله عنها وأرضاها وألحقنا بها في الصالحين.

السيدة فاطمة النبوية

بنت الإمام الحسين بن عليّ، زوج الطاهرة البتول فاطمة الزهراء... سلالة طيبة أذهب الله عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيراً.

اختار الله نبيه منهم، وكان جبريل عليه السلام ينزل ويصعد من عندهم، وهم الأطهار الأبرار، في بيوتهم تنزّلت آيات السماء، ومن أفعالهم أخذت خصال الخير، افترض الله على المؤمنين مَوَدَّتهم وجعلها من علامة الإيمان ودعائم الإسلام، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]. وحَضَّت السنّة الشريفة في الأحاديث الصحيحة على حُبّهم ومودّتهم، فقد قال ﷺ: «أَحِبُّوا الله لما يغذوكم به من نِعَمِه، وأحبُّوني لِحُبِّ الله، وأحبوا أهل بيتي لِحُبِّي». وقال ﷺ: «أُذَكِّرُكُم الله في أهل بيتي، وإذا كان لكل شيء أساس فأساس الإسلام حُبُّ أصحابِ رسول الله ﷺ، وحب أهل بيته».

وحول هذا المعنى قال الشاعر:

أحبُّ النبيَّ المصطفى وابنَ عمه ... عليًّا وسِبْطَيْهِ وفاطمة الزَّهْرا
هُمْ أهلُ بيتٍ أذهب الرجس عنهم ... وأطلعهم أُفق الهدي أنجما زُهْرا
مُوالاتُهُمْ فَرْضٌ على كل مسلم ... وحُبُّهُمُ أَسْنَى الذخائرِ الأُخرَى
وما أنا للصحْبِ الكرام بمبغضٍ ... فإني أرَى البغضاءَ في حقهم كُفْرا

ويقول الإمام الشافعي:

يا أهلَ بيتِ رسول الله حُبُّكُمُ ... فرضٌ من الله في القرآنِ أَنْزَلَهُ

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

يكفيكمو من عظيم الفَخْرِ أنكمُ   مَنْ لَمْ يُصَلِّ عليكم لا صَلاةَ لَهُ

ويقول الفرزدق:

من معشر حبهم دين وبُغْضُهُمُو   كفرٌ وقربهم مَنْجَى ومعتصمُ
مقدمٌ بعدَ ذِكْرِ الله ذكرهمو   في كل بَدْءٍ ومختومٍ له الكَلِمُ
إنْ عُدَّ أهلُ التُّقَى كانوا أئمتهم   أو قيل: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الأرضِ؟ قيل: هُمُ

وسيدتنا «فاطمة» هي من تلك السلالة الطاهرة، والدوحة النبوية الكريمة، لأن أباها هو الإمام الحسين ـ سيد شباب أهل الجنة ـ وريحانة المصطفى، صلوات الله وسلامه عليه، والذي كان يحمله على عاتقه ويُقَبِّلُه. وقد رَوَي أبو هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحَسَنُ والحُسَيْنُ على عاتقه، يلثم هذا مرة وهذا مرة، حتى انتهي إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله، إنك تحبهما؟ فقال: «مَنْ أَحَبَّهُما فقد أَحَبَّنِي، ومَنْ أَبْغَضَهُما فقد أَبْغَضَنِي».

أمها

أما والدتها فهي أُمُّ إسحاق بنت طلحة بن عبد اللّه... نقية طاهرة، ذكية صالحة، كانت زوجة للإمام الحَسَن، ولما شعر بدنوّ أجله دعا الإمام الحسين فقال: يا أخي، إني أرضي هذه المرأة لكَ فلا تخرجنَّ من بيوتكم، فإذا انقضت العِدَّة فتزوَّجها. فلما توفي الإمام الحَسَن وانقضت عِدَّتُها تزوجها الإمام الحسين، فولدت له «فاطمة» الصغرى، وقيل الصغري للفرق بينها وبين فاطمة الزهراء جدتها الكبرى، رضي الله عنهم جميعاً.

نشأتها

نشأت رضوان الله عليها في بيت تُتْلَي فيه آياتُ الله، ويتحدث الجميع عن القيم الأخلاقية والفضائل التي يجب أن يتحلَّي بها كل إنسان ليشعر بسعادة القلب وهدوء النفس وراحة البال، وقد اقتبسوا ذلك من قول جدِّهم الإمام عليٍّ رضي الله عنه:

ولَسْتُ أرَى السَّعادَةَ جَمْعَ مالٍ ولكــنَّ التَّقِــيَّ هــو السَّعِيــدُ

فنشأت تقية متديِّنة، عفيفة مهذبة، عابدة عالمة، أديبة فصيحة. لها مميزات خاصة من الحُسْن والجمال، والاستغراق في العبادة، وظلت طوال حياتها من الصالحات القانتات، تراقب ربها في غدوِّها ورواحها ونشأت على ذلك من الصِّغَر، ومَنْ شَبَّ على شيء شابَ عليه، فكانت تناجي ربها وتتضرع إليه، وتقدم بين يدي الله حب الناس جميعاً، وتقديم المساعدة لكل إنسان. ولما كانت هي أكبر من السيدة «سكينة» فقد عُرفت بالسكون والهدوء، والاستغراق في العبادة، بخلاف السيدة «سكينة» التي عُرفت بالمرح، ولما سئلت السيدة «سكينة» عن ذلك وقيل لها: إنك لتمزحين كثيراً وأختك «فاطمة» لا تمزح، أجابت من فورها: لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة وسميتموني باسم جدتنا الأخرى.

والقصد من ذلك أن «فاطمة» سُمِّيَتْ باسم فاطمة الزهراء. وتقدمت السن بسيدتنا فاطمة، وبلغت مبلغ الفتيات الكواعب، فخفقت قلوب الشباب الهاشمي والقرشي نحوها، وتمني الجميع أن يكون له بابن بنت رسول الله ﷺ صلة نسب ومصاهرة.

كل شخص كان يتمني أن يسعده زمانه وأن تكون تلك الدُّرَّة الغالية الفريدة في حسنها وأدبها من نصيبه... وقد تهيَّب الجميع أن يُفاتح الحسين في ذلك، وكان شابًّا من تلك الدوحة المباركة تقدم من الإمام في حياء وخجل أن يزوِّجه بنتاً من بناته.

زواجها

والذي تقدم للإمام الحسين وطلب منه هذا الطلب هو الحَسَن المثنى بن الحَسَن بن عليٍّ كَرَّم الله وجهه، فهو قد تقدم إلى عمِّه وطلب منه أن ينال هذا الشرف، وأن ينال ما تصبو إليه نفسه، وقد رحَّب العم بابن أخيه وقال له مجيباً على طلبه: اخترتُ لك ابنتي فاطمة، فهي اكثر ابنتيّ شبهاً بأمي «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ، وإنها لذات دين وجمال... وقد تزوجها الحَسَن المثني فولدت له

عبد اللّه، وعاشت معه عيشة طيبة حتى مات عنها، فتزوجت بعده عبد اللّه بن عمر بن عثمان بن عفان.

في مهب الريح

إن الله جلَّت قُدرته وضع آل البيت موضع الاختبار والامتحان، فتوالت عليهم مِحَنٌ ومحن، ليكونوا قدوة للناس في الصبر والرضا بقضاء الله، وإذا كان الرجل يُبْتَلَي على قَدْرِ دينه، فإن البلاء الذي نزل بآل البيت وحَلَّ بساحتهم ثم صبرهم عليه وعدم الجزع وعدم السخط جعلهم أسوة وقدوة للأمة الإسلامية، وصدق رسولُ الله ﷺ إذ قال: «**يُبْتَلَي الرجلُ على قَدْرِ دينه... وأشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**».

وفي سياق حديثنا لا بد أن نتعرض لذكر كربلاء، يوم قُتِلَ الإمام الحسين وهو يدافع عن الحق، ويذود عن الشرف، ويناضل عن الكرامة، وسقط شهيداً كريماً، ثم سِيقَتْ عقائل بني هاشم في السَّبْي والأَسْرِ، وإنه ليوم رهيب فظيع لا ينساه مَنْ شَهِدَهُ، وخاصة آل البيت النبوي الكريم... فالإمام الحسين دفع حياته ثمناً للذَّوْدِ عن الحق وإعلاء كلمة الإسلام، وبعد ذلك حُمِلَ رأسه الطاهر مع رؤوس الشهداء الأبرار الذين سقطوا معه على أَسِنَّةِ الرماح إلى الطاغية «يزيد بن معاوية».

كانت سيدتنا «فاطمة» قد سلَّمها أبوها كتاباً وأمرها أن تُسلِّمه إلى أخيها «عليِّ بن الحسين»، وهي أمينة على أسرار الأب العظيم الذي لم يتراجع إلى الوراء والأَسِنَّة مُشْرَعَة من حوله، ولم يُظهر أي نوع من السخط، وإنما أقدمَ على الموت كما يُقبل الظمآن على الماء شوقاً إلى الجنة ولقاء الأحبة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1].

وقد كانت فاطمة بنت العشرين عاماً من بين آل البيت النبوي الكريم، وقد

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٦٩ ـ ١٧٠.

وقف الجميع أمام «يزيد» وعلي وجوههم النور، وعلي ألسنتهم كلمة الحق تدوِّي، فلا خوف من أحد مهما كان، وإنما الخوف من الله الواحد الدَّيَّان. وقد كان يجلس رجل في مجلس «يزيد» ونظر إلى فاطمة نظرة كريهة تراجعت بسببها إلى صدر عمتها «زينب»، وإذا بالرجل يقول في صوت أجشّ: يا يزيد، هَبْ لي تلك الجارية ـ أراد أن يتخذها جارية عنده ـ ولكن سيدتنا «زينب» تصيح في صوت مِلْؤُهُ الشجاعة وتقول: «كَذَبْتَ ولئمتَ، فليس ذلك له ولا لك ولا من حقه».

وثار «يزيد» وكبر في عينيه أن تهاجمه السيدة الطاهرة «زينب» على هذه الصورة، وردَّ عليها بأنه يستطيع أن يفعل، وتجيبه بقولها: «إنكَ لأضعفُ أن تفعل ذلك إلاَّ إذا خرجت من مِلَّة الإسلام وتبرَّأت من دين الله». وسكت «يزيد» على مضض، لأنه شعر بضعفه أمام قوة الحق الذي يخرج من فم «زينب»... ومضت أيام وأحداث كربلاء أمام عيني «فاطمة» فبكت وبكت على مصرع الأب العظيم، وعلي مصرع الأحبة من حوله.

ولم يلتئم جرحها بعد ذلك قَطّ إلى أن لقيت ربها.

نهاية المطاف

كان الجرح في قلب فاطمة عميقاً، ولم تستطع الأيام أن تمحو آثاره، وكيف لا، وقد شهدت ورأت «وليسَ راءٍ كَمَنْ سَمِعَ»... وقنعت سيدتنا «فاطمة» من حياتها بما أفاء الله عليها، ولما توفي زوجها انصرفت عن الدنيا وأقبلت على التعبُّد والاعتكاف، وعرف الناس لها مكانتها، فأقبلوا عليها، وأَحَبُّوا مجلسَها، واستمعوا إليها وهي تروي الحديث عن جدتها الزهراء، وقد كانت خطيبة بليغة، وشاعرة فصيحة.

وإنها لقدوة حسنة للمرأة المسلمة بسيرتها الحميدة المعروفة بالعفَّة والفضيلة، والصبر والتجلُّد، ومساعدة الناس، وحب الخير للجميع، وعاشت على هذا حتى لحقت بربها عام ١١٧ هـ ـ وهي السنة التي توفيت فيها السيدة سكينة ـ رضي الله عن الجميع وأرضاهم.

السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور

الذُّرِّيَّة الطيبة الصالحة يُكتب لها الخلود، ويُتَحَدَّثُ عنها بالإكبار والإعزاز، ويحفظ التاريخ آثارها، مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾[1].

والسيدة «نفسية» شريفة طاهرة، وزهرة يانعة، كريمة العنصر والمنبت... هي من سلالة أَذْهَبَ الله عنهم الرجس وطَهَّرَهُم تطهيراً.

من بيت النبوة، من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها... إنها النقية العفيفة، الزاهدة الساجدة، العابدة المتبتِّلة، قارئة القرآن ومفسِّرته، العالمة الأديبة، أُمّ العواجز والمساكين.

مولدها

شاء لها القَدَر الميمون أن تري الدنيا في ذكري ميلاد النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ، حيث إنها ولدت في الحادي عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٤٥ هـ، وكان مولدها بمكة المكرمة، فجمعت بين أفضل البقاع وأفضل الأيام، لأن أفضل البقاع مكة بلا منازع، وأفضل الأيام يوم ميلاد النبي، وتأمل معي قول أمير الشعراء شوقي:

يَوْمٌ يَتِيهُ عَلَى الزمانِ صَباحُهُ   ومســـــاؤه بِمُحَمَّـــــدٍ وَضَّـــــاءُ

ولمَّا عَلِمَ أبوها بمولدها سُرَّ سروراً عظيماً، ونظر إليها فإذا هي تشبه أختَه «نفيسة بنت زيد» رضي الله عنهم جميعاً، وعلى الفور سمَّاها «نفيسة» لتُذكِّره بأخته الطيبة الصالحة، النقية الكريمة، صاحبة اليد الطولي في كَفْل الأيتام، ورعاية العميان، ولأنها دفعت زوجها لفعل الكثير من الخيرات مِمَّا يُذكر لها بالفضل.

---

(١) سورة فصلت، الآيات ٣٠ ـ ٣٢.

وتمنى أبوها أن تكون ابنته على جانب من الصلاح مثل ما لعمتها، ولذلك سمَّاها «نفيسة».

أبوها

هو الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم وأرضاهم... فهي من تلك الدوحة التي طابت فرعاً وزكَتْ أصلاً.

لقد كان الحَسَن إماماً في الدين، وعالماً كبيراً من خيرة التابعين، ثم إنه كان مُجابَ الدعوة لصلاحِهِ وتحرِّيه الحلال في المأكل والمشرب.

كان متواضعاً جدًّا، فقد حُكي أنه دخل عليه أحد الشعراء فأنشد يمدحه:

«الله فرد وابن زيد فرد»

فأسكته وقال: لا تكمل يا رجل، وغضب وقال له:

«الله فرد وابن زيد عَبْدٌ»

ثم نزل من على سريره وألصق خَدَّهُ بالأرض وهو يسبِّح الله ويبرأ مما قال هذا الشاعر... وهو فعل ذلك أُسْوَة بالنبي الكريم الذي كان إذا مدحه أَحَدٌ من الصحابة أو عَظَّمَهُ قال: **«لا تعظِّموني ولا تطروني كما أَطْرَتْ النصاري عيسي ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله»**. وفي رواية أخرى: **«إنما أنا ابن امرأة كان تأكل القَدِيدَ بمكة»**.

كان والياً على المدينة من قِبَلِ الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. وفي خلافة المهدي وليها كذلك للمرة الثانية، ولقد مات رضي الله عنه وهو في طريقه إلى الحج، فختم أيامه بأحسن الأعمال وأَجَلِّها.

أمها

أمها أُمُّ وَلد تَسَرَّي بها أبوها، فكانت تلك البضعة الطاهرة، ولا يغيِّرها ذلك ولا ينتقص من قدرها، لأن التَّسَرِّي مِمَّا أباحه الله وجعله حلالاً إذا استكمل

شروطه، ومعظم العلماء الأفاضل كانت أمهاتم أم ولد، ولم ينقص ذلك من قَدْرِهِم شيئاً.

نشأتها

نشأت رضي الله عنها نشأة طيبة، فإن اليُمْنَ عُقِدَ بناصيتها، وامتزج الخير بأنفاسها، فهي وُلدت بمكة، ومكثت بها خمس سنين، ثم سافرت إلى المدينة المنورة ـ علي ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ ومن الصِّغَر لُقِّنَتْ مبادئ وأساس الإسلام، وبدأ أبوها يحفِّظها القرآن الكريم، لأنه أساس الفلاح، ومعراج اليقين، ثم هي كانت تذهب إلى المسجد النبوي تسمع من شيوخه، وتتلقن الفقه والحديث من علمائه، وسمعت من الإمام مالك مُوَطَّأه. وقد شُغفت بحديث جدِّها، فحفظت الكثير منه، وصارت بذلك مضرب المثل في العلم والأدب، ولُقِّبت «نفيسة العلم»... والإمام الشافعي مع عُلُوِّ قَدْرِهِ ومنزلته العلمية سَمِعَ عليها الحديث، وأخذ منها الكثير مما استفاد به في حياته العلمية.

قالت زينب بنت يحيي المتوِّج: كانت عمتي نفيسة تحفظ القرآن وتفسِّره، وكانت تقرأ القرآن وتبكي وتقول: إلٰهي وسيدي يَسِّرْ لي زيارة خليلك إبراهيم عليه السلام. لأنها كانت تعلم أنه أبو الأنبياء، أي إنه أبو جدها الأعظم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه. ولما تحققت تلك الأمنية تقول هي:

ما إنْ بلغتُ المقامَ الكريم ووقفتُ بين يدي جدي إبراهيم خليل الله حتى أجهشتُ بالبكاء ـ بكاء سرور ـ لتحقيق أمنيتي في زيارة الخليل، وجلست أقرأ القرآن.

وتقول نفس الرواية: خدمتُ عمتي السيدة نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت بليلٍ ولا أفطرت بنهار، إلا العيدين وأيام التشريق، وكنت أقول لها: ألا ترفقين بنفسك؟ فتردّ وتقول: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لا يقطعها إلا الفائزون.

ويؤخذ من هذا أنها نشأت على التُّقَي والوَرَع، وكانت من الرائدات على طريق الخير، مالت من الصِّغَر إلى الجدِّ والاستقامة، والبُعْد عن زخرف الحياة

الدنيا وزينتها حتى لا تنجرف في تيار اللهو والفراغ. كانت الآخرة والموت نُصْب عينيها... وكانت عزيزة النفس، تربأ بنفسها عن مواطن الذل والابتذال، وتصون شخصيتها عن الامتهان والهوان، وهي مع ذلك لا يذهب بنفسها زهو أو كبرياء، بل هي متواضعة في غير ذل... كانت كريمة الأخلاق، شريفة الطبع، كثيرة الخير، تواسي البائسين، وتسعف الملهوفين، وتفرج كرب المكروبين... لا تردُّ سائلاً، ولا تمنع مستجدياً... وهب لها أحد الأمراء مائة ألف درهم وقال: خذي هذا المال شكراً لله لتوبتي، فأخذَتْهُ وصَرَّتْهُ صُرَراً بين يديها، وفرّقت الصُّرَرَ عن آخرها، وكان عندها بعض النسوة، فقالت لها واحدة: يا سيدتي، لو تركتِ لنا شيئاً من هذه الدراهم نشتري به شيئاً نفطر عليه! فقالت لها: خذي غَزْلاً غزلتُه بيدي فبيعيه واشتري به طعاماً. فذهبت المرأة وباعت الغَزْلَ واشترت الطعام بثمن الغَزْل ولم تقبل أن تَدَّخِرَ من المال المُهْدَي إليها أي شيء، لِعِفَّتِها وقناعتها. فهي كانت تأكل من عَمَلِ يدها، وهي من قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصَة.

زواجها

إن النشأة الكريمة للبنت تجعلها محل إعجاب من الجميع، لذلك ما إنْ بلغت سيدتنا سنَّ الزواج حتى تمنّي الجميع أن تكون من نصيبه تلك الكريمة، ومن هنا رغب في خطبتها شباب من خيرة الناس، وخاصة من بني الحُسَين والحَسَن رضي الله عنهم.

وقد كان هناك حديث يتردد عن تقواها وبرِّها، ودينها وخُلقها، ويزيد على ذلك إقبالها على العلم والمعرفة، علاوة على ما حباها الله به من حُسْن فائق وجمال رائع، كل ذلك جعل الخُطَّاب يكثرون، ويتمني كل شخص أن تكون في بيته أمًّا لأولاده، ومربية لهم، وراعية لشأنهم، وكان ممن تقدم للخطبة إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق، ولكنَّ أباها حَسَن الأنور لم يردّ عليه، فذهب إسحاق المؤتمن إلى روضة النبي ﷺ، ووقف تجاه القبر في خشوع وإجلال وقال: يا رسول الله، إنّي خطبتُ نفيسة بنت الحَسَن الأنور من أبيها فلم يردّ عليَّ جواباً،

وإني لم أخطبها إلاَّ لخيرها ودينها وعبادتها وخُلقها... وفي تلك الليلة رأى الحَسَن النبي ﷺ في المنام وهو يقول له: «يا حَسَن، زَوِّجْ نفيسة من إسحاق المؤتمن». فما أفاق من نومه حتى بعث إلى إسحاق يستدعيه، وقد سارع إسحاق إليه فأخبره الخبر، وأُعلنت الخطبة.

وفي جَمْعٍ من آل البيت وجماعة من أشراف قريش عُقد عليها لإسحاق المؤتمن الذي كان يُعَدُّ من أهل العقل والوَرَع والصَّلاح، وينتهي نسبه إلى أبي الشهداء الحسين بن عليٍّ، وكان الزواج بينهما جَمَعَ سيدي شباب أهل الجنة «الحسن والحسين»، يقول المقريزي في خططه: وتزوج بنفيسة رضي الله عنها إسحاق بن جعفر الصادق رضي الله عنهما. وكان يقال له إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين، روي عنه الحديث، وكان ابن كاسب إذا حدَّث عنه يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر... وقد قَدِمَ معها «مصر»، وكان يقال له «الحزين» لأنه لم يُرَ ضاحكاً.

وإذا كانت السيدة «نفيسة» اتجهت بكل قواها إلى كتاب الله استجلَّت غوامضه، وتمتعت بقوة الذاكرة الحافظة، وصفاء النفس، وقيام الليل، وصيام النهار، فإنها مع ذلك كانت زوجة مخلصة، لم تقصِّر في أمر مسؤوليتها كزوجة. كان زوجها يُفاخر بها الدنيا لما لمسه فيها من وفاء وأداء للواجب، ولم يشغلها أي أمرٍ عن الحقوق الزوجية. وهي أمٌّ كانت ترعي حقوق أولادها، وتغدق عليهم العطف والحنان والرعاية، لينشأ أبناؤها على التُّقي والهدي والصلاح، وقد ولدت من إسحاق: «القاسم» و«أم كلثوم».

قدومها إلى مصر

طوفت سيدتنا «نفيسة» في كثير من البلاد، زارت بعض المشاهد، ووقفت على بعض الأمور، وانتهي بها المطاف أن وصلت إلى مصر يوم السبت ٢٦ رمضان سنة ١٩٢ هـ، وقد استقبلها أهل مصر عند «العريش» وهم يُهَلِّلُون أمامها ويُكَبِّرُون، ونزلت في مصر معزَّزة مكرَّمة، واستقر بها المقام في بيتٍ لسيدة تقية صالحة تسمَّي

«أم هانئ» وما زالت بها يفد إليها الناسُ من كل حدب وصَوْب، خاصةً طُلاَّب الحاجات، وراغبي الدعوات، وملتمسي النفحات والبَرَكات. وقد كان لها كرامات كثيرة في حياتها، وقد ذكر لها الإمام ابن حجر رضي الله عنه أكثر من مائة وخمسين كرامة، لأن الولي إذا كان في الدرجات العُلا من العبادة والصلاح استطاعت روحه البرزخية أن تنطلق في الآفاق.

وفاتها

بعد حياة مليئة بجلائل الأعمال وعظيم الشأن في دنيا الناس، همس إسحاق المؤتمن في أُذُن زوجته وقال لها: ارحلي بنا إلى الحجاز. فقالت: لا أستطيع ذلك، لأني رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام وقال لي: «**لا تَرْحَلِي من مصر، فإن الله تبارك وتعالى متوفيك فيها**».

وبعد ذلك بدأت تحفر قبرها بيدها، وذلك لشدة شوقها إلى لقاء الله، ثم إنها أحست بوعكة في أول رجب، فكتبت إلى زوجها الذي كان غائباً في المدينة تطلب إليه الحضور لإحساسها بدنوّ أجلها، ولبثت مريضة حتى العشر الأواسط من شهر رمضان، وكانت صائمة لا تفطر، وقد نصحها الأطباء بالإفطار فرفضت وقالت: واعجباً! إنَّ لي ثلاثين سنة وأنا أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يتوفَّاني وأنا صائمة، أفأفطر؟ معاذ الله... ثم أنشدت تقول:

اصْرِفُوا عني طَبيبي ... ودَعُوني وحبيبي
زادَ بي شَوْقي إليه ... وغرامي في لهيبي
طاب هَتْكِي في هَواه ... بين واشٍ ورقيبِ
لا أُبالي بفواتٍ ... حيث قد صارَ نَصيبي
ليسَ من لامَ بِعَذْلٍ ... عنه فيه بِمُصيبِ
جسدي راضٍ بِسَقْمي ... وجُفُوني بِنَحِيبي

وقد انصرف الأطباء وهم معجبون بقوة عزيمتها، وشدة يقينها، وثبات دينها، وفي ليلة وفاتها استفتحت بقراءة سورة الأنعام، فلما وصلت إلى قول الله: ﴿قُل لِّلَّهِ

كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[1] فاضت روحها الطاهرة، وكان ذلك عام ٢٠٨ هـ، وحضر زوجها في اليوم الذي تُوفيت فيه، وتولي أمرها حسب وصيتها، ثم إنه جَهَّزَ تابوتاً لنقلها إلى البقيع لتُدْفَن مع آل البيت، ولكن أهل مصر عَزَّ عليهم ذلك، وطلبوا منه دفنها بمصر. . . وبعد حوار لم يقتنع به زوجها، وعندما نام في تلك الليلة رأي النبي ﷺ في المنام، وقال له: «يا إسحاق، رُدَّ على الناس أموالهم وادفنها عندهم». ففرح أهل مصر وهَلَّلُوا وكبَّروا. . . وما زال ضريحها حتى الآن يَفِدُ إليه الكثير من الناس للزيارة والتبرُّك. يقول السخاوي في التحفة: ولم يزل الصالحون والأئمة والفقهاء والقُرَّاء والمحدِّثون والعلماء يزورون مشهد السيدة «نفيسة» رضي الله عنها ويدعون عنده، رضي الله عنها وحشرنا في زمرتها يوم الدين.

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢.




الفصل الخامس

أسماء مضيئة في التاريخ




سمية (أم عمار بن ياسر)

يحفظ التاريخ شخصيات أضاءت الطريق بأنوار لامعة، وسجِّلت اسمها في سجل الخلود، وهؤلاء الأسماء هم الروّاد الأوائل لطُلاّب الخير وعُشّاق المعرفة، تتّسم حياتهم بثبات العقيدة، وقوة الإرادة، ومضاء العزيمة. ومن هذه الشخصيات «سُمَيَّة» التي عُرفت في التاريخ بأنها من آل ياسر، الذين بشَّرهم المصطفى ﷺ بقوله: «صَبْراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة». وهي أول شهيدة في الإسلام، سَجَّلت بدمها الزكي سطورَ الخلود في صفحات التاريخ.

اسمها

سمية بنت خباط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم.

ومما يحفظه التاريخ من شأنها أنها كانت أَمَةً حبشية سمراء، لا تملك من أمر دنياها إلا أنها تقوم بالخدمة في بيت مولاها الذي يأويها في بيته. وشاءت المقادير أن ياسر بن عامر كان من أهل اليمن، وخرج إلى مكة للبحث عن أخيه الذي فُقِدَ وانقطعت أخباره منذ مدة زمنية. وجاء ياسر إلى مكة وعاش فيها مدة قصيرة أحس فيها بالوحدة والملل، خاصة بعد تفرُّق القبائل في رحلتي الشتاء والصيف. وكان ياسر مشدود الخاطر إلى مكة بلد الحجيج وملاذ اللائذين، غير أن الجو في مكة لا يسمح بإقامته وحده، لأن الشعار المرفوع في مكة وقتئذ هو البقاء للأقوى، فكان على ياسر أن يوطِّد علاقته بسيد من سادات قريش يلتمس حمايته ويعيش في كنفه ليبعد عنه من أراده بسوء، فتحالف ياسر مع حذيفة سيد بني مخزوم، وقد أراد حذيفة أن يوطِّد هذا التحالف وأن يربطه بوثاق قوي متين، ففكر في إيجاد نوع من المصاهرة بينه وبين ياسر.

الزواج

مرت الأيام وهي بطيئة الخُطَى، لأن اليمنيّ النازح إلى مكة لم يجد أخاه، وعندما تحالف مع أبي حذيفة المخزومي ووقعت عيناه على «سمية» التي كانت تروح وتجيء وعلي وجهها بسمة الرضا بحياتها التي تحياها في بيت سيدها، وفي عينيها أمل وتطلع. ولما كان ياسر فيه عِفَّة الرجال وشهامة الشجعان حافَظَ على صيانة شرف البيت الذي يعيش فيه، وأسرع إلى حذيفة يسأله الزواج من أَمَتِه «سُميَّة»، وصادف هذا الطلب ما كان يجول بنفس القرشي، فلبَّي الطلب لحليفه ياسر، وانتقلت «سمية» من بيت سيدها إلى بيت «ياسر» الذي أَعَدَّه للزواج، وقد ظللتهما السعادة، وأتت ثمارها المباركة، وأنجبت «سمية» لزوجها ابنهما «عَمَّار بن ياسر». ومات أبو حذيفة المخزومي بعد ذلك، وشَبَّ «عمَّار»، ثم أنجبت المولود الثاني «عبيد اللّه بن ياسر»، وتقدم العمر بياسر كما تقدم «بسمية»، وكانا يتطلعان إلى ولديهما فيريان أمل المستقبل وسعادة الحاضر.

النور الجديد

مضت الأيام على وتيرتها، قريش لاهية، تعبد أصنامها التي نحتتها بيديها وأقامتها في جوف الكعبة، وتسجد لها من دون الله. وهناك كؤوس بالخمر تُدار، وموائد للقمار يلتفّ من حولها الناس، وأموال تُبَعْثَرَ بلا غرض ولا هدف إلاّ لإشباع لَذَّة.

والقوي يأكل الضعيف، فلا قانون يُحْتَرَم، ولا صوت للحق يرتفع. وقد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس... في هذا الجو علت صيحة الحق مدوية من فم أطهر نبي وأزكي إنسان، يصيح في الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۝٧٣﴾[1].

(١) سورة الحج، الآية ٧٣.

واتسمت الدعوة بالصِّدْق والإخلاص لها، والعمل الدائب لتوصيلها إلى آذان الناس بأن ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1]، إله واحد لا شريك له في مُلكه، ولا سُلطان لأحدٍ عليه، خَلَقَ فَسَوَّى، وقَدَّرَ فَهَدَى.

ووقفت قريش تنظر إلى الداعي وهي ضاحكة لاهية، ساخرة مستهزئة، يقول بعضهم لبعض: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾[2].

وانصرفوا من حول الدَّاعي وهم يتغامزون. ولكن هناك شخصيات فكَّرت فيما سمعت، ونظرت إلى الداعي وصِدْقه وسيرته في قومه قبل أن يقول ما قال، وقد انشرح صدرها لما يقول، وأشرق نور الإيمان في قلوب هؤلاء الناس الذين التفُّوا من حول رسول الله ﷺ، وارتاحت ضمائرهم إلى الإيمان والتصديق به، من هؤلاء «عمَّار بن ياسر»، الذي آمن عندما بلغته الدعوة وما تردَّد، وتوجَّه على الفور إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهي الدار التي ربَّتِ الرجالَ، وعَلَّمَتِ الأبطالَ، وصنعت فئة جديدة من البشر يمشون على الأرض بهدى السماء، ويُعايشون الناسَ بِسَمْتِ الحكماء، تعرفهم بسيماهم: الثبات في قلوبهم، وقوة الإرادة من صفاتهم، وحُسنُ العلاقة من طبعهم.

ودخل «عمَّار» إلى هذه الدار، وعُرِضَ عليه الإيمان، وتُلِيَ عليه القرآن من أستاذ الإنسانية وهاديها، وكان يلتفت حوله فلا يري إلا أشخاصاً لا يتجاوزون عدد أصابع اليد. وذهب عمَّار إلى بيته، والتأم شمل الأسرة في جلسة عائلية يتدارسون أمورهم، وهنا عرض «عمَّار» الإيمان على أبويه فأسلما وما تردَّدا، لأن ««عماراً» كان يدعو بتحمس شديد، وعندما نطق «ياسر» بشهادة الوحدانية لله ردَّدتها «سمية»

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(٢) سورة صَ، الآيات ٥ ـ ٨.

في ثقة وثبات، وسجّلت تلك الأسرة لنفسها السبق إلى الإسلام، حتى وَرَدَ أن «سُمَيَّة» كانت المرأة الثانية بعد خديجة رضي الله عنها التي أسلمت وصَدَّقَتْ بكلمات ربها. وطابت نفوس تلك الأسرة وتطلّعوا إلى الله ومَرْضاته، وسألوه أن يعينهم على أداء الواجب المنوط بهم.

صبر وصمود

إن البلاء موكل بالأمثل من الناس، ودائماً يكون هناك اختبار لأصحاب العقائد، وصدق الله العظيم الذي يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[(١)].

ولقد تنادت قريش أَنْ عَذِّبُوا آلَ ياسر وصُبُّوا عليهم جام الغضب لأنهم آمنوا بمحمد! وأسرعت الزبانية القساة يلبُّون الأمر الرهيب، وتقدم جلاَّد قريش الفظّ، الغليظ القلب، أبو جهل ـ عمرو بن هشام ـ الذي أعلن شعار التعذيب والتنكيل بكل من آمن بمحمد، ولا بد لكل قبيلة أن تنكل بمن آمن منها، وأن تسيمهم العذاب الأليم.

وسِيقَ الضعفاء من المؤمنين وهم مُكَبَّلُون بالحديد، والسياط تلهب ظهورهم، وصياح الأطفال من خلفهم، والرمي بالحجارة يتقاذفهم من كل جانب، ثم يُرْمَي بهم في الصحراء، وحرارة الشمس الملتهبة تلفحهم، والحجارة الثقيلة تُوضَع على ظهورهم، وأهل مكة يضحكون ويشيرون بأصابعهم إلى المؤمنين ويقولون: إن هؤلاء لضالُّون، ولكن ماذا يفعل العذاب في قلوب امتلأت بالنور الفيّاض؟ ليس عجباً أن تموت حساسية الجسد ويَفْنَي شعوره بالتعذيب في الوقت الذي تكون في قوة الروح عصمة، وفي عظيم الإيمان درع ووقاء.

لقد عُذِّبَ بلالٌ مثلاً ونُكِّل به وما زاده ذلك إلا إيماناً. أما سيدتنا «سمية» وزوجها «ياسر»، وابنهما «عَمَّار» فكان أهل مكة يقيِّدونهم بالسلاسل ساعات

(١) سورة محمد، الآية ٣١.

وساعات في القيظ الشديد، والرمال الساخنة تلهب الأجساد، والدماء تنزف تحت ضربات السياط، وصوت «سُمَيَّة» في هذا الجو يرتفع مُرَدِّداً: أَحَدٌ، أَحَدٌ، فردٌ صَمَد. ويجيبها صوت زوجها وهو يئنُّ ويتوجَّع، ويجيبهما ولدهما الشجاع «عَمَّار». وفي كل لحظة كان يتفنن أبو جهل في نوع جديد من العذاب ـ فجاء أمام عينيها وأغرق ولدها في الماء، وكانت السياط ترتفع أمام عينيها لتهوي على ظهر ولدها ووجهه، وقد ظن اللعين أنها ربما تتوسل إليه ليرحم ولدها وفلذة كبدها، ولكنْ خاب ظنه، فلم يسمع منها غير الكلمة التي أثارت حقده، وزمجر عندئذ وصاح متوعِّداً مُهَدِّداً. وبدا حنان الأم يظهر، ولكن في صورة أخرى، فارتفع صوتها في قوة وثبات لتشجِّع ولدها «عَمَّاراً» وزوجها «ياسراً»، وهنا تذهل قريش أمام روعة هذا الإيمان، وما دروا أنَّ مَنْ يتصل بالله يهون في عينيه كل شيء، لقد كان صبر «سُمية» يرهب أبا جهل، وكان إيمانها يؤرقه، ومن هنا كان يصب جام غضبه على زوجها وولدها علَّها تلين وترجع، ولكن دارت عجلة الأيام وقريش تتحدث عن تلك الأسرة وصبرها وصمودها وتحمُّلها هذا العذاب الأليم الذي تعدَّدت ألوانه، وتفنَّنوا في أنواعه وما زاد الأسرة التي تعذب إلاَّ صبرا.

مساومة ورفض

إن صبر تلك الأسرة جعل قريشاً تسأل: هل أعتق أبو حذيفة «سمية» قبل أن يموت أم لا؟ واستقر رأيهم على أنها أَمَة لم تُعتق، فهي وابنها رقيق بحكم الوضع المتعارَف عليه، والرقيق مملوكون في قبضة السَّادة. وأُعْلِنَ على الملأ أن «سُمية» وابنها عبيد. ولمَّا كان ما تحلَّوا به من صبر أثار نفس قريش، خاصة أنه نزل بهم عذاب رهيب لو أُنزل على أَعْتَي العُتاة لاستسلم لما يريده الجلاَّدون، فقد عرض عليهم أن يسبُّوا محمداً وأن يعيبوا دينه ويعترفوا بأرباب قريش وأصنامهم، وما إنْ سمعت «سُمية» هذا العرض حتى سخرت منهم ومن أصنامهم، ولقد أنذرتهم بالويل يحل بساحتهم، وعذاب النار ينتظرهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، وتمنَّت لمحمد السلامة والتوفيق في دعوته.

وجُنَّ جنون قريش عندئذٍ، ولكنهم أفاقوا على صوت «سُمَيَّة» التي تتحدث عن الجنة التي وعد الرحمٰن عباده بالغيب، وانقضُّوا عليهم من جديد بنفوس مسعورة وعيون يتطاير منها الشرر، وأخذ العذاب سيرته بألوان شتَّى. وهنا مَرَّ الصِّدِّيق أبو بكر على تلك الأسرة التي امتحنت أشد امتحان، وصبرت أعظم الصبر، وعرض على المشركين أن يشتريهم بماله من بني مخزوم، ولكنهم رفضوا، ووقف دونه أبو جهل الذي حاول بكل ما أُوتِيَ أن ينكل بهم، وأن يجعلهم عبرة لغيرهم، ولكنَّ أبا جهل أفاق على صوت ياسر وهو يقول:

ولست أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً علي أيّ جنبٍ كانَ في الله مصرعي

بشري ونهاية المطاف

تولي نهار وأقبل ليل وأُسرة «ياسر» حيث هم في العذاب مقيمون، وبإيمانهم مستمسكون، وَمَرَّ عليهم رسولُ الله ﷺ ونظر إلى الحديد في أيديهم، والحجارة على ظهورهم، وحرارة الشمس تلفح وجوههم، وآثار السياط على أجسادهم، فرفع الرسول ﷺ وجهه إلى السماء وقال لهم: «**أبشروا آلَ ياسر واصبروا، فإن موعدكم الجنة**».

واستشعرت تلك الأسرة جلال الموقف. إنهم صابرون ثابتون على العهد، وطافت بهم نسمات هنيئة من ريح الجنة أنستهم ما هم فيه من آلام، وتخيلوا ذلك النعيم المقيم في جنات يسعدون فيها مع النبيِّين والصِّدِّيقين. إنهم في تأمل باسم لغد مشرق. ومضت الأيام تلو الأيام، ووهن «ياسر» الذي همس لزوجته أنْ أبشري فإن بشري سيدنا محمد ﷺ موشكة أن تتحقق، وأنا أرى بعيني الآن ملكوت الله الأعلى، وأسمع أصوات الملائكة تدوِّي في سَمْعِي. وعرفت «سُمَيَّةُ» أن زوجها أوشك على الفراق، وأنه على مشارف جنات النعيم، وغمرتها فرحة عظيمة جدًّا عندما سمعته ينطق بكلمة التوحيد، وفارق الدنيا في نهايتها، وبكت «سمية»، بكت لأن أيامها تأخرت عن أيامه، وكان بكاؤها بكاء الحنين إلى الرحيل لتلحق برفيقها في جنات النعيم.

وعندما سمعها أبو جهل وهي تبكي أسرع إليها متنمِّراً شرساً، وانهال عليها بالسوط فلم تئنّ ولم تتوجَّع، وراح اللعين يضرب ويضرب، وهي ملقاة على الرمال وقد تعرّي جسدها، فلما تعب من الضرب استدعي أحد العبيد، وتولي من بعده مهمة التعذيب أشخاص وأشخاص كَلُّوا وما توجَّعت، وهنا غلا الدم في عروق أبي جهل وامتلأ قلبه بالغضب على تلك الأَمَة التي أبت أن تطيعه ولو ظاهراً لترضي غروره، ولكنها سخرت منه، فمدّ يده إلى حربة مُحَمَّاة وطعنها في مكان عفتها، وانتظرها أن تلفظ بكلمة أنين، ولكنها ابتسمت وقالت: فزتُ ورب الكعبة، ونطقت بالشهادتين، وتهلَّل وجهها بالبِشْرِ، وغمرها نور اليقين، وقد صعدت روحها إلى بارئها. إنها أوَّلُ شهيدة في الإسلام كتبت في سجلّ الخالدين، وصارت مثلاً يُحْتَذَي لكل مسلمة ترجو ربها وتطمع في صُحْبَة الأخيار من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

فسلام عليك يا أوَّلَ الشهداء في الأولين والآخرين، وسلام عل المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

أسماء بنت أبي بكر الصديق
ذات النطاقين

صورة نادرة، ومُثُل رائدة للمرأة العظيمة التي صنعها الإسلام، وغَيَّرَ مجريات الأحداث بالنسبة للمرأة في المجتمع الإنساني.

لم يشهد التاريخ مثالاً بهذا الطراز الفريد الذي صنعه الإسلام، إننا أمام شخصية فريدة، ضربت أروع الأمثال، وتركت بصمات الشهامة وحُسْن التصرف واللباقة تتحدث عنها بأحرف من نور، وأول ما يجب أن نعرفه عنها:

اسمها وإسلامها

هي: أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق بن أبي قحافة.

أما أُمُّها فهي «قتيلة بنت عبد العزى». وأسماء هي أخت أم المؤمنين «عائشة» من أبيها رضي الله عنها، وقد أسلمت بمكة في أول الدعوة بعد أن أسلم سبعة عشر

إنساناً، وعاشت في بيت الطهر والنقاء، بيت الصِّدِّيق، شيخ الصحابة وأكرمهم.

مواقف من حياتها

تشاور المشركون فيما بينهم على قتل رسول الله ﷺ، وأطلعه الله على ما بَيَّتُوا، وأنهم اتفقوا أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابًا قويًا نسيباً، ومع كل فتى سيفاً قاطعاً، ثم يعمدون إلى الرسول ﷺ فيضربونه ضربة رجلٍ واحدٍ فيتفرق دمه في القبائل، وعندئذٍ لا يقدر بنو هاشم على حرب القبائل فيقبلون الدية. ولكن كانوا هم يمكرونَ وعند الله ما مكروا، وأمرَ الله الرسولَ ﷺ بالهجرة، وكان أصحابه قد هاجروا.

وبدأ الرسولُ ﷺ في التخطيط المُحْكَم، والعمل المنظَّم، واستنفد جهده في ذلك، وترك الباقي على الله الذي لا يُضيع أجْرَ من أحسن عملاً. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: بينما نحن جلوس في بيتنا بمكة أول الزوال عند شدة الحر قال أبو بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً ـ أي: مغطياً رأسه ـ وذلك في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي أنْ جاءَ ـ أي: ما جاء به في هذه الساعة إلاَّ أمْرٌ حَدَث ـ فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فَأَذِنَ له، فلما دَخَل تأخر أبو بكر عن سريره فجلس الرسول عليه الصلاة والسلام ثم قال: «أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عندك» ـ وكانت عائشة وأسماء ـ فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هما ابنتاي. فقال الرسول ﷺ: «قد أُذِنَ لي في الخروج والهجرة». فقال أبو بكر: الصُّحْبَةَ يا رسول الله! قال: «الصحبة». تقول السيدة عائشة: فوالله ما شعرتُ قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ. وكان الرسول ﷺ يتكتَّم الأخبار حتى لا يُذاع أمره ويُفشى سرُّه، ويقابل تخطيطه بتخطيط مضاد، وتلك دروس يجب أن نستفيد منها.

ولما خرج الرسول ﷺ للهجرة ومعه أبو بكر رضي الله عنه، جاء نفر من المشركين وفيهم أبو جهل إلى دار أبي بكر، فخرجت أسماء إليهم، فسألوها: أين أبوكِ؟ فقالت: والله لا أدري أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ

فلطمَ أسماءَ على خدها لطمة طَرَحَ قُرْطَها ـ أي: الحَلَق ـ وذلك أنه ضربها بشدة، فاحتملت وصبرت ولم تَبُحْ بالسر، لأنها اؤتُمِنَتْ، والمسلم أمينٌ وفيٌّ.

هذا وتقول أسماء: لمَّا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كله، وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف، فانطلق بها معه، فقالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة فقال: والله إني لأراه قد فَجَعَكُم بماله مع نفسه.

قالت أسماء: كَلاَّ يا أبتِ، إنه تركَ لنا خيراً كثيراً. ثم أخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوة «الثقب في الحائط» في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبتِ ضَعْ يدك على هذا المال. فوضع يده عليه ـ وكان كفيفَ البصر ـ ثم قال: لا بأسَ، إنْ كانَ تَرَكَ لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. تقول أسماء: والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردتُ أن أُسَكِّن الشيخ بذلك. يا للعجب!! إنه تصرف رائع وتخلُّص جميل! كان أبو قحافة ما زال على الشِّرْكِ، فأرادت أن تسكِّن نفسه حتى لا يرتاع، ومن فعل ذلك: إنها أسماء التي لطمها أبو جهل عَمَّا قريب فلم يُرهبها، ولم تخف، بل تخلصت بسرعة وبلباقةٍ ما كانت تخطر على بال إنسان. إنه الإلهام: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[1].

ثم إنها كانت تحمل الزاد والماء وما عَسَى أن تكون قد سمعته من أخبار أو رأته من تصرف القوم، وتسير قرابة ثلاثة أميال في جوف الليل بين الصخور والرمال ماشية متخفية، حَذِرَة مترقِّبة، حتى لا تراها العيون، وهي وحدها ليس معها أنيس أو دليل اللَّهُمَّ إلا نور الإيمان وعلاقتها بالله. لقد كانت تذهب إلى الغار الذي يأوي خير البشر برفقة أبيها، وهي تقوم بتلك المهمة الخطيرة، كان أمثالها يذهبون إلى ملاعبهم ويأوون إلى صُدور أمهاتهم، ومع ذلك تجتاز المغاور، لأن الجزيرة العربية كان يجري فيها حديث عن أطياف الجن والغول، ولا يقوي أشد الرجال أن ينزل وحده في الصحراء حتى يستعيذ برب الوادي، غير أنها بإيمانها

(١) سورة الطلاق، الآيتان ٢ ـ ٣.

تغلَّبت على الخوف وعلي الجُبْن وعلى كل شيء، وشعرت بمسؤوليتها أمام الأجيال، لأنها تفعل ذلك في سبيل العقيدة والإيمان. إنَّ مثلها يبحث عن فساتين الموضة، وآخر صيحات «الباروكة» من الشعر، و«مانكير» الأظافر، ولكنَّ «أسماء» لها الله المعين طرحت كل شيء وراء ظهرها، وأقبلت تخدم المبدأ، وتضرب المثل للمرأة أن تكون وفية لدينهاالذي يشرح صدرها، وينير لها سُبُل الحياة، إنَّ لطمة النذل أبي جهل ما زال أثرها على أذنها، وكذا صوت جدها وهو يناديها، لقد تخلَّصت من كل ذلك.

ثم ها هي ذي تقطع الفيافي وتذهب إلى الغار في الظلام، وتقدم الطعامَ والماء، وتسرد الحديث، وتؤنس نفسها بتلاوة القرآن الكريم. ولقد سلمت من عثرات الطريق، لأن الله حاميها، وهو سبحانه الذي أوحى إلى الدنيا: «يا دُنْيا، مَنْ خَدَمَنِي فاخْدُمِيه، ومَنْ خَدَمَكِ فاسْتَخْدِمِيه». إنها خدمت الحق فَسَلِمَتْ، وبذلت في سبيل الخير فَأَمِنَتْ.

ولقد استمرت في قطع الطريق المخيف ثلاثَ ليالٍ، وعندما أزمع الرسول ﷺ على مفارقة الغار أتتهما أسماء بزادِ السفر وما يصلح لهما في الطريق، فلما ارتحلا ذهبت تُعَلِّق السُّفْرَة[1] فإذا ليس لها عِصام[2]، فلم تجد ما تعصم به إلا نطاقها، فشقَّته نصفين، فعصمت السُّفرة بنصفه ووكأت السقاء بباقيه. فبشَّرها رسولُ الله ﷺ بنطاقين في الجنة، وسُمِّيَتْ بذلك من هذا التاريخ: «ذات النطاقين»، الله أكبر، إن الإيمان قوة، والمؤمن يصنع المعجزات بإيمانه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3].

هذه هي أسماء لا تُذكر الهجرة إلاَّ ويُذكر حديثها بالإعجاب والتقدير. وهي الصابرة المحتسبة، فقد احتسبت ولدها عند الله، لأنه مات على الحق، ودفاعاً عن الحق، وقالت له: «لَضَرْبَةٌ بسيفٍ في عِزٍّ خَيْرٌ من ضربة بسوط في ذُلٍّ».

رضي الله عنك يا أسماء وأرضاكِ جزاءَ ما صَنَعْتِ من خير.

---

(١) السُّفْرة: طعام يُصْنَع للمسافر.

(٢) العِصتم: حبلٌ تُشَدُّ به القربة وتُحْمَل، أو عروة الوعاء التي يُعَلَّقُ منها.

(٣) سبق تخريجها.

ومع ذلك كانت صَوَّامةً قَوَّامَةً، سخية النفس، راغبة في التصدُّق على الفقراء. قَدِمَ ابنُها من العراق فأرسل إليها بكسوة من ثياب مروية[1]، فلما لمستها بيدها قالت: أُفٍّ، ردوا عليه كسوته.

فشق ذلك على ولدها وقال: يا أمة، إنه لا يشف. فترد عليه قائلة: إذا كانت لا تشف، فإنها تصف.

كانت عفيفة كريمة، وهي مَثَلٌ نقدِّمه إلى أمهاتنا وأخواتنا ليكون عبرة لمن أراد أن يعتبر، رضي الله عنها وأرضاها.

فاطمة بنت الخطاب

رضي الله عنها

هي أخت عمر بن الخطاب، وقد أسلمت وهي دون العشرين من عمرها، وقد أسلم زوجها أيضاً ـ سعيد بن زيد ـ وكان إسلامها في أول الأمر قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، التي هي بحق المدرسة العلمية، ذات المناهج المتعددة في التربية الخُلُقية، وغرس القيم والفضائل، ومنها تخرَّج قادة الدنيا الذين فتحوا العالم، وطَبَّقُوا نُظُم العَدْل والمساواة لأول مرة في التاريخ.

تعذيبها

كانت السيدة «فاطمة» أسبق للإسلام من أخيها «عمر بن الخطاب»، وكانت تكتم إسلامها عنه، لأنه اتَّصَفَ بالشدة والغِلْظَة على المسلمين، وكان يعذب المسلمين ويشهد التنكيل بهم. وكان قد أخذ سيفه وتوجَّه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ليتولي قتل الرسول بنفسه، حتى يريح الناس ـ حسب زعمه ـ وبينما هو متوشح سيفه قابله أحد المسلمين، فقال: إلى أين يا عمر؟ قال: أريدُ قَتْلَ محمد لأنه سَفَّهَ أحلامنا، وعاب آلهتنا، وفرَّق كلمتنا. فقال له: ابدأ بأهلك أولاً! فقال

(١) نسبة إلى «مَرْو»، مدينة فارسية.

عمر: أوَقد أسلم أحد من آل الخطاب؟ قال: نعم، أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد.

فرجع «عمر» مسرعاً إلى بيت أخته، وبعد أن دخل قال لها: يا عدوة نفسها، بَلَغَنِي أنك صَبَأْتِ، ثم ضربها، وعندئذ وَثَبَ عليه زوجها «سعيد» فطرحه «عمر» على الأرض وجلس على صدره، فلما جاءت «فاطمة» تمنع عن زوجها الأذَى لطمها «عمر» لطمة شَجَّ وجهها، فسال دمها، فلما رأت الدم بكت وقالت لأخيها: أتضربني يا عَدُوَّ الله عَلَى أَنْ أُوَحِّدَ الله؟ لقد أسلمتُ لله رب العالمين، وهو حسبي ونعم الوكيل... ولما رأى «عمر» الدمَ يسيل من وجه أخته نَدِمَ على ما فَعَلَ، وشعر بشيء يسيطر على نفسه، وأنه أصبح ضعيفاً. «عمر» القوي الشديد انهارَ وجلس بجوار الحائط، ثم قال لأخته: ناوِليني ما كنت تقرئينه، فترد فاطمة في ثقة وعزم وتقول: إنه قرآن، لا يمسه إلاَّ المطهَّرون، وأنت مشرك نجس لا يحل لك أن تقرأ فيه ولا تلمسه بيدك إلا إذا تَطَهَّرْتَ. وبعد حديث طويل قام عمر واستجاب لتوجيهات أخته، ثم رجع إليها فناولته الآيات التي كانت تحفظها هي وزوجها: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾[1].

هنا شعر «عمر» برعشة تسري في جسده، وكأنَّ شيئاً خفيًّا يدفعه إلى أن يعتنق هذا الدين، لأن فيه ما يتلاءم مع فكره، وشعر كأن يداً خفية حوَّلت قلبه، وأنه أصبح سلس القياد، ليِّن العاطفة. فأعلن إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم. يقول عبد اللّه بن مسعود: ما زلنا أَعِزَّةً منذ أسلم «عمر»، والفضل في ذلك يرجع إلى أخته التي لم تضعف أمام تهديده ولا وعيده. و«عمر» عرف عنه الشدة، حتى إن إحدى المهاجرات إلى الحبشة ـ واسمها ليلى زوجة عامر بن ربيعة ـ تعبِّر عن ذلك فتقول: كان عمر من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبتُ بعيري أريد أن

(١) سورة طٰه، الآيات ١ ـ ٨.

أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا به، فقال: إلى أين يا أم عبد اللّه؟ فقلت: قد آذيتمونا في ديننا فنذهب في أرض الله حيث لا نُؤْذَى. فقال: صحبكم الله. فلما جاء زوجي وأخبرته بما رأيتُ من رِقَّة «عمر» قال لي: أترجين إسلامه؟ والله لا يسلم حتى يسلم حِمارُ الخطَّاب. وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين. ولذلك كان إسلام عمر رمز هيبة وعز ومَنَعة للمسلمين، وقد أدرك الكفَّار كآبة شديدة حينما علموا بإسلامه. أمَّا «فاطمة» صاحبة القلب الكبير التي صبرت واحتسبت فقد غمرتها سعادة لإسلام أخيها الذي أصبح الدرع الواقي للضعفاء، كما أنه صار نصير المساكين، ورافع الظلم عن كاهل المظلومين.

هجرتها

أقامت «فاطمة» بمكة مع زوجها «سعيد» الذي آثر المقام بجوار الحبيب المصطفى، وقد نالهما من الأذَي الكثير، فصبرا واحتملا حتى تمت الهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجرا إليها مع المهاجرين. ومضت «فاطمة» في حياتها العامة تبذل المال وتجود بكل شيء إعزازاً للدين، وإعلاءً لكلمة الإسلام، وضربت مثلاً كريماً على صبرها وجهادها وإخلاصها لدينها، واستمساكها بعقيدتها إلى أن لقيت ربها راضية مرضية. فسلام عليها وعلي آلها من الخالدين الأبرار.

المسلمة المبايعة «نسيبة بنت كعب»

هذه شخصية تحدثت عنها كتب السير والتاريخ بالإعجاب والتقدير لدورها البطولي، وخوضها المعارك بكل بسالة وشجاعة وإقدام.

اسمها ونسبها وإسلامها

هي: نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف، وينتهي نسبها من جهة الأب إلى بني النجار. أمَّا أمها فهي الرباب بنت عبد اللّه بن حبيب بن زيد، وينتهي إلى الخزرج، ولما بَعَثَ الله بالرسالة سيدنا محمداً ونَزَّلَ عليه قول الله سبحانه:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾(1). وبدأ الرسول ﷺ يُبَلِّغ دعوة ربِّه بالرفق واللين والموعظة الحسنة، ولكنَّ المشركين أرادوا أن يصرفوه عن دعوته تارة بالشدة، وتارة بالعنف، ومرة باللين.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(2). وإذا كان أهل مكة وقفوا في وجه الداعي وتطاولوا عليه، وهو صابر محتسب امتثالاً لأمر الله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾(3). ويقول الله له: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾(4).

وشاءت إرادة الله أن تبلغ الدعوة مسامع بعض أهل يثرب الذين يفدون على مكة للحج في موسمه، وكانت هناك مبايعة أُوْلَى بين النبي ﷺ وبين اثني عشر رجلاً من أهل يثرب، سُميت «بيعة العقبة الأولى»، وكان مضمونها أنهم «لا يشركون بالله شيئاً، ولا يسرقون، ولا يزنون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتي الواحد منهم بِبُهْتان يفتريه بين يديه ورجليه، ولا يعصينَ في معروف». ورجع هذا الوفد ومعهم «مُصْعَبُ بن عمير» السفير الأول في الإسلام، ليوطِّد العلاقة، ويُفهِم الناس ما لهم وما عليهم، ويُقرئهم القرآن، ويعلِّمهم مبادئ الإسلام، ويكون عنوانَ صدقٍ وعلامةً مميزة للإسلام في تلك المنطقة.

ومَضَى عام وأقبل الحجيج من أهل يثرب لمكة لتأدية المناسك، وكانوا خمسة وسبعين مسلماً: ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين: «أسماء بنت عمرو بن عدي»، و«نسيبة بنت كعب». وكان هذا الوفد هو طليعة الزحف المقدس الوافد إلى أكرم داعية لتكون هناك بيعة على السمع والطاعة في المنشط والمَكْرَه، في

(1) سورة المائدة، الآية ٦٧.
(2) سورة التوبة، الآية ٣٢.
(3) سورة الأحقاف، الآية ٣٥.
(4) سورة الحجر، الآيات ٩٧ ـ ٩٩.

العُسْر واليُسْر، وكان الوفد الذي يضم بعض النساء صادق الإيمان، قوي العقيدة، وقد أقسمت المرأة كما أقسم الرجل أن تكون معه في ميدان النضال المستمر حتى يتم نصر الله. وقد كان لنسيبة دور قياديّ وطليعيّ في هذا العمل الجليل، ومن وقتها وقد وفت بما أقسمت عليه، فكانت تعد العُدَّة وتوطِّن نفسها وما ملكت يداها لمواجهة ما سوف تفرضه عليها ظروف الحياة الجديدة، ومع هذا فقد كان زوجها وولداها من أوائل الطليعة المباركة الذين نعموا بالإسلام، وستنعم الدنيا بجهادهم، حيث يسجِّلون أعظم صفحات الطُّهْر والوفاء لأكرم مبعوث بأعظم رسالة.

ورجعت «نسيبة» إلى يثرب تنشر الدين وتبشِّر به في مجامع أضرابها، وقد رآها الذين يعرفونها أنها رجعت بقلب غير القلب الذي ذهبت به، فقلبها الآن مُلِيءْ بالدين القَيِّم، وفيها ثبات وإقدام وتضحية، وتحمُّل للمشاق، مع صبر وإيمان راسخ. وإذا كانت يثرب قد فرَّقتها الحزبية المقيتة والخلاف المستمر بين الأوس والخزرج ودَسَّ اليهود بين الأوس والخزرج، وإشعال نار العداوة بين الفريقين، فإن يثرب بعد عودة تلك الفئة التي بايعت النبي المختار بدأت تتجمع تحت راية التوحيد، وبدأت النفوس تشعر بالاستقرار والهدوء، والقلوب يشع فيها نور الإيمان فيغسلها من الأحقاد والضغائن ويطهِّرها من عصبية الجاهلية، وأحس الجميع بحياة جديدة تنتشر في آفاق المدينة التي اكتوت طوال السنين بحروب وخلافات وها هي ذي الآن يعمها هدوء وسكون وتجمع تحت راية الإسلام، وحول كلمة التوحيد، وتوجيه نبي الإسلام الذي بُعِثَ رحمة للعالمين.

استقبال حافل

استتب الوضع في يثرب وهدأت الأمور فيها، وشعَّ نور الإيمان في أرجائها، وكان للسفير الأول دور إيجابي وعمل بطولي في نشر تعاليم الإسلام وتوصيله قدر المستطاع إلى كل أسرة، وإدخاله إلى كل بيت. في نفس الوقت كان الحصار يشتد على المسلمين في مكة، بل وصل الأمر بأهل مكة أن تآمروا على قتل الداعية العظيم والرسول الأمين الذي يقول ربِّي الله، وهو يدعوهم إلى الخير ولكنهم صَمُّوا

آذانهم، وأعموا أبصارهم، واستغشوا ثيابهم، وجمعوا شبابهم ليريقوا أطهر دم، ويزهقوا أعفَّ روح، وأَذِنَ النبيُّ لأصحابه وأتباعه بالهجرة من مكة إلى المدينة «يثرب» التي انتشر الإسلام في جنباتها، وتردَّدَ اسم الله بالإكبار في كل بيت من بيوتها. وهاجَرَ الأصحابُ تاركين أموالهم وديارهم، ولكن العقيدة في نفوسهم ثابتة لا تتزعزع. ومكث الرسول الكريم مع صديقه الوفي أبي بكر الصِّدِّيق حتى اطمأن على أن أصحابه هاجروا، وعلم بنبأ وصولهم، وهكذا يجب أن يكون القائد الملهم، يخطط لأصحابه ويطمئن عليهم، حتى حانت ساعة الصفر المحددة، وخرج الرسول ﷺ ومعه رفيقه ونزلا بالغار، وكانت رعاية الله معهما، وعبر عن ذلك الرسول ﷺ لأبي بكر: **«ما ظَنُّكَ باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا»**. وآن للركب المبارك أن يصل إلى مشارف «يثرب» حيث كان يتجمع أهلها ليحظى الجميع بمشاهدة الهادي صاحب الرسالة، الذي يدعو للتي هي أقوم.

كانت «نسيبة» بين المتلهفين على تلك الرؤية، لأن في خيالها صورته في تلك الليلة الخالدة التي لن تُمْحَى من ذاكرتها حتى ولو غَيَّبَها التراب. لقد كان يرن في أذنها صوته الحبيب وهو ينساب هادئاً كنسمة طيبة وهواء بليل هَبَّ ساعة قيظ، ونبرات هذا الصوت الحبيب لم تغب عن أذنها، لأن توجيهاته وتعليماته أمانة في عنقها، وقد تاقت طوال تلك المدة وهي تطمح أن يكون المستقبل أحسن من الماضي، وأن تكون هي رائدة عمل يسعد الداعين، ويكون سبباً لفتح جديد في دنيا الرسالة الخالدة، وانسابت مع أحلامها، ولكن سرعان ما فاقت على صوت أضرابها يردد:

طلـــعَ البـــدرُ علينـــا مـــن ثَنِيَّـــاتِ الـــوداع
وَجَـــبَ الشكـــرُ علينـــا مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعـــوث فينـــا جِئْـــتَ بـــالأمـــرِ المُطـــاع
جِئْـــتَ شَـــرَّفْـــتَ المـــدينـــة مـــرحبـــاً يـــا خَيْـــرَ داع

ودخل الرسول ﷺ المدينة «يثرب» التي أصبحت منار الإسلام، ومَحَطَّ أنظار العالم، وملتقي الصفوة المختارة من الذين اهتدوا بهدي الإسلام. وأقبل طلاب

العلم الحق، وعُشَّاق المعرفة الصادقة إلى هذا المنهل الرافد، ينهلون من علمه، ويغذون عقولهم بالمعرفة، وانصهر سكان المدينة في بوتقة الطهر والعفاف، ومُحيت الأحساب والأنساب، وتَسَمَّى الجميع باسم الأنصار ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾(١) وآثروا المهاجرين على أنفسهم، وقَدَّمُوا خيرَ ما عندهم، طيبة بذلك نفوسهم، مبسوطة أيديهم غير مانِّين، ولا شاحِّين، وفي هذا الجو الكريم الطاهر اجتمع الجميع حول نبيهم الكريم ينهلون من علمه، ويتعلمون ويسمعون منه ما أنزل الله عليه، وأصبح مجلسه يشهده الجميع. وحرصت «نسيبة» على شهود تلك المجالس، وكانت تسمع منه وتأخذ عنه، وتعي ما يقول، وتعلمت ما ينفعها في دينها ودنياها، ووصل إلى مسامعها إكرام الإسلام للمرأة وإنصافه لها: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(٢). ثم بيان الإرث وحق المرأة في ذلك، إلى غير ذلك من الأمور التي أحاط الله بها المرأة، وإقرار الحقوق الإنسانية في غير ما ضرر ولا ضرار.

تعملت «نسيبة» ذلك، وكم أسعدها هذا التشريع الإلهي الذي أوضح الأمور وبَيَّنَ الحقوق، وكانت هي تأخذ ذلك وتنقله إلى غيرها من بنات جنسها في تحمس شديد وثبات عظيم، ومضت الأيام، وأخذ التشريع يحدد علاقة الدولة الفتية بالدول المحيطة بها، والذين يتربصون بها الدوائر ويكيدون لها، ويمكرون بمن فيها. وعندئذ اتجه التشريع إلى بيان أن الجهاد فرض ثابت على الرجل والمرأة. وهلَّلت «نسيبة»، وشعرت بشيء غامض بدأ يظهر في الأفق، فهناك استعداد للخروج لمقابلة قافلة تحمل تجارة قريش، ومع ذلك فقد خرجت «نسيبة» مع الخارجين، وشاءت إرادة الله أن تكون موقعة بدر الكبرى، ويتم الله النصر للمؤمنين، وكانت نسيبة تسقي الجيش بالماء، وقد أدَّتْ دوراً عظيماً في تلك المعركة الخالدة.

بطولة نادرة

رجعت قريش من «بدر» وقد كَسَر الله شوكتها، وحَطَّمَ غرورها، ولم تنسَ

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٢.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

قتلاها لأن نساء المشركين ما زلن تتذكر كُلٌّ منهن في القتلى ابناً، أو أخاً، أو أباً، أو زوجاً، يبكين عليه، ويؤلبن السادة من أهل مكة للأخذ بالثأر، حتى تهيَّأ الجميع لغزوة أُحُد، وخرج المشركون في جيش جرّار، واستنفروا معهم حُلفاءَهم، ومن اتبعهم من الأحابيش، كما خرجت نساء قريش وعلي رأسهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان التي كانت تتشوق إلى المعركة لتثأر لأبيها وأخيها، وفي المدينة كان النبي ﷺ يتشاور مع أصحابه في الخروج، وكان من رأيه أن يتحصن بالمدينة فإذا حاولت قريش اقتحامها دافعوهم. ولكنَّ بعض الذين لم يحضروا غزوة بدر تحمسوا للخروج إلى العدو وملاقاته.

وكان هناك تشاور بين القيادة والقاعدة، لأن الإسلام يعلِّم أتباعه الشورى، التي هي مبدأ مقرر في تعاليمه، وعلي الدَّاعِي أن يمارسها عمليًّا مع أصحابه، ولما كان الأكثرية في صف الذين قالوا بالخروج فقد خرج الرسول ﷺ في سبعمائة مقاتل، يقابلهم من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل. والتقي الجيشان عند جبل أُحُد، وَصَفَّ الرسول ﷺ أصحابه ونظَّمهم تنظيماً دقيقاً، لأن الإسلام يحب النظام في كل شيء، وبذلك انتصر المسلمون انتصاراً باهراً، لأن قوة العقيدة، والإيمان بالمبدأ، ومهارة القيادة كل ذلك كان عاملاً أساسيًّا في الانتصار. وفي أثناء الانتصار الباهر ترك الرُّماة مواقعهم، فانكشفَ ظَهْرُ المسلمين، مما جعل طريقاً مفتوحاً أمام المشركين، مكَّنهم ذلك من إحداث خلخلة في صفوف المسلمين، حَدَثَ على أثرها هرج ومرج، واستشهد أسد الله حمزة، عم رسول الله ﷺ، الذي قُتِلَ غدراً من الخلف، ونساء قريش تشجِّع المشركين وتغني إحداهن قائلة:

إنْ تُقْبِلُوا نُعانِقْ ونفرشِ النَّمارِقْ
أو تُدْبِرُوا نُفارِقْ فراقَ غيرَ وامِقْ

وتفرق المسلمون من حَوْلِ رسول الله ﷺ، وأشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، وتدافَعَ المشركون كالسيل إلى الناحية التي فيها رسول الله كل يريد أن يكون له في قتله أو التمثيل به ما يُفاخِر به الأجيال. في تلك اللحظة الرهيبة القاسية، ألقت سيدتنا «نسيبة» سقاءها ـ وكانت تسقي جنود المسلمين ـ واستلَّت

سيفاً، وقامت تباشر القتال بنفسها، وهي المرأة التي ما تعوَّدت على ضربٍ ولا كَرٍّ ولا فَرٍّ، ولكنها تصدَّت لقذائف النبل دون رسول الله ﷺ، وصاحت على ولدها «عبد اللّه» وزوجها وقالت: شَمِّرُوا، لا يخلص شيء إلى رسول الله وفينا عرق ينبض! ويقول الرسول ﷺ: **«ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلاّ وأنا أراها تُقاتِلُ في شجاعة نادرة، وبطولة فائقة»**. لقد أقبلَ فارسٌ من فرسان قريش فضربَها فتترَّستْ له، فلم يصنع سيفه شيئاً فيها، وَوَلَّى، فهجمت عليه «نسيبة» وضربت عرقوب فرسه فوقع على الأرض، فنادى النبي ﷺ على ابنها: يا ابن أُمِّ عمارة.. أُمَّكَ.. أُمَّك.. فعاوَنَها ابنُها حتى قتلته.

باركَ الله فيكِ يا أُمَّ عِمارة، لقد ضَرَبْتِ مثلاً رائعاً على أن المرأة صاحبة العقيدة لم تتخلَّ عن مبدئِها، ولم تهن عزيمتها، ولم تضعف، يقول عبد اللّه ولدها: جُرِحْتُ يومئذٍ جرحاً في عَضُدِي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرَّقْلَة[1]، ولم يعرِّج عليَّ، ومَضَى عني، وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول الله ﷺ: «اعصب جرحك»، فتُقْبِل أمي إليَّ ومعها عصائب في حِقْويها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي والنبي واقفٌ ينظر إليَّ، ثم قالت: انهضْ، فضارِبِ القومَ، فجعل النبي ﷺ يقول: **«ومَنْ يُطيق ما تُطِيقينَ يا أُمَّ عمارة؟!»**.

لقد كان الموت يتمشى خلال الصفوف والدماء تسيل أنهاراً، وأم عمارة واقفة في شجاعة لم يأخذها الوهن، أو يتسرب الخوف إلى نفسها. لقد صمدت «نسيبة» حيث فَرَّ الفوارس الصناديد، ورآها الرسول ﷺ وتَذَكَّر الليلة التي بايعته فيها على السمع والطاعة، وأقسمت أن تفديه وتقف دونه تستهين بالروح والمال. رآها النبي في موضع الوفاء والفداء.

لقد شهدت تلك الموقعة فقاتلت وأبلت بلاءً حسناً، وجُرحت اثنا عشر جرحاً، مما جعل النبي ﷺ يقول: **«لَمَقامُ نسيبة بنت كعب اليوم خيرٌ من مقام فلان وفلان»**. إنها باشرتِ القتالَ والذَّوْدَ عن رسول الله ﷺ حتى جُرحت في عاتِقِها

---

(١) الرقلة: النخلة الطويلة.

جرحاً له غور أجوف، فلما سُئِلَتْ: مَنْ أصابَكِ بهذا؟ قالت: ابنُ قميئة، وقد وَلَّي الناسُ عن رسول الله ﷺ، وكان ابن قميئة يقول: دُلُّوني على محمد، فلا نَجَوْتُ إنْ نَجا. وكان مصعب بن عمير وناس معه، فكنت فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. لقد دعا رسولُ الله ﷺ لها ولأولادها في هذا الموقف، فقال: «رَحِمَكُمُ الله أَهْلَ بيتٍ». قالت: ادْعُ الله أن نُرافِقَكَ في الجنة. فقال: «اللَّهُمَّ اجعلهم رُفقائي في الجنة». فقالت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا؟! إنها لم تطلب منصباً ولا مالاً، ولا أي شيء من عَرَضِ الدنيا، لأنها علمت بأنها فانية قليلة، وزائلة، فسألت عن الشيء الباقي الدائم، وهو مرافقة الحبيب في الجنة. هذا ولقد أقبل الرجلُ الذي ضرب ابنها، فقال رسول الله ﷺ: «هذا ضاربُ ابنك». فقامت فاعترضته، فضربت ساقه فبرك، فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجِذَهُ، وقال: «اسْتَقَدْتِ يا أُمَّ عِمارَةَ!».

إن نسيبة أم عمارة ما قصَّرت ولا ركنت إلى الراحة والخمول، وإنما أبلت البلاء الحَسَن، مما كان له الأثر الطيب عند الله ورسوله، وفي دنيا الناس. إنها لم تتخاذل، فلما انتهت المعركة ـ وهي صابرة محتبسة جراحها عند الله ـ ونادى مُنادي رسول الله ﷺ بالذهاب إلى «حمراء الأسد» شَدَّت «نسيبة» عليها ثيابها وخرجت وما تَخَلَّفَتْ برغم ما بها من جراح، وكانت في الفئة التي قال الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(١). ورجعت راضية النفس قريرة العين، تقوّي عزائم أولادها. وشهدت بيعة الرضوان تحت الشجرة التي قال الله فيها: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾(٢).

وكان من أولادها ابنها «حبيب» الذي كان يتمتع بالحيوية والقوة والنشاط، وقد بعثه المسلمون بخطاب إلى مسيلمة الكذاب فقبضَ عليه، وأوثقه بالحبال، وطلب منه أن يشهد بأنه رسول، فرفض، وهنا قَطَّعَه مسيلمة عضواً عضواً، وكان

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٣.
(٢) سورة الفتح، الآية ١٨.

كلما سمع اسم رسول الله ﷺ آمن به ﷺ، وإذا سمع اسم مسيلمة قال: لا أسمع ذلك، لأنه تربَّى في بيت الإيمان الحقيقي. وعلمت «نسيبة» باستشهاد ولدها على تلك الصورة البشعة، ولكنها لم تلطم خَدًّا، ولم تتلفظ بلفظ يغضب الحَكِيم العليم، ثم إنها تمنَّت الشهادة في سبيل الله لنفسها ولبنيها، فصبرت واحتسبت ذلك عند الله، ولكنها نذرت لله أن ترى مقتل مسيلمة الكذاب وقد كبر سنها، ووهن عظمها، ونادى مُنادي الجهاد للتوجُّه إلى مقر مسيلمة، فخرجت مع الجيش بقيادة خالد بن الوليد، وعندما قامت الحرب تفرَّق المسلمون، وصاح فيهم خالد قائلاً: «وا محمداه!»، فأقبل المسلمون من جديد، وارتفع اللواء، فَذَكَّرَ «نسيبة» ماضي جهادها ومواقفها البطولية، فمدَّتْ يدها وأَخَذَتْ سيفاً، وهجمت مع نفرٍ من خُلَّصِ المسلمين، فيهم ولدها عبد اللَّه، وكانت هي تشجِّع القوم وتضرب برغم تقدُّم سنها، وبرغم أنَّ ذراعها قُطِعَتْ، إلا أنها نذرت أن تري قَتْلَ مسيلمة الكذاب، وانتصر جيش المسلمين، وقُتِلَ اللعين، وسجلت أم عمارة لنفسها عملاً بطوليًا رائعاً، وخرجت بوسامٍ آخر، لأنها في معركة «أُحُد» خرجت باثني عشر جرحاً غير الذي في رقبتها، أمَّا في معركة «اليمامة» التي شهدتها أخيراً فقد بُتِرَ ذراعُها، ومع ذلك فهي راضية صابرة ولله شاكرة. لقد رجعت أم عمارة مع جيش المسلمين المنتصر وهي تمشي تحت هذا اللواء الذي يذكِّرها بماضٍ تليد، وجهادٍ عظيمٍ مع خير البشر أجمعين، وها هي ذي اليوم تراه مرفوعاً، فحمدت الله وأثنت عليه، وشكرته على ما أعطى.

وبقيت أم عمارة «نسيبة بنت كعب» بعد ذلك في بيتها يزورها الصحابة، ويتردد عليها القادة، ويَفِدُ عليها أصحاب الحاجة، وهي توجِّه هذا، وتَعِظُ ذلك، وتمنح المحتاج، ووسام الاستحقاق من أعلي الطبقات أمام أعين الجميع، فيتذكَّرون جهادها وماضيها وصمودها، فيشهد لها بالوفاء، ويرضي عنها الجميع.

لقد كان النبيُّ ﷺ يزورها في حياته، ويجلس في بيتها، ويأكل عندها، ويدعو الله لها، وكفاها من دنياها فخراً أن رسول الله ﷺ لقي ربه وهو راضٍ عنها.

وعادت النفس الهانئة الراضية المطمئنة إلى ربها، فنامت في البقيع مع

الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وأصبحت سيرتها مثلاً يُضرب لبناتنا وأمهاتنا وأخواتنا في البطولة والفدائية، والدفاع، وحسن الاستعداد، والإقدام، وليكون هذا مثلاً رائداً تحتذي به المرأة وتتعلم منه، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(1) ولقيت «نسيبة» ربها بعد جهادٍ عظيم ودفاع عن الدين.

ونامت «نسيبة» نومتها الأخيرة، وانتشر في الآفاق ذكرها ليكون عبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾(2). ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾(3).

زبيدة بنت جعفر

أبوها خليفة، وجدها خليفة «المنصور»، وعمها خليفة «المهدي»، وزوجها خليفة «هارون الرشيد»، وابنها خليفة «محمد الأمين». أحاطت بها الخلافة من كل جانب، فهي كوكب السَّحَر في سماء العظائم وآخر السُّوَر من كتاب العزائم. إنها الفاضلة الكريمة النبيلة، ذات الحَسَب والنَّسَب زبيدة بنت جعفر، حفيدة المنصور وزوج الرشيد وأم الأمين. نشأت في مهد الدولة العباسية، فكانت في محل الرعاية والتقدير، وموطن العطف من قلوبهم، ومهبط حبهم.

كان جدها «المنصور» يؤثرها بقلبه، ويختصها بحبه، وسمَّاها «زبيدة» لما رأي من بضاضتها ونعومتها. كانت موفورة العقل، كريمة اليد، نبيلة الخُلق. لقد ذكر الرواة أنها بذلت الكثير والكثير في بناء المساجد، كما بنت المنازل التي ينزل فيها الغرباء، وحفرت الآبار ليشرب منها الذين يعبرون ويمرون من حولها، ذلك لأن الحُجَّاج كانوا يملأون القُرَب ماءً ويحملونها معهم، فقامت هذه السيدة الفاضلة بحفر الآبار، خاصة «عين زبيدة» التي أصبحت تروي أهل مكة والحجيج. ولك أن تعجب إذا ما عرفت أن أحداً من الناس منذ عهد إسماعيل إلى أن جاءت زبيدة لم يحفر ما حفرت وينفق ما أنفقت، حتى إنها أجرت نهراً بين شعاب مكة من العيون.

---

(1) سورة يوسف، الآية ١١١.

(2) سورة قٓ، الآية ٣٧.

(3) سورة المطففين، الآية ٢٦.

لقد أنفقت «زبيدة» في سبيل ذلك جواهرها ومالها، والتي لا تستطيع الأرقام أن تحصرها، حتى عظم الأمر على خازن المال، وكأنه أراد أن يتوقف، فقالت له «زبيدة» تلك الكلمة الخالدة: «اعملْ ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً».

وأصبحت «عين زبيدة» التي احتملت ماء الحياة سائرة هنية إلى أم القرى ذكرى لها، وأصبحت أثراً لهذه المرأة تُذْكَر بذكرها، لأن نفسها صاغها الله صياغة طيبة، واصطنعها لإذاعة خُلُقه، وابتعثها غرة في جبين الزمن. لذلك كانت «عين زبيدة» أثراً صالحاً تفنى دونه الآثار، وتتحطم المعالم. إنه من المعلوم أن المرأة التي نشأت في بيت العز والغنى تبحث دائماً عن آخر «الموديلات» وآخر صيحة في تسريحات الشعر، إلى آخر ما تبحث عنه الغانيات، ولكن هذه المرأة الغنية سخَّرت غناها لطاعة الله التي كانت حريصة على مرضاته. لقد أسَّست مطاعم للفقراء وكانت تنفق قرابة المليونين من الدنانير لإطعام الفقراء في الأماكن التي أعدَّتها لهم.

وكانت السيدة «زبيدة» بحكم وضعها الاجتماعي لها جَوارٍ «خَدَم» أكثر من مائة، فقامت بتحفيظهن القرآن الكريم عن ظهر قلب، وجعلت لكل واحدة منهم ورداً تقرؤه كل يوم، بحيث لا تمضي ساعة إلاَّ وفي بيتها قرآن يُتْلَى. وكان يُسْمَعُ في قصرها القرآن كدويِّ النحل. كما كان لها مجلس تُرْخَي فيه الستائر ويحضر العلماء وتناقشهم في المسائل العلمية، مما يدل على موفور عقلها، وبُعْد نظرها، وكانت تقصد بهذه المناقشات نشر العلم، وتقدير أهل الفضل.

ويذكر التاريخ أنها أوصت «عليَّ بن عبس» حين خرج من عند ولدها «الأمين» قائداً للجيش لقتال «المأمون» فقالت: «يا عليّ... إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي فإني على عبد اللّه «المأمون» متعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ولدي ملك نافَسَ أخاه في سلطانه... فاعرف لعبد اللّه حق ولادته وإخوته، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لَسْتَ نظيراً له، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بقيد أو غُلٍّ، ولا تمنع عنه جارية أو خادمة، ولا تعنف عليه في السير، ولا تُساويه في المسير، ولا تركب قبله، وخُذْ بركابه إذا ركب، وإن شُتمت فاحتمل منه».

هذه وصية لقائد الجند الذي خرج لملاقاة عدو ابنها، وتأمل ما في الوصية من أدب، مما يدل على الخُلُق والأصالة والتديُّن، ومعرفة أقدار الناس، وإنزالهم منازلهم. لذلك نقدُّمها كنموذج فريد، نشأت في بيت العز، وترعرعت على بساط الثراء، ومع ذلك فلم يشغلها الغنى، ولم يبطرها ما هي فيه، وإنما صنعت المعروف لتبين لنا أن الخير كل الخير في الخُلُق الكريم، وحُسن العلاقة بالمجتمع، وتقديم العون والمساعدة في العمل الاجتماعي العام الذي يرفع قَدْرَ الإنسانِ ويُقرِّبه من ربِّه ويحبِّب الناس فيه. ولا شك أن أَلْسِنَةَ الخَلْقِ أقلامُ الحق، لذلك فإن «زبيدة» برغم مرور الزمن فإن ذِكْرَها باقٍ، وسيرتها تتردَّد بين الناس بكل تقدير ومحبَّة، ودعاء لها بالرحمة والمغفرة. وأسكنها الله فسيح جنَّاته مع الصالحين الطائعين، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

الخاتمة

هذه نماذج متعددة للمرأة المسلمة، تبيِّن كيف عاشت تحت ظلال الإسلام، وأدَّت واجبها بدقة... وصانت نفسها فتاة... ورعت حق زوجها شابة، وأدت واجبها في بيتها بمهارة فائقة... وقامت على تربية أولادها أمًّا تُقدِّر القيم الأخلاقية، والأدب العالي، ومكارم الأخلاق، فشهد العالم بفضلها.

إن المرأة في سبيل الله، وفي سبيل دينها، وفي سبيل بيتها أعطت الكثير، لأنها آمنت بأن هذا دورها وتلك وظيفتها الأصيلة. فهي إنْ نزعت إلى خُلق فاضل أفاضت على القوم حب التضحية وجمال الخيال. ولقد لقيت المرأة العربية في جاهليتها مكانة سامية ومجالات عظيمة درجت فيها إلى أن أصبحت ملكة في بعض الأماكن. وإن كانت في أماكن أخري تعثَّر بها الدهر وتغشَّتها ظُلل من الفزع، فقد أُكرمت في أماكن حتى كان الابن يُنادى بأمه لأنها الشرف الذي يحميه فقال القائل:

أبا هِنْدٍ فلا تَعْجَلْ علينا وأَنْظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليقينا

ومن العرب من كان يرى البنت حِمْلاً فادحاً يضعف هو عن احتماله، وتتخاذل قواه دونه لفرط ما يشفق من وصمة الذل إذا وهنت نفس ابنته أو ذهب السباء بها ـ أي: يأخذها أحد أسيرة ـ فكان إن استبقاها حية فعلى كُرْهٍ لها، ومضض منها، وترقُّب لموتها. وفي بعض الحالات يفزع إلى الأرض يحفرها ثم يقذف بابنته فيها، ويُهيل التراب على نضارة وجهها، ويسكت صوتها ما يملأ فيها من حجارة وتراب. لذلك عندما أسفر نور الإسلام وافترَّ ثغر الدهر لنساء العرب عن جو مشرق، وأمل جميل، وأسلوب في الحياة جديد، وأضاء الكون بنور الله، ونزل القرآن على سيد البشر، عاب القرآن على بعض العرب الذين سلكوا بالمرأة إلى انتقاص قدرها وإهانتها، فقال الله جل شأنه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ

مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾[1]. وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾[2]. ونرى أن السؤال من الله للموءودة فيه احتقار للوائِد، وتقليل لشأنه، لفرط السخط عليه، لأنه من شناعة جُرمه لا يستحق أن يُوَجَّه السؤال إليه.

لقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ وبعض العرب يأنف أن يداعب ابنته، أو يسمح لها أن تمرح بين يديه، أو يظهر عليها الفرح، فلما نزل الإسلام على نبي الإسلام وورفت أغصانه نعمت المرأة تحت ظلاله، وتقلبت بين أعطاف الخير، ونهلت من معين العلم، حيث ضرب لها بسهم في التشريع، وشُرِعَ لها من الحقوق ما لم يُشْرَعْ للمرأة في أي عصر من العصور. نعم، إن الذي غيَّر الأفهام وصحَّح موازين الاعتدال هو الإسلام بما شرع، ونبيُّه بما طبَّق، لأن رسول الله ﷺ نقض تلك السُّنَّة السيئة، فكان يداعب الولائد من بناته أو بنات صحابته.

روى البخاري عن أبي قتادة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وأُمامَة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلَّى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها...».

وأمامة أمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وكانت أمامة من أحب البنات إليه. كما حدَّثت أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: «أتيتُ رسول الله ﷺ مع أبي وعليَّ قميص أصفر، فقال رسول الله ﷺ: «سنة، سنة»... وهي بالحبشية: حسنة، حسنة. قالت: «فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فانتهرني أبي... فقال رسول الله ﷺ: «أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي». ولقد خاطب الرسول ﷺ أم خالد بلغة الحبشة، لأن أباها وأمها من المهاجرين إليها، وهي وُلدت هناك... وأبلي وأخلقي: أي البسي ودوِّبي كثيراً، وعمِّري وأنت بصحة... لذلك عمِّرت كثيراً.

ولقد أبصر المسلمون حب النبي ﷺ لفاطمة وشغفه بها وحنانه عليها حتى قال فيها: «**فاطمة بضعة مني، يسوؤني ما يسوؤها، ويسرني ما يسرها**».

إن المرأة قسيمة حياة الرجل، وعماد أمره، ومهبط نجواه، من أجل ذلك

---

(١) سورة النحل، الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) سورة التكوير، الآيتان ٨ ـ ٩.

رفع الإسلام قدرها وسَما بها، وأعلن رسول الله ﷺ: «ما أكْرَمَ المرأةَ إلاَّ كريمٌ، وما أهانَها إلاَّ لئيمٌ». إلى تلك المنزلة السامية رفع الله قَدْرَ المرأة ليكل إليها أشرف منازل الحياة. منزلة الأستاذ الذي لا يُمحي عِلْمه... منزلة التربية والتعليم... فليست المرأة بالخلق الضعيف.. ولا بالخلق الحقير.. فإنَّ مَنْ وكَّله الله بابتناء الكون وإنشاء الأمم كيف يكون حقيراً؟

ألاَ إنما المرأة عماد الكون لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضت به، فإن هي وهنت دونه وتخاذلت عنه تهاوت عُمُده، وتصدَّعت جوانبه، وانهدَّ البناء. فللمرأة من دقة الحس وقوة العاطفة وبُعْد الخيال فوق ما للرجل. لذلك كان احترام الأم في الجاهلية طبعاً مألوفاً، فأصبح بالإسلام فوق ذلك فرضاً محتوماً، لأن الله سبحانه وتعالى ما كان ليخرج الرجال من مخرج سيئ، أو ينبتهم منبتاً فاسداً، أو يضمهم إلى صدور واهية وقلوب سقيمة، ثم يطلب منهم أن يسعوا إلى أشرف الغايات وأسْمَي المقاصد.

لو كان الأمر كذلك لكلَّف الرجال شططاً، وجشموا محالاً، فإن المرأة من الأمة بمثابة القلب من الجسد، فإن وهنت كان كل ما في الجسد واهناً وضعيفاً. لذلك عمد الإسلام ـ أول ما عمد ـ إلى المرأة فأنصفها ورفع شأنها.. لقد استمع العالم في يوم من الأيام إلى «لنكولن» زعيم الجمهورية الأمريكية وهو يقول لمهنئيه: «لا تهنئوني وهنّئوا أُمّي، فهي التي رفعتني إلى مقامها».

ولقد كانت المرأة في أنحاء الدنيا تنصت لهذا الكلام فتتطاول بأعناقها، وتزهو بما تستمع، لكن المرأة المسلمة استمعت إلى أكثر من هذا وأعظم وأحسن من نبيّ الإسلام وهو يقول للرجل الذي يسأله ويقول: مَنْ أَحَقُّ الناسِ بحُسْنِ صُحْبَتي يا رسول الله؟ قال: «أُمُّك»... قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّك»... قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّك»... قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أبوك». لذلك اجتمع للمرأة المسلمة ما لم يجتمع لغيرها من إقرارٍ بحقها في التربية ومجالات العمل، وإمعان في احترامها، ولهذا نراها وقد نبغت في شؤون الأدب وفنون العلم.

ولقد امتازت المرأة المسلمة بالصدق في العلم والأمانة في الرواية ومعاذ الله

أن نقول ذلك محاباة لها أو مشايعة لموضوع كتابنا. ولك أن تتأمل أن الحافظ الذهبي ـ وهو من كبار العلماء وأجلِّهم، ومن عظماء المحدِّثين (توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة) وألَّف كتابه «ميزان الاعتدال» في نقد رجال الحديث، وخرَّج فيه أربعة آلاف منهم من المحدثين. وفي النهاية كتب بخط يده الواضح وقلمه العريض فقال: «وما علمتُ من النساء من اتهمت، ولا من تركوها»[1]. ومن المؤكد أن حديث رسول الله ﷺ منذ عهد عائشة وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين حتى عهد الذهبي ما حفظ ولا روي بمثل ما حفظ قلوب النساء ورُوِيَ على ألسنتهن.

وإذا ما عرفنا أن الحافظ ابن عساكر وهو أحد رواة الحديث الثقات وأصدقهم، «الملقبوه بحافظ الأمة»، كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء[2]. . . كما أن محمد بن سعد صاحب كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ذكر من النساء اللاتي ذكرهن كراويات للأحاديث النبوية أكثر من سبعمائة امرأة روين عن رسول الله أو عن الثقات من أصحابه، وروي عنهن أعلام الدين وأئمة المسلمين.

لقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تجيد القراءة، كما كانت حفصة أم المؤمنين تحسن الكتابة ، وكانت الشفاء بنت عبد اللّه بن عبد شمس هي التي علَّمتها ذلك[3]. وعلي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، وهو العالم الأشم الذي لا يدانيه أحد في علمه وحكمته، يتلقى الحديث على مولاة لرسول الله ﷺ كانت تقوم على خدمته، هي ميمونة بنت سعد[4].

فهل سمع الناس بمثل هذا التكريم للمرأة في عصر من العصور؟! إنه الإسلام ونبيّ الإسلام. . ونحن نادي على الذين يتحدثون عن المرأة ونقول لهم: تعالوا

(١) «ميزان الاعتدال» للذهبى، ج ٣.
(٢) «طبقات الشافعية» للسبكى، ج ٤.
(٣) «الإصابة فى أخبار الصحابة»، ج ٧.
(٤) المصدر السابق.

«اقْرَءُوا كِتابِيَهْ». ومن عجب أنَّ نفاذ رأي المرأة ورجاحة كفَّتها ليس وقفاً على الدين وحده، بل هناك الشعر، والأدب، والتاريخ، والطب، والفلك، والأنساب، كان للمرأة باع طويل في كل تلك المجالات... وفي ذلك يقول عروة بن الزبير فقيه المسلمين: «ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة»[1].

ولقد كانت زوجات النبي ﷺ قسيمات عائشة في إذاعة العلم وإفاضة الدين على المسلمين. ولقد حدَّث أن عائشة بنت طلحة وَفَدَتْ على هشام بن عبد الملك فقال لها: ما أوفدك؟ قالت: حبست السماء المطر، ومنع السلطان الحق. قال: إني سأعرِّفه حقك. ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فاسمروا عندي الليلة... فحضروا، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلاّ أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمَّته لهم، فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة. فأمر لها بمائة ألف درهم وردَّها إلى المدينة[2].

كما ذكروا أن الحجاج تحدث عن نسائه فقال: «عندي أربع نسوة: هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجلاّس بنت عبد الرحمٰن، وأمة الرحمٰن بنت جرير بن عبد اللّه البجلي... فأما ليلتي عند بنت المهلب فليلة فتي بين فتيان يلعب ويلعبون... وأما ليلتي عند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك... وأما ليلتي عند أم الجلاس فليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعارهم... وأما ليلتي عند أمة الرحمٰن فليلة عالم بين العلماء والفقهاء»[3].

لقد وردت المرأة المسلمة على الإسلام فلم تتجاوز العَبَّ من هذا المنهل العذب، فكان قولها قطعاً من قلبها ومشاعرها، فهي إذا خطبت أو كتبت أو شافهت أو نظمت لم تبعد في القول عمّا تؤمن به وتهفو إليه، لأنها استمدت وحي البلاغة وسحر البيان من صبيب قلبها وخطرات سرائرها، وتلك شواهد موجزة مجملة

(١) «طبقات ابن سعد»، الجزء الثالث.
(٢) «الأغانى» لأبى الفرج الأصبهانى، ج ١٠.
(٣) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، الجزء الثالث.

لشخصيات قليلة، لكن هناك مئات الملايين ممن تزخر بهن الكتب اقتطعنا لك هذا الجزء لتعرف وثبة الإسلام بالمرأة التي هي عماد البيت، وأيضاً دعامة الحياة، فهي لم تدع موطناً عظيماً ولا مشهداً حافلاً ولا عملاً خالداً إلا وكانت فقار ظهره وعماد أمره، فلقد جلست إلى رسول الله ﷺ متحدِّثة ومتعلِّمة، ورافقت جيشه آسية ومداوية، وجالت بين يديه مقاتلة مستبسلة، وهاجرت إلى الحبشة مع السابقين الأولين، كما هاجرت إلى المدينة لأنها لم تقصر، فأجزل الله في كل ذلك مثوبتها، وأحسن النبي مآبها، وأكبر المسلمون مواقفها.

ونحن نؤمن بأن المرأة وإنْ جاذبت الرجل حبل العمل وساجلته جد الحياة فقد احتملت من العبء أثقله، ونالت من النصيب أقلّه، وربما تناولتها المصائب من كل جانب، فلا تجد من حُسْن العزاء إلَّا ما وعد به رب الأرض والسماء: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾[1]... لقد بايعت المرأة الرسول كما بايع الرجل، وقَدِمَ عليه وفد من النساء فقلن: يا رسول الله، إنَّ رجالنا قد بايعوك وإنَّا نحب أن نبايعك... فبايَعْنَهُ... وتلك بيعة طوَّقت إيمانهن. ثم أصغين إلى ما كتب الله للصابرين والصابرات من عظيم الأجر وجميل المثوبة، لأن الصبر خلَّة الأنبياء وآية المقربين وسُنَّة الصِّدِّيقين لذلك تحلَّت بالصبر.

ولقد أتانا نبأ «الخنساء» وهي امرأة عاشت في الجاهلية والإسلام... وفي الجاهلية قُتِلَ أخواها فأقامت الدنيا ولم تقعدها، وحديث جزعها وتصدع قلبها واضطرام حشاها على أخويها مشهورٌ مما نطقت به أشعارها، وذاعت بحرّه أخبارها... لقد استحال كل ذلك إلى صبر صاغه الإيمان، وجمّله التقى، لأن الإسلام عمد إلى قلب المرأة فاستلَّ سخيمته، وأخرج ضغينته، وطهَّره من غل التأثر ونزعة الانتقام، لأنها عرفت أن الله شرع القصاص، واستنقذ العرب من منازع الفتن وطلب الثأر. لذلك طهَّر الله نفسها، وحصر عن عقلها حجاب الجهل، ونزع عن إدراكها غشاء الأباطيل. لهذا رأينا الخنساء تقول لأبنائها ـ وهم أشطار كبدها ونياط قلبها ـ عندما خرجوا إلى القادسية، وكانوا أربعة، فأوصتهم قائلة: «يا بني،

(١) سورة الزمر، الآية ١٠.

إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما هجنتُ حَسَبَكم وما غيَّرتُ نَسَبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية... اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون... فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرت عن ساقها وجللت ناراً على أرواقها فيمِّمُوا وطيسها، وجالِدُوا رَسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة».

فلما كشَّرت الحرب عن نابها تدافعوا إليها، وتواقعوا عليها، وكانوا عند حُسْن ظن أمِّهم بهم، وقُتِلُوا واحداً بعد واحد، فلما وافاها النعاةُ بخبرهم، لم تزد على أن قالت: «الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم، وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».

ذلك مثل الكمال في أسمي فضائله، وقوة الإيمان في أعلي درجاته... ولم تقف المرأة الإسلامية عند حد النبوغ في العلم الديني والأدب العربي، لكنها أخذت بنصيب موفور من النهضة التي استحدثها المسلمون، فهناك من النساء من برعن في فروع الطب، ونبغ منهن عدد موفور.

ولعله من الأفضل أن نختم حديثنا عن وقفة عند عصر «الحكم بن الناصر» الذي ولع فيه أهل الأندلس بالشعر والغناء، وجنوا قطاف الفنون والعلوم، فقد كان هناك بعض النساء في هذا العصر قد اعتزلن ما عاش فيه أهل الأندلس من مرح وفرح، وشعر كله غزل ووصف... وكان هؤلاء النسوة في عزلتهن يُقبلن على الدروس الدينية وينصرفن إليها ـ وإذا قلنا العلم الديني فإن علوم الدين تشمل كل علوم الحياة ـ وكان من بين هؤلاء امرأة تسمي «لُبْنَى»، جمعت إلى جمالها الساحر إحاطتها بالشعر، والنحو، والرياضة، وعلوم القراءات، وكانت تكتب رسائل الخليفة «لأنها من نسائه» بأسلوب يملأ النفس روعة، لجمال التعبير، ونسق الضبط... وخط يملأ العين جمالاً... وكذلك كانت هناك «فاطمة»، وكانت في رجاحة عقلها «كَلُبْنَى»، وكان لكل منهما مكتبة جمعت أعظم الكتب وأنفسها. وهكذا إذا ذهبت تقلَّب في تاريخ النساء فسوف تجد ما يسرُّ النفس ويسعد القلب،

وتلك حكمة الله الذي ﴿يُؤْتِي الحكمة من يشاء، ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً﴾.

إن كرامة المرأة في الإسلام تتناول شخصها وسيرتها، وتشمل مشهدها ومغيبها، فهي في موطن الرعاية والعناية، واسمها بمنجاة من لَغْوِ القول ومنال اللسان... ولقد منحها الإسلام أن تجير الخائف، وتفك العاني... فقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين من أحمائها كتب عليهما القتل... ولقد أراد الإمام عليّ كرّم الله وجهه أن يقتلهما، فأغلقت عليهما باب بيتها وذهبت إلى رسول الله ﷺ، وسألها عن سبب مجيئها فذكرت خبر الرجلين وإصرار عليّ رضي الله عنه على قتلهما بعد أن أجارتهما، فقال لها الرسول ﷺ: «قد أَجَرْنا من أَجَرْتِ يا أُمَّ هانئ، وأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ فلا يقتلهما»... وبعد:

تلك هي المرأة التي وثب بها الإسلام ورفع شأنها، ومنحها الحرية المنضبطة على القيم الأخلاقية، والتقاليد الاجتماعية، والعرف السائد... قدَّمنا ما قدَّمناه لأننا نريد من نسائنا أن ينهضن كما نهضت جدَّاتهن وعليهن أن يتخذن من الوسائل ويتلمسن الخُطَي بما يحفظ لهن الكرامة، لأنهن منابت حُماتنا، ومنار دعوتنا، ومثار قوّتنا، وما نحن وإياهن إلاَّ كجناحي النسر الصاعد، إذا هِيضَ أحدهما خفض الآخر.

إننا ننزع إلى الكمال لأن لنا فيه نسباً عريقاً، وطريقاً عميقاً، فنحن مطلع فجره، ومبعث فخره، وهو ميراث ورثناه عن أجدادنا وآبائنا، ولكننا سُلبناه في غفوة الزمن وظلام الليل، وها نحن اليوم نحاول أن نسترده ونرد عنه كيد الأعداء.

وتلك صفحات من صفحات تاريخنا الذي نعتز به ونطرب له، ولعلها أحفل الصفحات بالعظات، وأجمعها للعظائم... لكل ذلك أناشد نساءنا أن يسدلن الحُجُبَ بينهن وبين نساء أوروبا، ففي أمهاتنا المسلمات الأوليات فضل وغناء، لأن ما انحدرت إليه المرأة الآن هو غثاء مُسْتَحْدَث، وصدأ عارض ألقاه علينا تطاول الزمن وتتابع الحادثات... فسعياً للوصول إلى الكمال المطلق أُقَدِّمُ ما قدَّمت من حديث عن المرأة، وهو ليس للنساء فحسب، بل للرجال كذلك، فإن

صلاح كل من الفريقين لا يقوم إلاَّ على صلاح صاحبه... وسيرى الناس أن الإسلام أعطى المرأة ما لم تعطها الحضارة الحديثة...

وأسأل الله العلي القدير أن يهيئ لنا من أمرنا رَشداً، وأن يأخذ بأيدينا إلى طريق الخير، ضارعين إلى الله في خشوع، قائلين: **﴿ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذُرِّيَّاتنا قُرَّة أعين﴾**. هذا وبالله التوفيق.

وصلَّى لله على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف
للمساجد وشؤون القرآن

عضو اتحاد الكتّاب

الفهرس

المؤلف في سطور

- وكيل وزارة الأوقاف الأسبق لشؤون القرآن والمساجد.
- خدم المؤلف في مجال الدعوة الإسلامية في الداخل والخارج.
- له مؤلفات تزيد على ٥٥ مؤلفاً.
- حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من الدولة.
- حصل على درع التفوق من وزارة الأوقاف في الدعوة الإسلامية.
- حصل على ميدالية العامل المثالي من وزارة القوى العاملة.
- عضو إتحاد الكتاب المصري.
- عضو شعبة الرعاية الإجتماعية بالمجالس القومية المتخصصة.
- عضو شعبة الشباب والرياضة بالمجالس القومية.
- شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والعالمية.
- أسهم بنشاط وافر في العمل الإجتماعي.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب نماذج عديدة للمرأة المسلمة التي عاشت في كنف الإسلام، فيبين ما طرأ على حياة العرب من تحولات جوهرية بعد نزول القرآن الكريم على سيد الأنبياء محمد ﷺ.

لقد كانت المرأة تسام الخسف إبان العصر الجاهلي، حتى إن القبائل العربية كانت لا تتورع عن وأد المرأة حية تجنباً للعار الذي يلحقها بسبب الأنثى. فلما جاء الإسلام أنصف المرأة من خلال التشريعات الجديدة التي سنها القرآن، فرفع بها الظلم عن كاهل المرأة وجعلها متساوية الحقوق مع الرجل، فتغيرت النظرة السابقة نحوها، وباتت كياناً إنسانياً له دوره الإيجابي في المجتمع.

وهكذا سما قدرها بفضل الدين الجديد، ولم تبق ذلك الكائن المستضعف الذي لا شأن له إلا تلبية حاجات الرجل وأوامره، من دون اعتراض ولا مجادلة.

لقد كرم الإسلام المرأة أعظم تكريم، فأصبح لها شأن يذكر في ظلاله المباركة. فإذا بها تتعامل مع كل شؤون الإبداع التي كانت وقفاً على الرجل وحده، فنبغ من بين النساء الشاعرات، والأديبات، وتناقلن الحديث، وبرعن في التاريخ، والطب، والفلك، والأنساب.

تلك هي المرأة التي رفع شأنها الإسلام، ومنحها الحرية التي أخرجتها من الظلمات إلى النور، وقوى به شخصيتها، وتفتحت طاقاتها ومواهبها، حتى غدت تنافس الرجل في شتى ميادين العلم والمعرفة.

بهذه الصفحات المشرقة من صفحات تاريخنا، يعمد الشيخ منصور الرفاعي عبيد إلى إماطة اللثام عن كوكبة من النساء اللواتي خلدهن التاريخ، وبيّن نماذج مشرقة يجدر بنا أن نتعرف إلى سيرتهم من خلال هذا الكتاب الرائد الذي بين أيدينا.

الناشر

